

الدكتور
مروان ابراهيم القيسي



مكتبة الغرباء

معالم الهدى

إلى

فهم الإسلام

صنّفه

الدكتور مروان إبراهيم القيسي



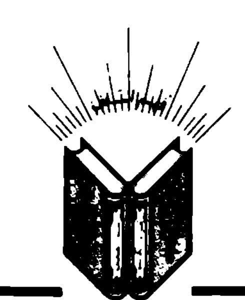
معالم الهدى إلى

فهم الإسلام

نحو فهم إسلامي صحيح

الطَّبعة الثالثة

١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م



مكتبة الغرباء

الدار الأثرية للطباعة والنشر

استانبول ـ تركيا

P.K. 591 Sirkeci- İstanbul- Türkiye

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وتقدير واحترام

* الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. اللهم لك الحمدُ، أنت نُورُ السمواتِ والأرض ومن فيهن ولك الحمد. أنت قيّام السموات والأرض، ومن فيهن، ولَكَ الحمد. أنت ربُّ السموات والأرض ومن فيهنَّ، ولك الحمد. أنتَ الحقُّ، ووعدُك الحقُّ وقولُك الحقُّ، ولقاؤك حق. اللهم ربنا لك الحمدُ ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد أحق ما قال العبد، وكُلُّنا لك عبد. اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفعُ ذا الجد منك الجد.

* يحق على المؤلف أن يتقدم بالشكر والعرفان لوالديه اللذين اقترن رضاهما برضا الله عز وجل. كلمة وفاء صادقة لما افنوه من عمرهم في تربيتي وتوجيهي باتجاهين اساسين: الدين والعلم. أتضرع إلى الله تعالى أن يحسن جزاءهما وأن يعينني على تحصيل رضاهما.

* ويسجل المؤلف تقديره لأصحاب الدراسات الذين اقتبس من آثارهم أو شاركهم في آرائهم وللأخوة الذين ساهموا في تقديم مشورتهم وتعليقاتهم القيمة على هذا البحث.

* وإنَّ المؤلف يسجل احترامه وتقديره لكل من اطلع على هذا البحث فوقع على خطأ فتعامل معه بنية حسنة وسريرة صافية وعمل على إصلاحه.

* والحمد لله كثيراً طيباً مباركاً فيه غير مَكْفيٍّ ولا مُوَدَّعٍ ولا مُسْتَغنىً عنهُ رَبنا.

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.. أما بعد:

إن الله تعالىٰ أكمل دينه وأتم نعمه على هذه الأمة.. بارسال رسولهﷺ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله.. فبلغ الرسول البلاغ وأدى الأمانة ونصح الأمة وتركهم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، ما ترك خيراً إلا دلَّ أمته عليه ولا شراً إلاحذّرها منه، وقد أمرنا الله بطاعته واتباعه، ونهانا عن مخالفته، فقال تعالىٰ: ﴿**وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا**﴾[1] لان في طاعته الخير والنجاة، وفي مخالفته الشر والهلاك.. وجعل سبحانه اتباع الرسولﷺ علامة على محبة الله، قال تعالىٰ: ﴿**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم**﴾[2] فمن زعم أنه يصل الى الله وينال محبته من غير اتباع الرسولﷺ فهو كافر خاسر، قال تعالىٰ: ﴿**قل أطيعوا الله والرسول فإن تولّوا فإن الله لا يحب الكافرين**﴾[3] وكذلك من أراد عملاً يتقرب به الى الله ولم يشرعه الله ورسولهﷺ فهو باطل مردود عليه، لا يزيده من الله إلا بعداً، قالﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»[4] لأنه عمل مبتدع «وكل بدعة ضلالة»[5] والبدعة: ما أحدث في الدين ولم ينص عليه الشرع، والسنة: هداية ونجاة في الدنيا والأخرة قال تعالىٰ: ﴿**وإن تطيعوه تهتدوا**﴾[6] والتمسك بسنة

---

(١) الحشر: ٧. (٢) ال عمران: ٣١ (٣) آل عمران: ٣٢

(٤) متفق عليه (٥) متفق عليه (٦) النور: ٥٤

الرسولﷺ والعمل بها هو الصراط المستقيم الذي أمرنا الله به، وبطاعته وعدنا سعادة الدنيا والأخرة، قال تعالى: ﴿ومن يُطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً﴾[1] وبمخالفته الشقاوة والضلالة.. قال تعالى: ﴿ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً﴾[2].

ومما يدعو الى الأسى بعد كلّ هذا الوضوح في الدين والبلاغ المبين والبيان الكافي، أن نرئ أمة الاسلام قد اختلفت إختلافاً كبيراً فتفرقت بها السبل وتمزقت الصفوف وتأجّجت نار الخلاف بينهم، فتبعثرت جهودهم وتغلب عليهم عدوهم، والأعجب من ذلك – ان الكل يدعي وصلاً بليلى – ويرفع شعار أهل السنة والجماعة ويدعو الناس لمبايعته وينسب غيره للضلال والانحراف وشق عصا الطاعة.. وكل هذا ناشئ – والله أعلم – بسبب غياب المفاهيم الاسلامية الصحيحة لعامة أمور الدين وخصوصاً لمفهوم التوحيد والعقيدة، ومنهج التلقي، والجماعة والبيعة.. و.. و..

ومن أجل هذا، نعتقد أن من الواجب على كل مسلم موحّد الرجوع الى التحاكم بالكتاب والسنة وعلى فهم السلف الصالح المشهود لهم بالخيرية، كما قال الإمام مالك رحمه الله: لن يصلح أخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، فما لم يكن يومئذ ديناً لا يكون اليوم ديناً.

يقول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم فإن تنازعتم في شئ فردوه الى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الأخر ذلك خير واحسن تأويلاً﴾[3]. وقال تعالى: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يُحكّموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدُوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾[4].

وقالﷺ: «... فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً

---

(١) الاحزاب: ٧١ (٢) الاحزاب:٣٦ (٣) النساء:٥٩ (٤) النساء:٦٥

فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكو بها، وعضوا عليها بالنواجذ »(١).

ومن سنة الرسولﷺ اتباع منهجه في فهم الدين كله.. ولا شك ان في كتاب الله وسنة رسولهﷺ بيان المنهج الدعوي الصحيح الذي يحقق إقامة الدين في الارض.. ويغنينا عما أحدثه الناس من مناهج مبتدعة مخالفة لمنهجه وسيرتهﷺ.

والمناهج المبتدعة الحادثة سواءً أريد بها وجه الله أو غير ذلك فهي باطلة، ولا نؤاخذ المجتهدين المخلصين منهم، ولكن لا نوافقهم ولا نتبعهم ونحسبهم بين أجرين، وندعوا الناس عامة والدعاة خاصة الى اتباع منهج سيد الدعاةﷺ والتقيد به.. ونسأل الله الثبات عليه.

وخير دليل على هذا تأملنا في المثل الذي ضربهُ الرسولﷺ بصورة تَوضيحيَّة للصحابة رضي الله عنهم.. فعن جابر بن عبدالله قال: كنَّا جُلوساً عند النبيﷺ. فخَطَّ خطاً هكذا أمامه فقال: « هذا سبيل الله عزَّ وجل » وخط خطاً عن يمينه، وخط خطاً عن شماله وقال: « هذه سبل الشيطان » ثم وضع يدهُ في الخط الأوسط، ثم تلا هذه الآية: **﴿ وأن هذا صراطي مُستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصَّاكُم به لعلكم تتقون ﴾**(٢) واذا أمعنا النظر فيه لا نجدُ بين سبيل الله وسُبل الشيطان ممر ولا طريق..! (ولكن أهواء وشهوات وتعصب مذموم وحزبية مقيتة)... وقد ذكر في الحديث « سبيل الله » أي طريق ومنهج واحد، أما « سبل الشيطان » فهي: طرق وجماعات وأحزاب، كما قال تعالى: **﴿ من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون ﴾**(١) وقال تعالى: **﴿ استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك**

---

(١) صحيح ابو داود (٢) الانعام:١٥٣ والحديث صحيح رواه ابن نصر المروزي في السنة .

حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ﴾(٢) وفي القرآن الكريم لم يذكر إلا حزبين(*) حزب الله وحزب الشيطان، فحزب الله هم على المنهج النبوي السديد، لا يتبعون إلا الرسولﷺ وأصحابه ومن تبعهم بإحسان الى يوم الدين ﴿ أولئك حزبُ الله ألا إن حزب الله هم المفلحُون ﴾(٣) والدعوة الى هذا المنهج لا تأتي إلا بشروط ثلاثة:

الأول: سلامة المنهج: أي فهم الكتاب والسنة على ضوء ما أصّلوه من أصول وما قعدوه من قواعد.

ثانياً: سلامة المعتقد: أن نعتقد ما اعتقدوه في توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات.

ثالثاً: سلامة العمل: أي لا ابتداع فيه.. بل يكون خالصاً لوجه الله موافقاً لشرعه سواء كان العمل اعتقادياً أو فعلياً أو قولياً.

وكذلك لابد من تحذير الناس مما انتشر بينهم من الأحاديث الموضوعة والضعيفة والمنكرة وعلى ألسنة كثير من العلماء والدعاة والخطباء، وحثّهم على تحري الأحاديث الصحيحة التي صحّحها الأئمة المعتبرون في هذا العلم، وكذلك عدم التساهل في دين الله وخصوصاً في الأمور الأساسية، وعدم التشدد.. بحيث لا يقودنا التساهل الى إحلال الحرام أو مخالفة السنة بحجّة (مصلحة الدعوة تقتضي..) قال أحدهم: أحلق لحيتي أو أخذ منها لمصلحة الدعوة وقال آخر: أسبل إزاري لصالح الدعوة، وقال آخر: الغناء لا بأس به مسايرةً منه للعصر، وقال اخر: التصوير لا بأس به.. قال.. وقال..

---

(١) الروم:٣٢ (٢) المجادلة:١٩ (٣) المجادلة:٢٢

(*) الحزب: يعني تحزب مجموعة من الناس على منهج معين والدعوة اليه والتعصب له. وكل الاحزاب والجماعات المنسوبة الى الاسلام اذا خالف منهجهم المنهج النبوي فهم ليسوا من حزب الله. اذن هم من حزب.......!

ونحن نقول: تباً لهذه الدعوة التي تقتضي مخالفة السنة ومنهج الرسول ﷺ.

وقال تعالى: ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدوٌ مبين﴾(١).

ويقابل ذلك التشدد المفرط.. الذي لا يثمر أبداً اذا كان هو الأصل.. ولكن من الحكمة أن يوضع اللين في موضعه والشدة في مكانها، كما كان هدي المصطفى ﷺ وصحابته والائمة المهديين من بعده، ودعوتهم فيها الحكمة والموعظة وعفيف العبارة، وحكيم التناول، والتمكين العلمي وقياس الأمور بضوابط الشرع، كما أرشدنا ربنا عزوجل: ﴿ادعُ الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾(٢).

واذا كان الأمر كذلك فإنه يجب على أهل العلم أن يبينوا للناس السنن ويأمروهم بالتزامها والعمل بها وترك ما خالفها من البدع والمحدثات. كما قال تعالىٰ: ﴿وإذ أخذ اللّهُ ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون﴾(٣) وخصوصاً في غربة الإسلام عندما تخفى السنن وتظهر البدع ويقل الفقهاء ويكثر القراء وينشط دعاة الضلال.. والله المستعان.

ومن هذا المنطلق فيجب على كل عالم وداعية بصير بالسنن أن يقوم بواجب الدعوة وبيان الحق ما أمكنه وإبلاغه للخلق.. والنصح لله ولكتابه ولرسوله ﷺ ولأئمة المسلمين وعامتهم.

وقال ﷺ: «من سنَّ في الاسلام سُنة حسنةً فله أجرها، وأجر من عمل بها من بعده، من غير ان ينقص من أجورهم شئ، ومن سن في

---

١) البقرة:١٦٨ النحل:١٢٥ (٣) ال عمران: ١٨٧

الاسلام سنة سيئة فعليه وزرها، ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيئ)[1].

ولقد قام أخونا في الله فضيلة الشيخ مروان القيسي بسن هذه السنة الحسنة في محاولة اعادة فهم الاسلام حيث ألف كتابه (معالم الهدىٰ الى فهم الاسلام) وبين فيه أسباب اختلاف الأمة وشخّص فيه الأمراض الدخيلة على الاسلام ونفىٰ به القاعدة الباطلة: إختلاف أمتي رحمة.. وأثبت العكس الصحيح: وحدة الأمة هي الرحمة.. ووضع تصوراً شاملاً للاسلام في أصوله وفروعه منتقاة من النبع الصافي.. الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة.. وجاء الكتاب مدخلاً لدراسة شريعة الاسلام، وبأسلوب سهل بحيث يستفيد منه العوام والخواص.. وإيماناً منا بهذا العمل قمنا مستعينين بالله بإعادة طبعه بغية مشاركتنا في نشر الحق بين الخلق.

فجزى الله الأخ مروان خيراً وثبّتنا وإياه على الحق وجعلنا من أهله ودعاته.. ونسأل الله أن ينالنا شرف نشره. ونعوذ بالله من الضلال بعد الهدى ومن العمىٰ بعد البصيرة..

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

وكتبه
راجي رحمة ربه الغفور
عبدالله بن عبدالحميد الأثري
نزيل استانبول
١٤١٣هـ مكتبة الغرباء

(١) رواه مسلم

مُقَدِّمَةُ الطَّبْعَةِ الثَّانِيَة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضل له، ومن يُضْلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله.

﴿يا أيُّها الذينَ آمنُوا اتَّقوا الله حقَّ تقاتِهِ وَلاَ تَموتُنَّ إلاَّ وأنْتُم مُسلمونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿ياأيُّها النَّاس اتَّقُوا رَبَّكُمُ الذي خَلَقكُم مِن نَفْسٍ واحدةٍ وخَلَقَ مِنها زَوجها وَبَثَّ مِنْهُما رِجالاً كَثيراً وَنساءً واتَّقوا الله الذي تساءَلون به والأرحام إنَّ الله كان عَليكُم رقيباً﴾ [النساء: ١]

﴿يا أيُّها الذين آمنُوا اتَّقوا الله وقُولُوا قوْلاً سديداً يُصلح لكُم أعمالكم وَيغفر لَكم ذُنُوبكم وَمن يُطِع الله وَرَسولَهُ فَقدْ فازَ فوْزاً عظيماً﴾ [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

أما بعـــد:

فهذه هي الطبعة الثانية من «معالم الهدى إلى فهم الإسلام» منقحة ومزيدة أقدمها لمحبي الكتاب والسنة، وذلك بعد أن قاربت أعداد الطبعة الأولى على النفاذ من الأسواق.

لقد كان هذا الكتاب منذ أن تداوله الناس أول مرة سنة ١٩٨٥ مثيراً

للجـدل، فاتخذ الناس نحوه ونحو مؤلفه مواقف متباينة، فمن مؤيد ومن معارض، ومن معجب ومن ساخط. وإن المؤلف وإن لم يكن من محبي الثناء والإطراء، إلا أنه ليس من الراغبين في سخط الناس الساعين إليه. ومع ذلك فإنه سعيد بهذين الموقفين المتباينين وهما ولا شك مصدر إعتزاز له. ذلك أن الذين أسعدهم الكتاب هم أصحاب العقيدة الصحيحة من أهل العلم والدين. أما الذين ساءهم نشره فإنهم هم أولئك الذين يسؤوني رضاهم، لأن رضاهم عني علامة بيِّنه على جهلي ودليل ساطع على قلة ديني وإعراضي عن الحق.

لقـد زعم بعض النـاس أن الكتـاب يُجدد الخلاف بين المسلمين ويؤجج نار الفرقة، فكان من الخير أن لا يُنشر. وإنه وإن كان لا يعوزني الجواب عن زعمهم هذا إلا أنه يعوزهم الجواب عما يأتي:

١ـ أين هي هذه الـوحـدة التي يتكلمـون عنها؟ هل هي الوحدة الفقهية الظاهرة المتمثلة في الخلافات الفقهية بين المذاهب المختلفة، بل بين فقهـاء المـذهب الـواحـد في معـظم الأحيان؟ أم هي الوحدة العقائدية المتمثلة في إنقسام الأمة إلى أشاعرة ومعتزلة وجهمية وصوفية... الخ. أو لا يرى القارىء معي أن في عنوان أحد الكتب وهو (لزوم إتباع مذاهب الأئمة حسماً للفوضى الدينية) تناقضاً عجيباً!!.

٢ـ لا بد لأية وحـدة من أسـاس تقـوم عليه، فما الأساس الذي يقترحه هؤلاء؟. أنهم لا يقترحون شيئاً سوى إبقاء الخلافات على ما هي عليها. والمفـروض أن يكون هناك أساس، وأن يكون الأساس الرجوع للكتاب والسنة والتحاكم لنصوصهما عملاً بقوله تعالى **﴿فإن تنازعتم في شيءٍ فردوه إلى اللهِ والرسُـولِ إن كنتم تُؤمنون باللهِ واليومِ الآخرِ. ذلك خيرٌ وأحسـنُ تأويلاً﴾** [النسـاء: ٥٩].

٣ـ وهل من لوازم الوحدة بين المسلمين ما يُطالبون به من ترك الأمر بالمعروف وإنكار المنكر. وهل ثمة منكر أعظم من الصدّ عن سبيل الله وكتم الحق وإخفاء العلم والتعرض لمن يبينه للناس بالأذى.

٤ـ هل ثمة ما يُفرق الأمة ويُشتت شملها أكثر من الإعراض عن التحاكم إلى الكتاب والسنة عند الاختلاف. الأمر الذي يدور عليه موضوع هذا الكتاب من أوله إلى آخره.

وآخرون نسبوا الحدة والعنف للكتاب فوصفوا منهج المؤلف في وضع النقاط على الحروف وتمييز الخبيث من الطيب بالعنف وعدم الإعتدال. ولا ريب أن وصف الشيء بغير ما فيه لا يُغير من حقيقته فالكتاب قائم على سعي المؤلف لنصرة منهج الكتاب والسُنّه، وتمييز الإسلام عن غيره مما دخل من أفهام خاطئة وممارسات مغلوطة في حياة المسلمين، فكان لا بد من وضع النقاط على الحروف وحد الحدود وتبيينها للناس لعلّهم يتّقون، والله تعالى يقول ﴿وكذلك نُفَصِّلُ الآياتِ ولتستبينَ سبيلُ المجرمين﴾ [الأنعام: ٥٥]، ويقول سبحانه ﴿ليميزَ الله الخبيثَ من الطيب﴾ [الأنفال: ٣٧].

ولقد استاء فريق آخر مما ورد في الكتاب من ملاحظات حول التصوّف فكالوا الشتائم شفوية ومكتوبة للكتِاب، ووسموا مؤلفه بأقبح الصفات. الأمر الذي:

أولاً: ينقض ويتناقض مع ما يزعمونه من أدب التصوف واخلاقه.

ثانياً: ينقض ويتناقض مع ما يدّعونه من صدق اليقين في الطريق الصوفي، وإلا فلماذا كل هذا الغضب الذي لا يصدر إلاّ عن شاكٍ مرتاب في الطريق الذي يتبعه.

ثالثاً: يتنافى مع أسلوب الحوار ورد الحجة بالحجة.

غير أنه من الصواب القول إنهم كانوا محقين في أمرٍ واحدٍ فقط هو أن ما أوردته من نصوصٍ استشهدتُ بها، إنما جئتُ بها من مؤلفات تتسم بالعداء للتصوف مثل «تلبيس إبليس» لعبد الرحمن بن الجوزي. وقد استجبت لهذه الملاحظة فحذفت أقوال إبن الجوزي وغيره من غير المتصوفة واقتصرت على أقوال كبار علماء التصوف وشيوخه كابن عربي وابن الفارض وعبد الغني النابلسي والحلاج والشعراني وأبي حامد الغزالي.

أما بعض المذهبيين الفقهاء، فقد اعترضوا على الكتاب زاعمين أن المؤلف أعلنها حرباً على الفقه داعياً إلى إلغائه والتخلص من المؤلفات الفقهية. وإنني إذ أُذكِّر هؤلاء بضرورة تقوى الله والصدق في القول فإنني أرجو من القارىء أن يتبين بنفسه مدى صدق هذه الدعوى بالاطلاع على ما تضمنه الكتاب عند الكلام على العلاقة بين السنة والفقه، ليرى مدى الظلم الذي يرتكبه أصحاب الهوى تجاه العلم وأهله.

وأقول لكلا الفريقين: المتمذهبين الذين يُقدسون أقوال ائمتهم، والمتصوفة الذين يُقدسون أقوال مشايخهم، ولا يعُدُّون ذلك ذنباً ولا يحسبونه أثماً: إن ذنبي في نظركم أنني أُقدس نصوص الكتاب والسنة فقط، وإنني ماضٍ عليه غير تائب منه، وأرجو أن ألقى الله تعالى به، وأن أُبعث عليه فإنني إن شاء الله كما قال ابن حزم:

وإنني مُولَعٌ بالنص لَسْتُ إلى	سِواه أنحو ولا في نَصْره أهِنُ
من مات مِن قوله عِندي له كفنُ	دَعْهُم يَعَضُّوعلى صُمِّ الحَصَى كَمَداً

إن أي موقف عدائي لن يثنيني عما أنا عليه، بل سيزيدني ثباتاً واستمراراً فيما أنا فيه. وخير شاهد على ذلك التوسع الذي تشهده الطبعة الثانية من هذا الكتاب وبخاصة فيما يخص التصوف والبدعة.

إن ما وُصفت به من الأوصاف تنبىء عما في قلوب أصحابها ونفوسهم

من حقد على أولئك الذين ينادون بالرجوع إلى الكتاب والسنة، وهو ليس بشيء يذكر إذا ما قُورن بما وُصف به آخرون من أهل السنة. وإن لهذه الأوصاف دلالة معينة كما يقول الشيخ عبد القادر الجيلاني في أولئك الحاقدين على أهل الأثر (أي الحديث) إذ يقول رحمه الله في كتابه (الغنية ١/٧١): «واعلم أن لأهل البدع علامات يُعرفون بها فعلامة أهل البدعة الوقيعة في أهل الأثر وعلامة الزنادقة تسميتهم أهل الأثر بالحشوية ويريدون إبطال الآثار وعلامة القدرية تسميتهم أهل الأثر مجبرة وعلامة الجهمية تسميتهم أهل السنة مشبهة وعلامة الرافضة تسميتهم أهل الأثر ناصبية وكل ذلك عصبية وغياظ لأهل السنة ولا اسم لهم إلا اسم واحد وهو أصحاب الحديث ولا يلتصق بهم ما لقبهم به أهل البدع كما لم يلتصق بالنبي ﷺ تسمية كفار مكة ساحراً وشاعراً ومجنوناً ومفتوناً وكاهناً ولم يكن اسمه عند الله وعند ملائكته وعند إنسه وجِنه وسائر خلقه إلا رسولاً نبياً برياً من العاهات كلها ﴿انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً﴾».

وتضم هذه الطبعة المنقحة تقديماً أسعد به لفضيلة الأستاذ العالم محمد إبراهيم شقرة. وكان من المفروض أن تُفتتح بهذا التقديم الطبعة الأولى. إلا أن ظروفاً قد حالت دون ذلك، تماماً كما حالت السرعة في إخراج الكتاب بدون توثيق بعض النصوص وذكر مصادرها، الشيء الذي تم تداركه في هذه الطبعة عملاً بمبدأ الأمانة العلمية، الذي أحرص عليه.

ولا يسعني أخيراً إلا أن أتقدم بجزيل الشكر لكل من الأخوة الأفاضل الدكتور صالح بن حميد الاستاذ بكلية الشريعة بجامعة ام القرىٰ بمكة، والاستاذ محمد إبراهيم شقرة مدير صندوق الزكاة بوزارة الأوقاف في الأردن والاستاذ محمد نسيب الرفاعي، وذلك لمساهمتهم القيمة في مراجعة الكتاب وإبداء الملاحظات المفيدة النافعة فجزاهم الله خيراً.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة فضيلة الشيخ محمد إبراهيم شقرة

الحمد لله الذي أنزل على عبده ونبيِّه محمد ﷺ، كتاباً أُحْكِمتْ آياتُه، ليكون به للعالمين بشيراً ونديراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، فتقوم الحجة عليهم، ثم لا يجدون هناك حيلةً ولا يهتدون سبيلاً.

أما بعــد:

فإنه ليس كلُّ من أمسك بقلمٍ فكتب يُقال له: كاتب، وليس كلُّ من بَصُرَ بعلم أو أخذ بطرفٍ منهُ يقالُ له: عالم، وليس كلُّ من رَقِيَ في درجاتِ منبرٍ فألقى من فوقه كلاماً يقال له: خطيب، فالعلم والخطابة والكتابة، كل أولئك فنٌّ لا يتم على وجهه، إلا إذا امتزج بنفس صاحبه، فصار مَلكةً راشدةً راسخةً، يكاد يكون لها عينان تُبصران بهما، فتهدي صاحبها إلى الصواب، فيراه صواباً كما هو، وإلى الخطأ، فيراه خَطأً كما هو، فلا يَلبسُ عليه فيهما شيءٌ من الأخلاط الذهنية الفاسدة، التي أركَضَ كثيرون فيها عقولهم، وأوجفوا على كورِها بقلوبهم، فما أصابوا إلا ما يُصيب باسط كفيه إلى الماء ليبلغه، وما هو ببالغه.

والعلمـاءُ والكتّـاب والخُطباءُ في كل عصر، هم رُوَّادُ الأُمة في كل ميادين الحياة، ولعل عُظمَ ما حلَّ بالأمة من بلاء حين خَلَت ساحتُها من كُتَّاب يحسنون الإمساك بالقلم، وحين صوَّحت دروبها من علماءَ يُجيدون قراءَة النصوص وتأويلَها، وحين أجدبت أرضُها من خطباء تمكنوا من ناصية القول بالعلم الذي سَعدَت به الأُمة زماناً، إلا ما جادت به عليها من هؤلاء

الجامعات والمعاهد، يخرجون منها وقد قبضوا أيديهم على أوراق مُوَشَّاة بالألوان الزاهية، تؤهلهم أن يتبوأوا مراكز القيادة في الفكر والثقافة والسياسة، وقد عَزَلَتْهُم عزلةً كاملةً عن طرائق العلم وأسبابه.

ولو أنك ذهبت تسبر غور هؤلاء لما وجدت إلا فئةً قليلة منهم يُطْمَأَنُ إلى علمها وثقافتها، والفضل في ذلك يعود إلى أن هذه الفئة سلكت طريقاً آخر، التمست فيه العلم والثقافة، فأصاب كل واحدٍ منها قدر طاقته، ومؤملاً أن يكون له يوماً ما حظٌ أَوْفى بسعيه الدائب في هذا الطريق.

أما السوادُ الأعظم من أولئك، فقد رُزِئت بهم الثقافةُ، وظُلم بهم العلمُ، وكفتهم شهاداتهم مؤونة البحث والنظر!!! فانتقصت الأمة بهم من أطرافها، وأُخذت بداءٍ رَوَّعَ سُكَّانَ القبور، وصار همُّهم الأكبر الاستزادة من متاع الحياة الدنيا، ولا أدري إنْ كانوا قد قرأوا شيئاً من سير العُلماءِ السابقين، أو لم يقرأوا؟ ومِن شَرِّ ما مُنيت به الأُمة على أيدي هؤلاء تلك العداوةُ المُستحكِمة المستترةُ، التي حطَّت بأوزارها الثِّقال، وسخائمها السوداء في صدورهم، تجاه المنهج العلمي الذي وضعت أصوله المدرسة المحمديةُ في قرونها الثلاثة الأولى، التي امتدحها إمامُها ورائدها صلوات الله وسلامه عليه: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم».

وحتى يُخفوا عَوارهم أحاطوا أنفسهم بهالاتٍ من زُخرف القول، نسجوا بها أفكاراً محدودة، تشبه في كثير من الأحيان أفكار الأطفال السُّذَّج، يحاولون من بعد فرضها على الناس، بالأصوات المرتفعة، والتطاوُل الصَّاغر، ونَبْش القبور، ونَثر عظام الموتى، والنَّيل بالتصريح وبالتلميح من جبال العلم الشامخة، والإزراء بالعقول الكبيرة التي شادت للأُمة حصونها العلمية الرفيعة، والاستخفاف بالجهود العظيمة التي أفسدت على أعداءِ الأُمة مكرَهم، ثم بالإعراض بنعومة أو بخشونة عن

سماع الحقّ الذي لا يُعرض عنه إلا القاسطون، من ذوي الأهواء الفاسِدة المُفسدة.

ولستُ أدري ما الذي يُضير هؤلاء حتى بعد أن أمسكوا على تلك الأوراق الموشاة، وعرفوا أنها لا ترفع ساقطاً، ولا تُسقط عالياً، من أن ينفقوا جزءاً مما بقي من أعمارهم في الانتماء الصادق إلى المدرسة المحمدية، ليذوقوا فيها لذّة العلم، ويستقوا من بئرها الثرّ، فيُنجوا أنفسهم من وعيده ﷺ: «من تعلم علماً مما يُبتغى به وجهُ الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عَرَضاً من الدنيا لم يجد عرْفَ الجنة يوم القيامة». ومن وعيده في القول الآخر: «من تعلم العلم ليباهيَ به العلماء، أو يُماري به السفهاء، أو يصرفَ به وجوهَ الناس إليه أدخله الله جهنم».

وقد علمَ هؤلاءِ أن نبينا الأكرم صلوات الله وسلامه عليه قد ترك الأمة في كل بقاعها على بيضاء نقيةٍ، ليلها كنهارها، وأقامها في كل عصورها على الجادة السوية، حَزنها كسهلها. وقال لها: «تركت فيكم شيئين ما إن تمسكتم بهما لن تَضلوا بعدي أبداً: كتابَ الله وسنتي» فمن أخذ نفسه بهما فقد نَجِي وأنجى، ومن مال عنهما فقد ضلَّ وأضلَّ، ولكن، بدلاً من أن يفعلوا ذلك ظاهروا أهلَ الباطل، ونصروا أذناب الضلالة، وأجلبوا على أهل الهدى والحق بخيلهم ورَجِلِهم، وأوضعوا في كلِّ مكان يبغونهم الفتنة، ويؤلبون عليهم أهل السوء من خاصة وعامة، وأطلقوا غَربَ عقولهم وألسنتهم في الإفتراء والبَهْت، ويصدون عن الهُدى، ويهدون إلى الضلال، بما أترعت صدورُهم من كراهية للحقِّ وأهله، ونسوا أنهم لن ينالوا شيئاً، كما لم يَنَلْ مَن كان مِن قبل مثلهم شيئاً، كذلك فعل الذين من قبلهم مثلَ قولهم تشابهت قلوبُهم، وقد ظهرت لهم البينات، وانتصبت لهم الحُججُ، فأعرضوا عنها فهم لا يفقهون، والحقُّ سبحانه وتعالىٰ ناصر أهل الحق، ومُبطِل مكر عدوِّه.

وصار ابنُ تيمية، وابن حزم، والشّوكاني، واضرابُهم من أعلام هذه الأمة صُوراً مشوهةً ممسوخةً في عقول الناشئة، حتى قَيض الله لهم نفراً يحمل الأمانة التي حُمّلوا، ويرعونها حقَّ الرعاية، ويمشون بها في الناس لا يخافون لومة اللائمين، ولا يصدُّهم كثرة الشانئين، ولا يقعدهم قلّة السالكين، ولا توهنهُم شماتةُ الشامتين، ولا يؤذيهم بَذاءُ السالقين.

ورأينا نَفَراً تاب الله عليهم ممن طلبوا العلم للشهادة فأبى الله إلاّ أن يصيره فيهم لغيرها، رأوا في إخوان لهم لم ينالوا شهاداتٍ قد فاقوا أقرانهم، ورزقهم الله علماً عز جُلّاس الأرائك نيله، فالتقوا جميعاً على أمرٍ من العلم قد قُدر، ومضَوا معاً في طريق واضحةٍ لا عِوَجَ فيها ولا أمْت، يمدّون المكتبة الإسلامية الموقورةَ فوق ظهر القرون، بأنفع الكتب والرسائل والمقالات، يُحَبِّرونها بمداد الوحي السماوي، ويوشونها بِرَشح عقولهم المستنيرة بهدي الوحي، وهم أرضى ما يكونون نفساً، وأوفر ما يكونون ثقةً.

من هؤلاء النفر الأخُ الدكتور مروان القَيسي، الذي أسعَدُ بتقديم كتابه هذا «معالم الهُدى إلى فهم الإسلام».

عرفتُ الأخ مروان منذ سنين، يَطلبُ العلمَ على نحو ما يُطلَبُ في الجامعات اليوم، التزاماً بمذهب مُعيَّن لا يتجاوز حدوده إلاّ قليلاً، مع الأخذ بطرفٍ من كل علم من العلوم التي تُدَرَّس فيها، وبعد أن تخرج في الجامعة وعمل سنين، شاء الله له أن يرتحل إلى بريطانيا لنيل شهادة الدكتوراة من إحدى جامعاتها.

ولعلَّ الله جعل من رحلته هذه إلى تلك الجامعة سبباً في تحوله عما كان عليه، فلقد رأيته بعد عودته من هناك قد أجمع أمره على أن يكون واحداً من تلاميذ مدرسة القرون الأولى، وما فتىءَ منذ ذلك الوقت يُجيلُ عقله في أرجاء مؤلفات شوامخ العلم، يتداركُ ما فاته، فألَمَّ والحمدُ لله بالكثير الكثير، فكان كتابُه هذا ثمرةً طيبةً من ثمار هذا التحول.

ونال الأخ مروان ما نالَ مَنْ قَبْلَه من تلاميذ هذه المدرسة من أذى، فما زاده ذلك إلا إيماناً بها، والتزاماً بمنهجها، وصدقاً في الدعوة وصبراً على لاوائها وشدته.

والمادةُ التي أودَعَها كتابه هذا ليست جديدةً ولا غريبة ولكنها جديدةٌ غريبة، فهي مبثوثةٌ في بطون الكُتُب التي خلّفها لنا العلماءُ الأبرار، وأبقوها في أعقـابهم آثاراً خالدة. تدلُّ على صدق انتمائهم وولائهم في آنٍ معاً للمدرسة المحمدية، لكنها جديدةٌ على من يرى الخَطَر بظنه السوء، يتهدد عقله ودينه عياذاً بالله من قراءة شيء من تلكُمُ الآثار، فيحبس نفسه على كُتب ورسـائل لا تزيد العالِمَ علماً، ولا تُنقص الجاهل جهلاً، ويحمل عداوة تلاميذ تلك المدرسة الأولى، ويرميهم بكل مُنكَر من القول وزورٍ، وهو لم يقرأ كتاباً واحداً من كتبها، بل ولا سطراً واحداً مما فيها، أفليس هذا هو الظلم عينه.

يأتي كتابُ الأخِ مروان ليضعَ تصوراً شاملاً للإسلام ـ أصوله وفروعه ـ أمام عقول الناشئة والخاصة والعامة، كاشفاً عن المقاصد الخفية، التي يرمي إليهـا خصوم الإسلام من الداخل والخارج، كلُّ ذلك بعبارة سهلة واضحة موجزة، رادّاً كلَّ مسألةٍ إلى دليلها وإن لم يذكره مقترناً بها.

فجزى الله الأخَ الدكتور مروانَ ووفقه، وثبتنا وإياه على الحقِّ الذي نسألُ الله أن نلقاه في عَرَصات الآخرة عليه.

وصلى الله وسلم وبارك على نبيِّنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان.

وكتـب
محمد إبراهيم شقرة
عمـان

تقديـــم

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يَهْدِه الله فلا مُضلَّ له، ومن يُضلل فلا هاديَ لَه، وأشهد أن لا إلهٰ إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعــــد:

فإن الغاية الأساس من هذا الكتاب هي الفصل بين الإسلام وبين ما هو دخيل عليه متمثلاً في كثير من ممارسات المسلمين عبر التاريخ، بحيث تتضح صورة الإسلام دون زيف ودون إضافات دخيلة، ودون أية وصاية بشرية على دين الله.

إن الأسبـاب الحقيقية للإنحـطاط الـذي تمر به الأمة اليوم أسباب داخلية وليست خارجية. وفي مقدمة هذه الأسباب تشوه الصورة الأصيلة للإسلام لدي كثير من المسلمين في هذا الزمان.

وإن اختلاط الفهم الإسلامي الصحيح بغيره أمر لا يستطيع أن ينكره أحد. فهذا الإمام الكبيز ولي الله الدهلوي من علماء القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي يقول ما نصه: «ومما دخل في ديننا علوم بني إسـرائيل وتـذكير خطبـاء الجاهلية وحكمة اليونانيين ودعوة البابليين وتاريخ الفارسيين والنجوم والرمل والكلام»[1] ولقد أخبر رسول الله ﷺ عما

(١) ولي الله الدهلوي، حجة الله البالغة، جـ ١ ص ٢٥٦.

سيقع من تحريف في الفهم بقوله: «افترقت اليهود على احدى وسبعين فرقة، فواحدة في الجنة وسبعون في النار. وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، فإحدى وسبعون في النار وواحدة في الجنة، والذي نفس محمد بيده، لتفترقن أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، فواحدة في الجنة واثنتان وسبعون في النار»[1].

كما أخبر عما سيقع من تجديد لفهم المسلمين للإسلام وإعادته لمصادره الأصلية: الكتاب والسنة بقوله ﷺ: «إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد دينها»[2]وقوله عليه السلام «إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء، قيل من هم يا رسول الله؟ قال: الذين يَصْلُحون إذا فسد الناس»[3].

إن الخطوة الأساس في عودة المسلمين إلى دينهم هي فهم الإسلام فهماً صحيحاً موافقاً للكتاب والسنة. ودون ذلك تظل الجهود التي تُبذل في سبيل تلك الغاية مبددة وضائعة.

وإن هذا الكتاب يضع الخطوط العريضة للوصول إلى فهم الكتاب والسنة فهماً صحيحاً. وقد استعرضتُ من خلال تلك الخطوط قصة انحراف فئات من المسلمين سواءً فيما يخص التصور الصحيح للعقيدة أو فيما يتصل بفهم القرآن الكريم والسنة النبوية أو التعامل مع كتب الفقه إضافة إلى الانحراف في ممارسة العبادات.

كما استعرضت مؤامرة القرن العشرين ضد الإسلام متمثلة في الجهود الهادفة إلى تعطيل حركة الإسلام من الداخل بتمييع مفاهيمه المتعلقة

(١) حديث صحيح لابن ماجه عن عوف بن مالك، وانظر صحيح الجامع الصغير ١٠٩٣.

(٢) حديث صحيح اخرجه ابو داود (٤٢٩١) والحاكم (٤/٥٢٢) عن أبي هريرة.

(٣) حديث صحيح، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة، جـ٣، ص ٢٦٧.

بالالتزام بأحكامه بدعوى المطالبة بالأفكار المعتدلة والمعقولة (وهي كلمة حق أريد بها باطل، كما لا يخفى على العاقل!)، والبعد عن التزمت والتشنج والتطرف والجمود والحرفية والتعصب والإلتزام بروح الإسلام لا بنصوصه مما لا يخفى على المراقب الفاحص مقاصد أصحابها والداعين إليها.

إن لهذا الكتاب جانبين. أما الجانب الأول فإنه يتعرض فقط للأخطاء والإنحرافات في فهم العقيدة وممارسة العبادة، وعثرات الفقهاء والمفسرين مع أمثلة من الإنحراف والتحريف المعاصرين. وهذا الجانب هو القسم الأول من الكتاب، وقد جاء تحت عنوان «معالم الانحراف في فهم الإسلام» وهذا الجانب هو جانب النقد دون طرح البديل.

وأما القسم الثاني من الكتاب فإنه يعرض البديل ممثلاً في الإجراءات والخطوات الكفيلة بإعادة المسلمين إلى الفهم الصحيح للإسلام وفق كتاب الله وسنة رسوله ﷺ: الفهم الصحيح للعقيدة والممارسة الصحيحة للعبادة مع إعادة التفسير والفقه إلى مسارهما الصحيح القويم. وقد استعمل لفظ التجديد مراراً وتكراراً في هذا القسم الذي أعطيته عنواناً: «معالم الهدى إلى فهم الإسلام» وباسمه سُمي الكتاب لأنه الغرض الأساس والأول منه.

والله تعالى أسأل أن يجعله خالصاً لوجهه وأن يتقبله بقبول حسن وأن يجعله لي صدقة جارية وأن ينفع به المسلمين إنه سميع قريب مجيب الدعاء.

والحمد لله رب العالمين

المؤلف

القسم الأول

معالم الانحراف في فهم الإسلام

١ـ أسباب الانحراف في فهم الإسلام
٢ـ الانحراف في فهم العقيدة
٣ـ الاشاعرة في ميزان العقيدة
٤ـ انصاف التصوف
٥ـ الانحراف في ممارسة العبادة
٦ـ التفسير وعثرات المفسرين
٧ـ الفقه وعثرات الفقهاء
٨ـ دفاعاً عن السنة
٩ـ أمثلة من الانحراف والتحريف المعاصرين

أسباب الانحراف في فهم الإسلام

يمكن القول: إن أسباب الانحراف في فهم الإسلام تأتي من فئتين من النـاس هم العلماء والعامة. ولا شك أن الانحراف الذي يتسبب به العلمـاء أشـد خطراً من ذلـك الذي يحدثه العامة، لأن انحراف العامة يُصَحَّـح، أمـا انحراف العلماء، فإنه يتبع على أنه هدى ودين. ومن المعلوم أن معظم تحريف اليهودية والنصرانية كان سببه الرهبان والأحبار. وفيما يلي عرض لأهم الأسباب التي نشأ عنها الانحراف الخاص بالإسلام، والذي سيتبين لنـا من خلال البحث أنـه ليس تحـريفـاً بالمعنى الصحيح، ولا بالطريقة التي وقعت في الأديان الأخرى.

١ـ انحراف العلماء، وهذا الانحراف يأخذ اتجاهين:

أولاً: عدم كفاءة أهل العلم الشرعي، وهذه ناحية علمية بحته لها مظاهر منها:

أـ ضعف التحصيل العلمي ممـا أدى إلى تولي أنـاس غير مؤهلين لمناصب التعليم والخطابة والوعظ، قال ﷺ «إن من أشراط السـاعة أن يُرفَع العلم ويظهـر الجهـل..»[1]، وقال عليه السلام: «لا تقوم الساعة حتى يُقْبَض العلم»[2].

ب ـ عدم اعتمـاد المصـادر الأصلية، فلا يبني كثير من المنتسبين للعلم علومهم على الأصلين وهما الكتاب والسنة، وبعضهم يعتمد القرآن ويُهمل السنة. وآخرون يعتمدون الفقه فحسب، وآخرون يأخذون العلم

---

(١) من حديث صحيح أخرجه البخاري ومسلم عن أنس بن مالك.

(٢) صحيح أخرجه البخاري وأحمد وابن ماجه عن أبي هريرة.

من غير مصادره ابتداءً ، فيأخذونه من كتب التاريخ والأدب فيروون حديثاً ورد في العقد الفريد أو كتاب الأغاني مثلاً .

ثانياً: الانحراف الناتج عن البواعث الفاسدة التي تحمل أصحابها على التأويلات الباطلة للقيم الإسلامية مما يتسبب في تشوه التصور الإسلامي الصحيح كما ورد في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ . وفي مقدمة هذه البواعث :

أ ـ طلب رضا السلطة السياسية لتحصيل مركز نفوذ أو رفع مستوى مادي .

ب ـ الانتصار لرأي حزب ديني أو جماعة ، فيعمد بعض المتسببين للعلم إلى التأويلات الفاسدة للنصوص الدينية لدعم رأي حزبي أو مذهبي معين .

ولقد أصاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا قال : «يهدم الإسلام زلة العالم وجدال المنافق بالكتاب وحكم الأئمة المضلين»[1] .

٢ـ دخول أناس جُدد في الإسلام من أمم شتى وأديان مختلفة . وحيث إن الأديان السابقة تظل تمارس تأثيراً أو نفوذاً ما ، فإن ذلك قد يمتد تأثيره إلى الإسلام بعد اعتناقه ، بأن ينقل الداخلون إليه من تلك الأديان عناصر معينة تحت ضغط التأثير النفسي لا عن قصد سيء ، ولذا يجب التنبه لهؤلاء الداخلين الجدد في الإسلام وصهرهم في بوتقة الدين . ولا شك أن القصد السيء ، قد يكون من بعضهم فيحاول أن يفسد الدين الذي تظاهر باعتناقه (الإسلام) . غير أن هناك أسباباً أخرى عند بعضهم عن غير قصد ، منها : الفهم الناقص للإسلام أو التأثير المستمر للدين السابق مما يدفع بالواحد منهم إلى محاولة التوفيق بين دينه الأول والإسلام بطريقة أو بأخرى ، أو أنه

(١) صحيح رواه الدارمي في سننه (١/ ٧١) .

يميل لشيء في دينه الذي تركه فيحاول أن يجد له دليلاً في الإسلام ولو من وجه ضعيف!!![1].

٣ـ الملاءمة بين الفكر الدخيل والإسلام:

فقد تأثر بعض المسلمين بديانات وثقافات غريبة كالبوذية والبرهمية والزرادشتية واليهودية والنصرانية والفلسفة اليونانية، مما تسبب في تسرب عناصر أجنبية دخيلة إلى تصورات وممارسات بعض المسلمين فنشأ عن ذلك.

أـ «المذاهب الفلسفية التي منها:

١ـ الاتجاه الفلسفي الطبيعي الذي يمثله أبو بكر الرازي.

٢ـ الاتجاه الفلسفي لما بعد الطبيعة الذي يمثله ابن سينا في المشرق، وابن رشد في المغرب.

٣ـ الاتجاه الفلسفي الاشراقي الذي يمثله السُّهْرَوَرْدي.

ب ـ كما ساعد الفكر الأجنبي الدخيل على نشأة:

١ـ التصوف الزهدي الذي يمثله الحارث المحاسبي.

٢ـ التصوف الفلسفي الذي يمثله الغزالي.

٣ـ التصوف الهندي المسيحي الأفلاطوني الحديث الذي يمثله ابن عربي وابن سبعين والحلاج»[2].

لقد ركزت المعتزلة على الفلسفة اليونانية، يقول الاستاذ أنور الجندي بهذا الخصوص «فإنها كانت المحاولة الكبرى لاخراج الإسلام عن جوهره واذابته ودفعه إلى نفوذ الفلسفة اليونانية لتغتاله بعد أن اغتالت اليهودية

(١) انظر حجة الله البالغة، (١/٢٥١)

(٢) محمد البهي، محاضرات في الفكر الإسلامي، ص ٥.

والمسيحية من قبل»[1] ويقول المؤلف نفسه في موضع آخر من كتابه: «ولربما اشاد المستشرقون بالمعتزلة من أجل اتصال مذهبهم بالفلسفة اليونانية وكان لهم مطمع أن تأكل الفلسفة اليونانية الإسلام»[2].

على أن من أكثر الفرق الإسلامية تأثراً بالثقافات والأديان الأخرى هم المتصوفة. فقد قبل التصوف الإسلامي عقائد وأفكاراً من النصرانية والهندوسية وبعض الديانات الفارسية القديمة.

إن كثيراً من مواقف التصوف كما يشير إلى ذلك الأستاذ أنور الجندي: «قامت على أسس الفلسفة الوافدة من المدارس الأفلاطونية المحدثة ومن المجوسية ومن مفاهيم الهنود القدماء القائمة على وحدة الوجود والحلول والاتحاد وغيرها من صور الغنوصية كالإشراقية وغيرها»[3]. لقد ركزت الفلسفة الشرقية الغنوصية على الاعتماد على الوجدان والبصيرة وحدها. وهو ما يدعو إليه المتصوفة من إعلاء شأن الوجدان باعتباره سبيل المعرفة الوحيد متجاهلين بذلك الكتاب والسنة وهو مالا ينكره بل يعترف به المتصوفة أنفسهم، فهذا كبير علمائهم في العصر الحديث الدكتور عبد الحليم محمود يقول:

«وإذا عجز المنهج العلمي المادي عن دراسة التصوف في حقيقته وجوهره وعجز المنهج العقلي كذلك، فإن الصوفية جميعاً وفلاسفة الاشراق منذ فيثاغورس وافلاطون إلى يومنا هذا يعلنون منهجاً محدداً يقرونه جميعاً ويثقون فيه ثقة تامة ذلك هو المنهج القلبي أو المنهج الروحي

---

(١) انور الجندي، شبهات في الفكر الإسلامي، ص ٤٠.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٥.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٩. والغنوصية هي نزعة فكرية ترمي إلى مزج الدين بالفلسفة، وتطلق خاصة على جماعة من المفكرين في القرنين الأول والثاني للميلاد.

أو منهج البصيرة وهو منهج معروف أقرته الأديان جميعها واصطفته مذاهب الحكمة القديم منها والحديث. . .»[1].

٤ـ دعوى الدليل العقلي وتقديس العقل.

وقد سرت هذه النزعة بين كثير من المسلمين، فظنوا خطأً أنها من الإسلام. ولا ريب أن الإسلام اعطى العقل مكانة مميزة، لكن ليس إلى الحد الذي وصل إليه بعضهم متمثلاً فيما يأتي:

أ ـ اخضاع الدين للعقل وجعل الثاني مقياساً للأول وحكماً عليه، فما يقبله العقل مقبول وما ينكره العقل مرفوض. بحيث يتم تجريد الإسلام من دليله النقلي وتفريغه في مضمون عقلي فلسفي. فمن هؤلاء الأشاعرة الذين قدموا العقل وأوّلوا النصوص تبعاً له. والمعتزلة الذين لم يكتفوا بذلك أيضاً بل إنهم بالغوا في التركيز على أهمية العقل حتى اتسم منهجهم بالمبالغة في التأويل، فنشأت مفاهيم غريبة عن الحقائق القرآنية بعيدة عن أصول الإسلام.

ب ـ جعل العقل أساساً للتشريع وبناء أحكام شرعية جديدة على أساس ما يُظن ـ دون دليل ـ أنه مقصود الشارع. ولا شك أن الشارع بيَّن الحكمة أحياناً من بعض الأحكام، ولا شك أيضاً أنه لا يمكن أن يخلو أمره ونهيه عن حكمة، لكننا قد ندرك الحكمة وقد لا ندركها، فالعقل غير قادر على الإحاطة المطلقة بأسرار الحقائق التي أوردها الدين.

٥ـ التعصب المذهبي: ويتمثل ذلك في التقليد الأعمى من عامة المسلمين لمجتهدي الأمة (والذين هم بلا ريب غير معصومين)، وهو تقليدٌ يرفض معه صاحبه أي رأي معارض بل أي حديث يعارض مذهب إمامه ولو كان صحيحاً، وهذا التقليد مرفوض جملة وتفصيلاً. قال تعالى:

---

(١) عبد الحليم محمود، المرسي أبو العباس، ص ١٠.

﴿اتَّخَذُوا أَحْبارَهم ورُهبَانهُم أرباباً من دُون الله﴾ [التوبة: ٣١] وعن عدي بن حاتم: قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ هذه الآية، فقلت له: إنا لسنا نعبدهم، قال: أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟ فقلت: بلى، قال: فتلك عبادتهم[1].

غير أن الإسلام لا يرفض التقليد بعامته فهناك تقليد لا بأس به وهو ما يعتقد صاحبه أن المجتهد الذي يقلده غير معصوم، وأنه يصيب ويخطىء، وإذا ظهر له خطأ مجتهده عدل عنه إلى الرأي المخالف الأقوى المستند إلى الدليل الشرعي.

إن التعصب المذهبي مرفوض في الإسلام جملة وتفصيلاً مهما كانت حجج أصحابه ولا شك أن تعصب بعض المسلمين لمذاهبهم شوّه صورة الإسلام الناصعة في أذهان كثير من المسلمين وغير المسلمين. ويكفي أن نُشير بهذا الصدد إلى أن الأمر وصل أحياناً في بعض البلاد الإسلامية ـ قديماً ـ أن لا يُزوج الشافعيُ حنفياً أو العكس، والأئمة برآء من هذا.

٦ـ التهاون في واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتبليغ الدعوة ويكون ذلك بأن لا تهتم الأمة في حقبة زمنية بأمر الدين والأخذ بتشريعاته، ويتهاون الناس في واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فتنشأ بالتدرج عادات وقيم لا تمت للإسلام بصلة. ويزداد الأمر خطورة مع مرور السنين حينما تزداد نسبة هذه العادات غير الإسلامية، حتى يصبح المجتمع في نهاية الأمر ليس له من الإسلام إلا اسمه.

وهذا التهاون سببه الأمة كلها، لكنه إهمال له خطورته وضرره البالغ إذا كان من العلماء، ولذا تعظم خطورة مهمتهم في هذه الظروف، قال تعال: ﴿فلولا كان من القرون من قَبلكُم أولو بقيةٍ ينهونَ عن الفسادِ في

---

(١) حديث حسن أخرجه الترمذي والبيهقي.

الأرضِ إلا قليلاً ممن أنجينا منهم﴾ [هود: ١١٦].

٧ـ الادعاء بأن ما يقتضيه الدين هو أمر آخر غير ما يقتضيه العقل بطريقة توهم أن الدين ليس فيه أدلة وبراهين عقلية، وأنه بحاجة لاثبات صدقه إلى أدلة عقلية خارجة عنه. ويتمثل ذلك في تقسيم الأدلة إلى عقلية ونقلية. وهذا الفصل إن كان بطريقة توحي بالتعارض والتضاد بين العقل والنقل فإنه عندئذ ليس سوى بدعة دخلت على المسلمين من اللاهوت النصراني، فالأمر ليس كذلك في الإسلام، إذ إن القرآن هو المدلول عليه وهو الدليل، الشاهد والمشهود له، فالقرآن مليء بالأدلة العقلية التي سماها القرآن امثالاً، قال تعالى: ﴿وتِلكَ الأمثالُ نضربها للناسِ لَعَلهُم يتفَكَّرون﴾ [الحشر: ٢١].

اننا ولا شك لا نقصد ان نرفض دور العقل، وما نرفضه هو الزعم بأن ثمة تناقضاً بين العقل الصحيح والنقل الصريح، فالمقاييس الشرعية هي أيضاً عقلية. ولهذا كان علماء السلف لا يرون أي تناقضاً بين الأدلة الشرعية والعقلية، وبالعكس فهم يرون أن كل من خالف صحيح المنقول فقد خالف أيضاً صريح المعقول[1].

إن الدليل الشرعي الصحيح لا يناقض البرهان العقلي الصريح، ودلالة القرآن عقلية تماماً كما أنها شرعية.

إن الكون خلق الله والقرآن كلام الله فكيف يمكن أن يكون تناقض بين خلق الله وبين كلامه، والمصدر واحد. ولذا فإن ما يُثار بين الفينة والأخرى من ضرورة تقديم الدين للناس على أساس عقلي بحت وإلا فإن الأجيال المعاصرة سترفضه، إن كان هذا التصور ينطبق على الأديان الأخرى فإنه

---

(١) ومن المناسب هنا أن نُذَكِر بمؤلفين لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وهما «موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول» و «درء تعارض العقل والنقل».

لا صلة له بالإسلام ولذا فإن الأمر ليس كما يقول محمد أبو حمدان: «إن الإعتقاد التصديقي المتأتي عن الإيمان الديني، لم يعد في الزمان الحاضر قادراً على كبت تساؤلات الفكر الإنساني بسبب ما استجد من نظريات فكرية حديثة أهمها تلك التي تنسف المعتقد الديني من أساسه وتدعو لأخذ الحقائق من العقل ومما يمليه واقع الإنسان الحياتي والتاريخي»[1] ويستمر المؤلف في موضع آخر عارضاً حلولاً لهذه المشكلة التي لا وجود لها أصلاً فيما يخص الإسلام ثم يخلص إلى ما يلي: «وخلاصة القول: إن أحوج ما نحتاج إليه هو شرح الدين بطريقة فكرية تتلائم وثقافة هذا العصر لتقربه من عقول شبابنا المتعلم وتطرحه كعقيدة»[2].

٨ـ ضعف الوعي الديني عند عامة الناس. ويعود ذلك إلى انحسار التعليم الديني في العالم الإسلامي، وعدم إقبال الناس عليه نتيجة للإقبال على العلوم التي تَدُرُّ أموالاً ومادة، الشيء الذي نتج عنه جهل واسع النطاق بين أبناء الأمة بالإسلام، والجهل أصلُ كل داءٍ وسبب كل انحراف وخطأ، فتمسك الناس بعادات اجتماعية لا أصل لها في الدين ظنوها من الإسلام، وعبدوا الله بشعائر لا أصل لها في الشريعة.

٩ـ التشدد فيما يخص العبادة والحلال والحرام:

وينبغي أن لا يُفْهَم التقيد بالأوامر واجتناب النواهي والالتزام بآداب الإسلام على أنه تشدد. أما المراد بالتشدد المذموم والمرفوض فنضرب عليه الأمثلة التالية:

أ ـ إحداث عبادات وقربات جديدة لم يشرعها الله ولا رسوله ﷺ.

ب ـ التزام السنن والآداب والتعامل معها على أنها واجبات وعدُّ

(١) محمد أبو حمدان، الفلاسفة والفكر الإسلامي، ص ٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٦.

المكروه حراماً، والخلط بين هذا وذاك.

جـ - التعامل مع الطيبات والمباحات التي أباحها الله على أنها من رجس الدنيا التي ينبغي الترفع عنها، قال تعالى: ﴿قُل مَنْ حَرَّم زينَةَ الله التي أخْرجَ لعبادِه والطَّيبات من الرِّزق﴾ [الأعراف: ٣٢].

ويزداد الأمر سوءاً وخطورة حينما يتولى القيادات الفكرية والدينية أشخاص يتصفون بالصفات آنفة الذكر، فيعتقد عامة الناس أن ما يصدر عن هؤلاء الأشخاص هو مقصود الشرع بل هو الشرع. وهذا السبب هو الذي حصل به تحريف اليهودية والنصرانية.

د - الخلط بين ما فعله الرسول عادة وما فعله عبادة، وإيجاب ما فعله عادةً على أنه عبادة كحبه ﷺ للعسل والحلواء[1] وأنه لم يأكل لحم الضب[2]، فهذه عادات له عليه السلام لا يجب علينا أن نقلده فيها.

١٠- التطرف: فقد تطرف الخوارج فكفروا علياً، وتطرف غلاة الشيعة فألّهوه. وتطرف كثيرٌ من الصوفية فقالوا بحلول الله في خلقه واتحاده بهم وهو ما يعرف بوحدة الوجود.

وهذا بعضٌ من الغلو في الدين الذي نهى الله عنه، قال تعالى: ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكُم ولا تَقُولوا على الله إلا الحقَّ﴾ [النساء: ١٧١] وقال جل شأنه: ﴿قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غيرَ الحق﴾ [المائدة: ٧٧].

١١- الاجتهاد والقياس في المسائل التي لا يجوز فيها الاجتهاد ويستحيل

---

(١) رواه البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ «كان يحب الحلواء والعسل».

(٢) للبخاري ومسلم وأحمد والترمذي وابن ماجة عن ابن عمر قوله ﷺ «الضب لست آكله ولا أحرمه».

فيها القياس مثل مسائل العقيدة والعبادة.

١٢ـ الإعراض عن الكتاب والسنة.

والحقيقة أن هذا السبب شامل لكل الأسباب آنفة الذكر. فالإعراض عن الكتاب والسنة هو أصل الأدواء كلها دونما استثناء. والمعرضون عن الكتاب والسنة قسمان:

أ ـ قسم لم يعترف صراحة بإعراضه عن الكتاب والسنة وهم أهل التأويل غير المشروع، وأصحاب التكييف والتعطيل والتمثيل[١].

والتأويل غير المشروع هو صرف الكلام عن حقيقته إلى مجازه دون ضرورة وهذا ما يسميه بعض الناس التأويل غير المشروط، وهو ما يُظن أنه انتقل إلينا من اليهود وقد اشتهر به بينهم عزرا أحد أشهر مؤلفي التلمود.

ب ـ قسم أعرض واعترف بإعراضه صراحة عن الكتاب والسنة كالكثير من المتصوفة، يقول أبو يزيد البسطامي «أخذتم علمكم ميتاً عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت، يقول أمثالنا: حدثني قلبي عن ربي، وأنتم تقولون: حدثني فلان، وأين هو؟ قالوا: مات، عن فلان وأين هو؟ قالوا مات»[٢] ويقول أبو سليمان الداراني «إذا طلب الرجل الحديث، أو سافر في طلب المعاش، أو تزوج فقد ركن إلى الدنيا»[٣].

وقد حاول المعتزلة قبل المتصوفة إثبات عدم ضرورة اتباع السنة، فأعلنوا صراحة أن الحسن ما حسّنه العقل وأن القبيح ما قبّحه العقل. لأنهم إن استطاعوا أن يبرهنوا على عدم ضرورة التقيد بالنصوص تمكنوا وقتئذ من تأويل نصوص الكتاب والسنة كما يشاؤون وعلى أي وجه يريدون.

---

(١) سيأتي بحث التكييف والتعطيل والتمثيل عند بحث الانحراف في فهم العقيدة ص ٣٤ ـ ٣٥.

(٢) ابن عربي، الفتوحات المكية، جـ ١ ص ٣٦٥.

(٣) المصدر السابق، جـ ١، ص ٣٧.

الانحراف في فهم العقيدة

أهمية العقيدة:

فيما يلي بعض المؤشرات التي تدل على الأهمية البالغة للعقيدة:

١ـ العقيدة الإسلامية هي أساس الإسلام وأساس حضارته.

٢ـ من أبرز ما يميز الإسلام في مقوماته وأسسه التي تختلف عن الأديان والمبادىء الوضعية كافة هو العقيدة.

٣ـ إن المواقف كافة التي تُتخذ على مستوى الفرد أو الجماعة تتأثر بشكل مباشر بما تعتقده الجماعة أو الفرد، فهو الموجه الأساس للنشاط العام والخاص.

٤ـ تُعد العقيدة الإسلامية العامل الأول في تحرير الإنسان من أنواع الذل والاستعباد في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية، والمصدر الأول في تحرير الانسان من الأساطير والخرافات.

لذا فليس هناك أدنى ريب في ضرورة المحافظة علي هذا المصدر نقياً لأن قوته في نقائه وأصالته وفي ذلك كله تكمن قوة الإسلام والمسلمين. فإن أصابه ضعفٌ أصاب الضعف حياة المسلمين كافة.

لكن هل سلم فهم العقيدة الإسلامية من محاولات الانحراف التي أصابت الأديان الأخرى؟

للإجابة عن هذا السؤال لا بد من مناقشة الموضوع مناقشة علمية

هادئة دون انفعال. وهذا يستلزم منا الرجوع للتاريخ أولاً، فنحن لا نستطيع أن نجيب عن السؤال آنف الذكر بنعم أولا قبل عرض الحقائق أولاً.

لا نستطيع أن ننكر أن عقيدة بعض المسلمين في فترات معينة قد اتسمت بالصبغة الجدلية وتحولت إلى فلسفات نظرية تبلورت في مذاهب الفرق الإسلامية المتناحرة وقد كان ذلك دون ريب نتيجة الانحراف عن السبيل الصحيح القاضي بأن تُوخذ العقيدة مباشرة من نصوص الكتاب والسنة وأن تُفهم كما فهمها السلف الصالح. وقد انحرف بعض المسلمين عن الحق حينما ادخلوا مسائل غيبية في مجال التفكير العقلي مثل رؤية الله ومسألة الصفات. وهكذا بدأ الانحراف عن المسار الصحيح، فعند كثير من المثقفين والمتعلمين أصبحت العقيدة مناقشات فلسفية كلامية بحتة. أما العامة فغدت عقائدهم مزيجاً من العقيدة الصحيحة والخرافات والأساطير. لقد كان الجهل هو السبب الذي دفع بالعامة لخلط العقائد الصحيحة بغيرها، وهو ليس عذراً. أما السبب الذي تذرع به كثير من أهل العلم والكلام فقد كان حسن القصد للدفاع عن الإسلام، وهو مرفوض أيضاً، فالغاية لا تبرر الوسيلة في الإسلام، وكما أن الغاية مشروعة ومحدودة وهي طاعة الله، فإن الوسيلة مشروعة ومحدودة أيضاً، وهي طريق الكتاب والسنة. وفيما يأتي موجز مختصر لما وقع في فهم العقيدة من انحراف:

١ـ التعطيل: وهو إنكار ما يجب لله تعالى من الأسماء والصفات التي وردت في نصوص القرآن والسنة الصحيحية، وتأويل تلك النصوص[1].

والتعطيل أنواع:

أ ـ تعطيل كلي كتعطيل الجهمية (اتباع الجهم بن صفوان) الذين

---

(١) لمعرفة بعض هذه التأويلات انظر ص ١١٤ .

أنكروا جميع الصفات الإلهية.

ب ـ تعطيل جزئي كتعطيل الأشعرية الذين ينكرون بعض الصفات دون بعض. وأول من عُرف بالتعطيل الجعد بن درهم في أوائل المائة الثانية وضحى به خالد بن عبد الله القسري، أمير العراق والمشرق بواسط، خطب الناس يوم الأضحى فقال: «أيها الناس ضحوا، تقبل الله ضحاياكم، فإني مضح بالجعد بن درهم، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليماً»، ثم نزل فذبحه[1]. وأخذ هذا المذهب عن الجعد الجهم بن صفوان، ومنه إلى المعتزلة. وظهر ذلك في خلافة المأمون، حينما امتُحن علماء المسلمين بمحنة القول بخلق القرآن.

جـ ـ إثبات الصفات والأسماء لله تعالى على اعتبار أنها مجاز لا حقيقة.

ومن الأمثلة التي تبين ذلك إنكار صفة الرضى لله عز وجل وتأويلها بإرادة الإحسان. وإنكار أن يكون لله عز وجل يدان وتأويل ذلك بالقوة أو النعمة. وإنكار حقيقة المحبة والخلة بين الله والعبد. وإنكار صفة الغضب لله عز وجل وتأويلها بالانتقام. وإنكار نزول الله إلى السماء الدنيا، وتأويله بنزول أمره أو رحمته أو ملك من الملائكة، واعتبار ذلك كله مجازاً لا حقيقة.

٢ـ التكييف: وهو حكاية كيفية الصفة كالادعاء بأن كيفية يد الله مثلاً كذا وكذا.

٣ـ «التمثيل والتشبيه: والتمثيل هو إثبات المثل للشيء، أما التشبيه فهو إثبات مشابه له فالتمثيل يقتضي المساواة من كل وجه. أما التشبيه فيقتضي المساواة في أكثر الصفات، والفرق بينهما وبين التكييف هو:

---

(١) البغوي، شرح السنة ج١، ١٨٦.

إن التكييف هو حكاية كيفية الشيء سواء أكانت مطلقة أم مقيدة بشبيه. وأما التمثيل والتشبيه فيدلان على كيفية مقيدة بمماثل أو مشابه، فمن هذه الناحية يكون التكييف أعم لأن كل ممثل مكيف وليس العكس.

ب ـ إن التكييف يختص بالصفات، أما التمثيل فقد يكون في الذات والصفة، فمن هذه الناحية يكون التمثيل أعم لتعلقه بالذات والصفات.

والتشبيه الذي ضل به من ضل من الناس نوعان:

أ ـ تشبيه المخلوق بالخالق ومعناه أن يثبت للمخلوق شيئاً مما يختص به الخالق من الأفعال والصفات والحقوق كزعم المشركين أن مع الله خالقاً، أو الصفات كفعل الغلاة في مدح النبي ﷺ، أو الحقوق كفعل النصارى بالمسيح والمشركين بأصنامهم حيث زعموا أن لها حقاً في الألوهية فعبدوها مع الله تعالى.

ب ـ تشبيه الخالق بالمخلوق ومعناه أن يثبت لله في ذاته أو صفاته من الخصائص مثل ما يثبت للمخلوقين. من ذلك القول بأن يد الله مثل أيدي المخلوقين واستواءه كاستوائهم ونحو ذلك. ومن أوائل من تكلم في تجسيم صفات الله تعالى هشام بن الحكم الشيعي»[1].

٤ـ «الإلحاد: الإلحاد في اللغة: الميل، وفي الإصلاح: الميل عما يجب اعتقاده أو عمله وهو قسمان: إلحاد في أسماء الله، وإلحاد في آيات الله.

فأما الإلحاد في أسمائه تعالى فهو أنواع منها[2]:

١ـ أن ينكر شيئاً منها أو مما دلت عليه من الصفات كما فعل المغطلة.

(١) محمد الصالح العثيمين، «فتح رب البرية بتلخيص الحموية»، ص ١٠ ـ ١١ وانظر أيضاً ابن تيمية، المنتقى من منهاج الاعتدال، ص ٢٤، وللمزيد من التفصيل انظر «مقالات الإسلاميين» لابي الحسن الأشعري، ص ١٠٦ ـ ١١٢.

(٢) ذكرت أكثر من عشرة أنواع أخرى في كتابي «معالم التوحيد».

ب ـ أن يجعلها دالة على تشبيه الله بخلقه كما فعل المشبهة.

جـ ـ أن يُسمى الله بمـا لم يسم به نفسـه كتسمية النصارى له «أباً» وتسمية الفلاسفة إياه «علة فاعلة» ونحو ذلك.

د ـ أن يشتق من أسمائه سبحانه اسماءً لغيره كاشتقاق «اللات» من الإله و «العزى» من العزيز.

وأما الإلحاد في آيات الله فيكون في الآيات الشرعية وهي نصوص القرآن الكريم، ويكون في الآيات الكونية وهي ما خلقه الله ويخلقه في السموات والأرض.

فأمـا الإلحـاد في الآيات الشـرعية فهـو تكـذيب أخبـارها وعصيان احكامها، وأما الإلحاد في الآيات الكونية فهو نسبة خلقها إلى غير الله أو اعتقاد شريك له فيها»[1]

٥ـ التجهيل: ونعني به ما اعتقده بعض المسلمين من أن ما جاء به الرسول ﷺ من نصوص الصفات ألفاظ مجهولة لا يعرف معناها حتى الرسول ﷺ وهذا غير صحيح من قريب أو بعيد[2].

إن الانحراف في فهم العقيدة كان مصدره الفرق الإسلامية. وإن هذا الانحـراف وإنْ تفـاوت واختلف من فرقـة لأخـرى غير أنـه يظل مشتركاً ومتشـابهـاً في امـر واحـد هو بعده عن الفهم الصحيح والتصور الأصيل المستمد بوضوح ومباشرة من القرآن والسنة.

وفيما يلي عرض موجز لبعض انحرافات الفرق الإسلامية فيما يخص العقيدة[3]:

---

(١) محمد الصالح العثيمين، «فتح رب البرية بتلخيص الحموية» ص ١٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٨.

(٣) لمعرفة مزيد من إنحرافات الفرق الإسلامية انظر «الفَرقُ بين الفِرقْ» لعبد القاهر البغدادي (من علماء القرن الخامس الهجري).

١ـ كفَّر الخوارج معظم المسلمين واستحلوا دمائهم وأموالهم وقسموا دار الإسلام إلى دارين: دار كفر ودار حرب، وسووا بين الصغائر والكبائر.

٢ـ يرى الخوارج عدم اتباع السنة التي يظنون مخالفتها للقرآن كالرجم للزاني المحصن.

٣ـ تكفير الخوارج لعثمان وعلي رضي الله عنهما اللذين شهد لهما رسول الله ﷺ بالجنة.

٤ـ اعتقاد الخوارج بجواز أن يكون الرسول ظالماً.

٥ـ اعتقاد الخوارج أن العبد يصير كافراً بالذنب.

٦ـ اعتقاد بعض فرق الخوارج أن من لا يعرف أسماء الله وتفاصيل الشريعة فهو كافر.

٧ـ اعتقاد أتباع عبد الكريم بن عجرد من فرق الخوارج أن سورة يوسف ليست من القرآن، لأنها في شرح العشق والعاشق والمعشوق، ومثل هذا لا يجوز أن يكون كلام الله.

٨ـ يُجوِّز أتباعُ ميمون بن عمران من الخوارج نكاح بناتهم ويعتقدون ان الله تعالى ليس خالق الشر.

٩ـ يتبرأ أتباع أخنس بن قيس من كل من لا يوافقهم أو يسكن في بلاد مخالفهم[١].

ب ـ المعتزلة: وضع أصول مذهبهم واصلُ بن عطاء وتابعه عمرو بن عبيد في أوائل القرن الثاني الهجري. ومن الضلالات التي وقع فيها المعتزلة.

١ـ ينفي المعتزلة أن يكون الله تعالىٰ خالقاً للشر، إذ لو خلقه ثم عذب

(١) اختصرت هذه النقاط عن الخوارج من «الفَرق بين الفِرق» ص ٧٢ ـ ١١٣.

الناس عليه لكان ذلك ظلماً، والله تعالى عادل لا يظلم. وينبني على هذا الاعتقادَ أن هناكَ خالقاً غير الله وأن الله تعالى يكون في ملكه مالا يريد فهو إذن عاجز، وهذا مستحيل.

والحق أن المعتزلة لم يتنبهوا للتفرقة بين الفعل والخلق، فالله خالق كل شيء من شر وخير، لكن الإنسان هو فاعل أفعاله فليس في كون الله خالقاً للشر ظلم للإنسان لأن الأخير يظل فاعلاً لأفعاله.

٢- يزعم المعتزلة أن القرآن الكريم مخلوق، والقرآن (أي اللفظ والمعنى وليس ورق المصحف وحبره) كما هو معلوم كلام الله فهو صفة من صفاته، وصفات الله تعالى كذاته لا أول لوجودها. والمعتزلة بقولهم بخلق القرآن فرقوا بين الله تعالى وصفاته، فآمنوا بأولية الله تعالى وانكروا أولية صفاته، وهذا مستحيل لأنه إذا كانت الصفة مخلوقة فالموصوف مخلوق أيضاً.

٣- يرفض المعتزلة الإيمان بأن الله تعالى له أن يعفو عمن توعدهم من العصاة، لأنه لا يخلف الميعاد، فلا يعفو عمن يشاء، ولا يغفر لمن يريد. تعالى الله عن هذا الافتراء، وهو سبحانه القائل ﴿إنَّ الله لا يغفر أنْ يُشركَ به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ [النساء: ٤٨].

٤- المنزلة بين المنزلتين: يرى المعتزلة أن من ارتكب كبيرة يخرج من الإيمان، لكنه لا يدخل في الكفر، فهو في منزلة بين الكفر والإيمان.

٥- الأمر بالمعروف، قالوا: علينا أن نأمر غيرنابماأُمرنابه، وأن نُلزمَه بما يَلْزَمُنا. وعملاً بذلك أجبروا المسلمين على القول بخلق القرآن. ولا ريب أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا خلاف عليه من حيث وجوبه، ولكن الاختلاف مع المعتزلة في التطبيق.

٦- يرى المعتزلة أن الله ليس خالقاً لأفعال العباد الاختيارية، بل الإنسان يخلق أفعاله. وليس معنى هذا سوى أن أفعال العباد تقع بغير مشيئة الله

وقدرته. والخطأ الذي جرهم إلى هذا هو عدم تفريقهم بين الخلق والفعل. فالله هو خالق كل شيء ولكنه ليس هو فاعل كل شيء. إذ الإنسان فاعل لأفعاله حقيقةً، فمثلاً: الله هو الذي يخلق الأكل والشرب، لكن الآكل والشارب هو الإنسان.

٧ـ قاس المعتزلة أفعال الله تعالى على أفعال عباده، وجعلوا ما يحسن من العباد يحسن منه، وما يقبح من العباد يقبح منه، وقالوا: يجب على الله أن يفعل كذا، ولا يجوز له أن يفعل كذا.

٨ـ يرى أتباع أبي الهذيل من المعتزلة أن خالقية الله تعالى قد انتهت إلى حد لا يقدر أن يخلق شيئاً آخر.

٩ـ يرى أتباع إبراهيم النظام من المعتزلة أن الإنسان قادر على أشياء لا يقدر الله تعالى على خلقها.

١٠ـ هاشم بن عمرو الغوطي وأتباعه من المعتزلة كانوا يرون تحريم قول «حسبنا الله ونعم الوكيل» لأنه لا يجوز إطلاق اسم الوكيل على الله.

١١ـ سلك المعتزلة عموماً اسلوب التفصيل في نفي النقص عن الله تعالىٰ، فقالوا: الله ليس بجسم وليس بشخص وليس.. الخ. وهذا خلاف الأدب مع الله تعالى ومخالفة لطريقة القرآن المتمثلة في الاجمال في نفي النقص عنه سبحانه كقوله تعالى ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ الشورى: ١١.

١٢ـ استغل المعتزلة السلطة السياسية لفرض مفهوم معين على الناس كافة كما حدث في فتنة امتحان الناس والعلماء بخلق القرآن.

١٣ـ اعتقد المعتزلة أن المؤمن إذا خرج من الدنيا على طاعة وتوبة وجب على الله أن يُثيبه، وأن الكافر إذا خرج على معصية وجب على الله أن يُعذبه.

١٤ـ اعتقد المعتزلة أنه يمكن أن يقع في الكون مالا يريد الله، كما يمكن أن الله تعالىٰ يريد شيئاً ولا يقع. فمثلاً أراد الله تعالى من الكافر الإيمان لكنه لم يقع منه إلا الكفر، وأراد الله تعالى من الفاسق الطاعة لا الفسق. بل ذهب المعتزلة إلى أكثر من ذلك فزعموا أن أكثر ما يقع من الناس على خلاف مراد الله، واحتجوا لذلك بالقول: إن إرادة القبح قبيحة، والله تعالى منزه عن القبائح.

ولا ريب أن المعتزلة في اعتقادهم هذا لم يتنبهوا إلى التمييز بين إرادة الله الشرعية والتي تتضمن الأمر والمحبة ولا تكون إلا في الخير وبين الارادة الكونية التي قد تكون في الخير وقد تكون في الشر، فخلطوا بين الإرادة الشرعية والإرادة الكونية. فالله تعالى قد يقع في ملكه مالا يحب ولكن لا يقع في ملكه مالا يشاء.

١٥ـ قدّس المعتزلة العقل حتى قالوا: الحسن ما حسّنه العقل والقبيح ما قبّحه العقل. والحق أن الحسن ما حسّنه الشرع والقبيح ما قبّحه الشرع. والعقل قد يدرك حسناً وقبحاً ولكن لا يترتب على ذلك حكم إلا بحكم الشرع.

١٦ـ آمن المعتزلة بأن ذات الله وصفاته شيء واحد، وأن معنى الذات هو معنى الصفات. فالله عندهم حي عالم قادر بذاته، لا بعلم وقدرة وحياة زائدة على ذاته. وأهل السنة يقولون: إن الصفة وإن كانت غير منفصلة عن الموصوف إلا أن معناها غير معنى الذات الموصوفة.

جـ ـ الجبريـــة:

١ـ اعتقد أصحاب جهم بن صفوان من الجبرية أن العبد ليس له قدره ولا إرادة، أي أنه مجبور على أفعاله، وذلك على الرغم من أن النصوص تُصرح بأن للعبد قدرة وإرادة. فأفعال الناس في نظرهم كلها لله ولا دخل للإنسان

فيها، فهي كلها أفعال اضطرارية لا إرادة للإنسان في أي منها.

٢ـ اعتقد أتباع يونس بن عوف وأتباع غسان الحرمي من المرجئة أن الإيمان لا يقبل الزيادة والنقصان وهذا مخالف لصريح نصوص الكتاب والسنة التي أثبتت زيادة الإيمان ونقصانه.

د ـ المرجئة:

١ـ ترى المرجئة عموماً أن الإيمان هو معرفة الله سبحانه وتعالى، وأن العمل ليس شرطاً للإيمان وهذا في الواقع مخالف لنصوص القرآن الكريم.

٢ـ اعتقد المرجئة بأنه لا أهمية ولا أثر للمعاصي طالما وجد الإيمان. وأنه لا يضر مع الإيمان معصية، وأن الله لن يعذب الفاسقين من الأمة. وهذا غير صحيح، فإن الله تعالى قد يعفو عن بعضهم، لكننا لا نقطع على شخص معين منهم بأن الله لا بد أن يعفو عنه، أو لا بد أن يعذبه، فأمره إلى الله تعالى وإلى مشيئته.

مساهمة علم الكلام في تحريف فهم العقيدة:

بعد اتساع بلاد الإسلام نتيجة للفتوحات اتصل المسلمون بأمم وشعوب أخرى، ونتيجة لهذا الاحتكاك فتح باب الجدل حول عقائد الطرفين. وبالتدريج نشأ علم الكلام وعُرف المشتغلون به بالمتكلمين كالمعتزلة والأشاعرة. فعلم الكلام هو علم موضوعه الأمور الاعتقادية واثباتها بطرق عقلية محضة.

إن غاية المتكلمين وإن كانت الدفاع عن الإسلام في وجه خصومه، إلا أن المتكلمين اتبعوا وسائل مخالفة لنهج القرآن في تحقيق تلك الغاية. وبهذا نشأ منهج جديد يخالف منهج الكتاب والسنة ومنهج الصحابة والتابعين وتابعيهم.

إنحرافات المتكلمين:

١ـ اعتقد المتكلمون أن تعلم المنطق أمر ضروري للدفاع عن العقيدة، ولذا كان من لا يتقنه من المسلمين ـ في نظرهم ـ عاجزاً عن البرهان على صحة وسلامة معتقده.

٢ـ قاس المتكلمون الله تعالى على الإنسان مما أدى بهم إلى تجاوزات واستنتاجات منحرفة فعلى سبيل المثال أوجبوا على الله العدل كما يراه ويتصوره الإنسان.

٣ـ سلط المتكلمون العقل على نصوص الكتاب والسنة واستنتجوا لأنفسهم آراءً غريبة عن فهم الصحابة لتلك النصوص. وبعبارة اخرى جعلوا العقل اساساً للقرآن ولم يجعلوا القرآن أساساً ومقياساً وحكماً على العقل.

٤ـ أما الآيات القرآنية التي تتعارض مع ما توصلوا إليه فعمدوا إلى تأويلها تأويلاً يوافق ما توصلوا إليه. ولذا فقد اتسم منهج المتكلمين بالتأويل.

٥ـ ومظهر آخر من مظاهر انحراف المتكلمين هو أن غايتهم بعد أن كانت الدفاع عن الإسلام تحولت، فلم تعد سوى الغلبة ضد بعضهم البعض وهكذا أصبح الجدل الكلامي مجالاً للصراع بين المتكلمين.

٦ـ إن خطأ المتكلمين يمكن في أنهم اعتمدوا على قواعد عقلية لم تكن مستنبطة من الكتاب والسنة فلم تكن تلك القواعد بالتالي صحيحة لأن العقل الصحيح لا يناقض ولا يعارض النقل الصريح الشيء الذي أوصلهم إلى نتائج مخالفة لعقيدة الصحابة والتابعين وتابعيهم.

الفلسفة الإسلامية

الفلسفة الإسلامية مظهر آخر من مظاهر إنحراف المسلمين. ونحن نسميها إسلامية تجوزاً وإلا فهي إلى حد بعيد صدى للفكر اليوناني. وكما

يشير الدكتور محمد البهي «دون أن يقدم جديداً أو حتى دون أن يهضمه»[1].

ومن حسن الحظ أن المسلمين عرفوا الفلسفة اليونانية بعد قرنين كاملين من ظهور الإسلام، وبعد أن تبلور ظهور العلوم الدينية ودونت السنة وإلا لكانت النتائج خطيرة.

والحقيقة أننا لسنا ضد العقل وإن كنا ضد الفلسفة. وليس من الضروري أن من يحمل موقفاً ضد الفلسفة أن يحمل موقفاً معادياً للعقل. ففي الفلسفة أبحاث هي في نظر الإسلام كفر منها:

١ـ قدم العالم وأزليته.
٢ـ ان نعيم الجنة روحاني لا مادي.
٣ـ ان الله يجهل الجزئيات ويعلم الكليات.

مظاهر التعارض بين الفلسفة والإسلام كثيرة منها:

١ـ من حيث الموضوع: فإن الفلسفة تبحث في الغيبيات في حين أن الإسلام يحصر البحث العقلي في المحسوسات وفي المعقولات بحدود ضوابط الشرع، ويمنع العقل من البحث في الغيبيات فليس في الإسلام سوى بحث في القرآن الكريم والسنة النبوية، فهما وحدهما أصل الإسلام عقيدةً وأحكاماً. الشيء الذي يجعل الفلسفة غريبة وبعيدة عن الإسلام.

٢ـ من حيث المقياس: فالعقل هو المقياس الأول والأخير عند الفلاسفة. في حين الشرع (الكتاب والسنة) هما المقياس في الإسلام.

ولقد حاول الفلاسفة المسلمون أمثال الكندي والفارابي وابن سينا التوفيق بين الإسلام وبين الفكر اليوناني لكن دون جدوى. ولم يفد من هذه

---

(١) محمد البهي، محاضرات في الفكر الإسلامي، ص ١٣.

المحاولات أي من الجانبين، ولا شك أن هذه نتيجة منطقية، فإن من أهم أسباب التضاد بين الطرفين هو التناقض في ما يخص الأسس والغايات والوسائل، فكان من المستحيل التوفيق بين دين مصدره الإله وفكر مصدره الإنسان!!

٣ـ لم يقتصر الأمر على الموضوع بل شمل الغاية، فكما أن موضوع أبحاث الفلاسفة المسلمين كانت أبحاثاً فلسفية لا علاقة للإسلام بها، فكذلك غايتهم لم تكن الدفاع عن الإسلام، بل كانت أبحاثاً فلسفية مجردة.

الشيعة:

الشيعة فرق وطوائف كثيرة نتحدث فيما يلي عن إنحرافات أشهرها وأهمها وهم الشيعة الإثنا عشرية:

١ـ استقلت الشيعة بمصادر الحديث والفقه عن أهل السنة والجماعة مثل كتاب نهج البلاغة المنسوب[1] لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه والكافي للكليني عندهم بمنزلة البخاري عند أهل السنة.

٢ـ يعتقد الشيعة أن الإمامة هي أهم مسألة من مسائل أصول الدين، والحق أنها ليست كذلك.

٣ـ تقول الشيعة بعصمة الأئمة عن الصغائر والكبائر وعلمهم بكل شيء ووجوب الرجوع إليهم في جميع ما جاء به الرسول. وأنهم يمتازون عن سائر البشر في فهم الكتاب والسنة وأنهم كذلك مشرعون.

٤ـ يرى الشيعة أن الصحابة ارتدوا بعد وفاة الرسول ﷺ إلا ثلاثة وقيل: إلا سبعة[2]. كما يرون أن الصحابة لم يتلقوا إلا جزءاً من الشريعة.

(١) وقد انكر نسبته إليه الحافظ الذهبي كما في ترجمة الشريف المرتضى من «ميزان الاعتدال».

(٢) الكليني، الكافي، ٢٢٧ ـ ٢٥٨.

٥- من عقيدة الشيعة الولاء والبراء، الولاء للأئمة والبراء من أعدائهم [ويعنون بهم أهل السنة].

٦- يعتقد الشيعة أن دين أهل السنة ناقص لا يكتمل إلا إذا اعتنقوا مذهب أهل البيت.

٧- إن الأحكام في نظر الشيعة لم تضبط جميعها إلا من قبل الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

٨- يرى أئمة الشيعة وكبار علمائهم أن القرآن الموجود بيننا مختلف عن مصحف فاطمة الذي جمعه علي وأراد تبليغه للناس[1] وهو أمر قليلاً ما يحدثون به عوامهم. ومصحفهم هذا فيه قولان عندهم، الأول: أن القرآن الذي بين أيدينا ينقص ألفاً وستمائة آية. والقول الثاني أنه ليس فيه حرف واحد من مصحف فاطمة الذي هو الآن عند الإمام المنتظر في السرداب.

٩- يرى الشيعة أن لا يجوز لشيعي أن يتزوج سنية أو يُزَوِّج سنياً.

١٠- يرى الشيعة عدم صحة الصلاة وراء السني إن كانت مكتوبة، وأما إذا كانت تطوعاً فله خمس وعشرون درجة لا سبع وعشرون درجة.

١١- يعتقد الشيعة بالتقية بمعنى إظهار غير حقيقة ما يعتقدون وما يريدون أمام الخصم كي يستطيعوا قضاء مآربهم وما يبيتون.

الشيعة وتحريف القرآن:

يعتقد علماء الشيعة بأن القرآن الذي جاء به جبريل ليس هو القرآن المعروف. يقول البحراني المفسر الشيعي المشهور (ف ١١٠٨هـ) «اعلم أن الحق الذي لا محيص عنه بحسب الاخبار المتواترة الآتية وغيرها أن هذا

---

(١) الفيض الكاشاني، تفسير الصافي، ١/١٥.

القرآن الذي في أيدينا قد وقع فيه بعد رسول الله شيء من التغييرات»[1] ويذكر مؤلف كتاب الكافي وهو عند الشيعة بمنزلة البخاري عند أهل السنة ما نصه «إن القرآن الذي جاء به جبرائيل إلى محمد عليه السلام سبعة عشر ألف آية»[2].

وأورد فيما يلي نموذجاً من قرآن فاطمة الذي يعتمده الشيعة، ففي كتاب «فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب»[3] أورد المؤلف سورة يزعم أنها سقطت من القرآن الكريم كما يلي :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم

يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالنورين أنزلناهما يتلوان عليكم آياتي ويحذرانكم عذاب يوم عظيم
نوران بعضهما من بعض وأنا السميع العليم إن الذين يوفون ورسوله في آيات لهم جنات نعيم
والذين كفروا من بعد ما آمنوا بنقضهم ميثاقهم وما عاهدهم الرسول عليه يقذفون في الجحيم
ظلموا أنفسهم وعصوا الوصي الرسول أولئك يسقون من حميم إن الله الذي نور السموات والأرض
بما شاء واصطفى من الملائكة وجعل من المؤمنين أولئك في خلقه يفعل الله ما يشاء لا إله
إلا هو الرحمن الرحيم قد مكر الذين من قبلهم برسلهم فأخذتهم بمكرهم إن أخذي شديد أليم
إن الله قد أهلك عاداً وثمود بما كسبوا وجعلهم لكم تذكرة فلا تتقون وفرعون بما طغى على
موسى وأخيه هرون أغرقته ومن تبعه أجمعين ليكون لكم آية وإن أكثركم فاسقون إن
الله يجمعهم في يوم الحشر فلا يستطيعون الجواب حين يسألون إن الجحيم مأواهم وإن الله عليم حكيم
يا أيها الرسول بلغ إنذاري فسوف يعلمون قد خسر الذين كانوا عن آياتي وحكمي معرضون مثل

---

(١) تفسير البحراني، من مقدمة كتابه تحت عنوان «بيان ما يوضح وقوع بعض تغيير في القرآن»

(٢) الكافي، كتاب فضل القرآن.

(٣) النوري الطبرسي، فصل الخطاب، ص ١٨٠ ـ ١٨١.

الذين يوفون بعهدك إني جزيتهم جنات النعيم إن الله لذو مغفرة وأجر عظيم وإن عليا من
المتقين وإنا لنوفينه حقه يوم الدين ما نحن عن ظلمه بغافلين وكرمناه على أهلك أجمعين فإنه
وذريته لصابرون وإن عدوهم إمام المجرمين قل للذين كفروا بعد ما آمنوا أطلبتم
زينة الحيوة الدنيا واستعجلتم بها ونسيتم ما وعدكم الله ورسوله ونقضتم العهود
من بعد توكيدها وقد ضربنا لكم الأمثال لعلكم تهتدون يا أيها الرسول قد أنزلنا إليك
آيات بينات فيها من يتوفاه مؤمنا ومن يتوليه من بعدك يظهرون فأعرض عنهم إنهم معرضون
إنا لهم محضرون في يوم لا يغني عنهم شيء ولا هم يرحمون إن لهم في جهنم مقاما عنه لا يعدلون
فسبح باسم ربك وكن من الساجدين ولقد أرسلنا موسى وهرون بما استخلف فبغوا هرون
فصبر جميل فجعلنا منهم القردة والخنازير ولعناهم إلى يوم يبعثون فاصبر فسوف يبصرون
ولقد آتينا بك الحكم كالذين من قبلك من المرسلين وجعلنا لك منهم وصيا لعلهم يرجعون
ومن يتول عن أمري فإني مرجعه فليتمتعوا بكفرهم قليلا فلا تسئل عن الناكثين يا أيها الرسول
قد جعلنا لك في أعناق الذين آمنوا عهدا فخذه وكن من الشاكرين إن عليا قانتا بالليل
ساجدا يحذر الآخرة ويرجو ثواب ربه قل هل يستوي الذين ظلموا وهم بعذابي يعلمون سنجعل
الأغلال في أعناقهم وهم على أعمالهم يندمون إنا بشرناك بذريته الصالحين وإنهم لأمرنا لا
يخلفون فعليهم مني صلوات ورحمة أحياء وأمواتا يوم يبعثون وعلى الذين يبغون عليهم
من بعدك غضبي إنهم قوم سوء خاسرين وعلى الذين سلكوا مسلكهم مني رحمة وهم في الغرفات
آمنون والحمد لله رب العالمين »

الشيعة والطعن في السنة :

لم يكتف الشيعة بافتراء مجموعة كبيرة من الأحاديث زاعمين نسبتها للرسول ﷺ، مخترعين لها من عند أنفسهم اسانيد لم يثبت وفق المعايير العلمية الصحيحة لدى علماء الحديث صدقها من قريب أو بعيد. لكنهم ذهبوا إلى أبعد من ذلك، فشككوا بصحة البخاري ومسلم وكل كتب

الحديث المعتمدة. بل حاولوا نسف السنة من الأساس متعمدين اساءة الاستشهاد ببعض نصوص القرآن العظيم، محتجين بأنه كان من بين الصحابة منافقون، وإن المنافقين لم يكونوا جميعاً معروفين للمسلمين بدليل قوله تعالى: ﴿وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مَردُوا على النفاق، لا تعلمهم نحن نعلمهم، سنعذبُهم مرتين ثم يُردُون إلى عذاب عظيم﴾ [التوبة: ١٠١]. وإذا كان الأمر كذلك فمن يضمن لنا أنه لم يقم هؤلاء المنافقون بدس الأحاديث ونسبتها للرسول؟.

والجـــواب:

أولاً: «إن سنة رسول الله ﷺ وحي من عند الله تماماً ككتاب الله تعالى لا فرق بينهما إلا باللفظ. وذلك أن لفظ القرآن ومعناه من عند الله، أما السنة فمعناها من عند الله ولفظها من عند رسول الله. وكما تعهد الله تعالى بحفظ كتابه فقد تعهد بحفظ سنة رسوله، فقال تعالى ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ [الحجر: ٩] وهذا حفظ شامل للكتاب والسنة بل للغة العربية. إذ كيف يُحفظ الكتاب دون أن يحفظ ما به يُبَيَّن مجمله، ويقيد مطلقه، ويُخصص عامه وأعني السنة. وكيف يُحفظ الكتاب إذا لم تحفظ اللغة التي يُقرأ ويفهم بها، وأعني العربية. فمن ظن أن هذا النص لا يشمل حفظ السنة واللغة العربية فقد وهم»[1].

ثانياً: إن النصوص تؤكد عدالة الصحابة وفضلهم. ولن آتي هنا بنصوص السنة بل سأكتفي بنصوص القرآن الكريم فمن ذلك:

أ- ﴿كنتم خير أمةٍ أُخرجت للناس﴾ [آل عمران: ١١٠] وقوله تعالى ﴿وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً﴾ [البقرة: ١٤٣]، والصحابة هم المخاطبون مباشرة بهاتين الآيتين كما نص على ذلك المفسرون.

---

(١) معالم التوحيد للمؤلف، ٦٢.

ب ـ ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداءُ على الكفار رحماءُ بينهم تراهم رُكعاً سُجداً . . الآية﴾ [الفتح : ٢٩].

جـ ـ وقوله تعالىٰ ﴿والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين أووا وَنَصــروا. أولئـك هم المؤمنـون حقـاً لهم مغفـرة ورزق كريم﴾ [الأنفال: ٧٤].

أما الزعم بأن الأدلة التي وردت في عدالة الصحابة ليس المراد بها عمـوم الصحـابة، وإن المراد منها أولئك الذين كانوا مع رسول الله قبل الفتح، فهو زعم مرود لأن الصحابة وإن كانوا يتفاوتون في الفضل إلا أنهم جميعاً موعودون بالحسنى كما قال تعالىٰ: ﴿لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل، أولئك أعظمُ درجةً من الذين انفقوا من بعدُ وقاتلوا وكلاً وعد الله الحسنىٰ، والله بما تعملون خبير﴾ [الحديد: ١٠].

وأمـا الاحتجـاج بآية سورة التـوبـة ﴿ومن أهـل المدينة مردوا على النفاق﴾ فإن هؤلاء اظهروا ما كانوا يضمرون من الكفر والبغض للإسلام وأهله بعد وفاة الرسول وارتدوا وقاتلهم المسلمون. أما الصحابة الصادقون فمـاتـوا جميعـاً على الإيمان بدليل قوله تعالى ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسانٍ رضي اللهُ عنهم ورضوا عنه وأعـدَّ لهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم﴾ [التوبة: ١٠٠].

وما أحسن ما قاله قرشي بن عمر بن أحمد: «إن حفظ الدين يقتضي عدالة الصحابة. إذ كيف يَعِدُ الله سبحانه بحفظ دينه ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ [الحجر: ٩]، بينما حملته ونقلته عن نبيه ﷺ مطعون في عدالتهم ونزاهتهم، وييسر للأمة مع ذلك الإجماع على عدالتهم وقبول رواياتهم بغير شك وريبة؟ فإن هذا مما لا يستقيم»[1].

---

(١) تنبيه ذوي النجابة إلى عدالة الصحابة، ٢٥.

أما الأحاديث الصحيحة التي تؤكد عدالة الصحابة فكثيرة، وكذلك أقوال المفسرين والمحدثين والاصوليين والفقهاء أكثر من أن تُحصى، فقد انعقد الاجماع على عدالتهم رضي الله عنهم، ولم يخالف في ذلك إلا الشيعة.

إن الشيعة ليسوا بذلك الخطر الذي يتهدد العقيدة وبخاصة بعد قيام الثورة الإيرانية وذلك لأمرين اثنين:

١ـ إن دعاوى إقامة النظام الإسلامي المثالي بكل ما في الكلمة من معنى لم يحقق النظام الإيراني الشيعي منها شيئاً، لا لأن الإسلام غير قابل للتطبيق في القرن العشرين، وإنما لأنه لم توجد نوايا لدى الشيعة لانجاز شيء إلا التخريب والدمار وتشويه صورة الإسلام وإجهاض البعث الإسلامي المرتقب.

٢ـ أدى ظهور التشيع على مسرح الأحداث إلى تنشيط الحركة العلمية الهادفة إلى كشف حقيقة الشيعة وعدائهم للإسلام، فكُتب كثير من الكتب القيمة منها على سبيل المثال: «تعريف بمذهب الشيعة الامامية» لمحمد التركماني، «الثورة الإيرانية في ميزان الإسلام» للشيخ محمد منظور نعماني، «كشف الأسرار» تأليف روح الله خميني، «الشيعة في التصور الإسلامي» لعلي فريج، «الشيعة والمتعة» لمحمد مال الله، «الشيعة والتصحيح أو (الصراع بين الشيعة والتشيع)» للدكتور موسى الموسوي أحد كبار علماء الشيعة.

على أن ضرورة البحث تقتضي منا الآن أن نوجه اهتمامنا لموضوعين اثنين نخصهما ببعض العناية، لأنه خطرهما واسع شائع ومظهرهما فائق وأعني عقيدة الأشاعرة والتصوف.

الأشاعرة في ميزان العقيدة

هم أتباع ابي الحسن الأشعري على مذهبه القديم. ومن المعلوم أنه رجع إلى مذهب السلف في أواخر حياته. ويظهر ذلك جلياً في كتابه «الإبانة عن أصول الديانة» وهكذا فإن أبا الحسن الأشعري لم يكن في أواخر حياته أشعرياً غير أن أتباعه تابعوه على ما كان عليه من اعتقادات مخالفة لعقيدة السلف قبل رجوعه إليها.

ومن العجب العجاب انك تجد كثيراً من المسلمين شافعية وحنفية ومالكية فقهاً وأشاعرة عقيدة، وقد كان من الأولى لهم متابعة أبي حنيفة والشافعي ومالك رضي الله عنهم في عقيدتهم الصحيحة. وهؤلاء لم يكونوا أشاعرة بل كانوا من أهل السنة والجماعة، والأشاعرة ليسوا من أهل السنة والجماعة. والموضوع الوحيد الذي يتفقون فيه مع أهل السنة والجماعة هو موضوع الصحابة. أما موضوعات العقيدة الأخرى فيستبين لنا فيما سيأتي البون الشاسع بين مذهب الأشاعرة وعقيدة أهل السنة والجماعة. ولكن أولاً ما هو مفهوم أهل السنة والجماعة؟

إن مصطلح أهل السنة يطلق ويُراد به معنيان:

أ ـ «المعنى الأعم: وهو ما يقابل الشيعة فيقال: المنتسبون للإسلام قسمان: أهل السنة والشيعة. وهذا المعنى يدخل فيه كل من سوى الشيعة كالأشاعرة. لا سيما والأشاعرة فيما يتعلق بموضوع الصحابة والخلفاء متفقون مع أهل السنة وهي نقطة الإتفاق المنهجية الوحيدة.

ب ـ المعنى الأخص: وهو ما يقابل المبتدعة وأهل الأهواء وهو الأكثر

استعمالا وعليه كتب الجرح والتعديل. فإذا قالوا عن الرجل أنه صاحب سنة أو كان سنياً أو من أهل السنة ونحوها فالمراد أنه ليس من إحدى الطوائف البدعية كالخوارج والمعتزلة والشيعة وليس صاحب كلام وهوى.

وهذا المعنى لا يدخل فيه الأشاعرة أبداً بل هم خارجون عنه. وسنأتي بحكمهم عند أئمة المذاهب الأربعة من الفقهاء فما بالك بأئمة الجرح والتعديل من أصحاب الحديث»[1].

حكم أئمة المذاهب الأربعة في الأشاعرة:

١-المالكية: فقد روى حافظ المغرب وعالمها الفذ ابن عبد البر بسنده عن فقيه المالكية بالمشرق ابن خويز منداذ أنه قال في كتاب الشهادات شرحاً لقول مالك لا تجوز شهادة أهل البدع والأهواء، قال: «أهل الأهواء عند مالك وسائر أصحابنا من أهل الأهواء والبدع أشعرياً كان أو غير أشعري ولا تقبل له شهادة في الإسلام أبداً ويُهجر ويُؤدب على بدعته فإن تمادى عليها استتيب منها»[2].

وروى ابن عبد البر نفسه في «الانتقاء» عن الأئمة الثلاثة مالك وأبي حنيفة والشافعي نهيهم عن الكلام وزجر أصحابه وتبديعهم وتعزيرهم ومثله ابن القيم في «إجتماع الجيوش الإسلامية» فماذا يكون الأشاعرة إن لم يكونوا أصحاب كلام؟

٢- الشافعية: قال الإمام أبو الحسن الكرجي من علماء القرن الخامس الشافعية ما نصه: «لم يزل الأئمة الشافعية يأنفون ويستنكفون أن يُنسبوا إلى الأشعري ويتبرأون مما بنى الأشعري مذهبه عليه وينهون أصحابهم وأحبابهم عن الحوم حواليه على ما سمعت من عدة من المشايخ والأئمة»

---

(١) سفر الحوالي، منهج الاشاعرة في العقيدة، ١٥ - ١٦.

(٢) جامع بيان العلم وفضله (٢/١١٧).

وضرب مثالا بشيخ الشافعية في عصرة الإمام أبوحامد الاسفرائيني الملقب «الشافعي الثالث» قائلاً: «ومعلوم شدة الشيخ على أصحاب الكلام حتى ميز أصول فقه الشافعي من أصول الأشعري، وعلق عنه أبو بكر الراذقاني وهو عندي، وبه اقتدى الشيخ أبو اسحاق الشيرازي في كتابيه اللمع والتبصرة حتى لو وافق قول الأشعري وجها لأصحابنا ميزّه وقال: «هو قول بعض أصحابنا وبه قالت الأشعرية» ولم يَعُدُّهُم من أصحاب الشافعي، استنكفوا منهم ومن مذهبهم في أصول الفقه فضلاً عن أصول الدين»[1].
وبنحو قوله بل أشد منه قال شيخ الإسلام الهروي الأنصاري.

٣ـ الحنفية: من المعلوم أن واضع الطحاوية وشارحها كلاهما حنفيان وكان الإمام الطحاوي معاصراً للأشعري وكتب هذه العقيدة لبيان معتقد الإمام أبي حنيفة وأصحابه وهي مشابهة لما في «الفقه الأكبر» عنه. وقد نقلوا عن الإمام أنه صرح بكفر من قال إن الله ليس على العرش أو توقف فيه، وتلميذه أبو يوسف كفر بشراً المريسي، ومعلوم أن الأشاعرة ينفون العلو وينكرون كونه تعالى على العرش ومعلوم أيضاً أن أصولهم مستمدة من بشر المريسي!![2].

٤ـ الحنابلة: موقف الحنابلة من الأشاعرة أشهر من أن يُذكر فمنذ بدَّع الإمام أحمدُ ابنَ كلاب وأمر بهجره ـ وهو المؤسس الحقيقي للمذهب الأشعري ـ لم يزل الحنابلة معهم في معركة طويلة، وحتى في أيام دولة نظام الملك ـ التي استطالوا فيها ـ وبعدها كان الحنابلة يُخْرجون من بغداد كل واعظ يخلط قصصه بشيء من مذهب الأشاعرة، ولم يكن ابن القشيري إلا واحداً ممن تعرض لذلك، وبسبب انتشار مذهبهم وإجماع علماء الدولة سيما الحنابلة على محاربته أصدر الخليفة القادر منشور «الاعتقاد

(١) التسعينية، ٢٣٨ ـ ٢٣٩.

(٢) سير أعلام النبلاء ترجمة بشر (١٠/ ٢٠٠ ـ ٢٠١).

القادري» أوضح فيه العقيدة الواجب على الأمة اعتقادها سنة ٤٣٣هـ»[1]؟

إنحرافات الأشاعرة:

وفيما يأتي بعض ما وقع من الأشاعرة من إنحرافات في العقيدة اقتبستها من محاضرة قيمة للدكتور سفر بن عبد الرحمن الحوالي المحاضر بكلية الدعوة بجامعة ام القرى بمكة المكرمة وطبعتها فيما بعد الدار السلفية بالكويت.

١ـ«مصدر التلقي: مصدر التلقي عند الأشاعرة هو العقل. وقد صرح الجويني والرازي والبغدادي والغزالي والآمدي والإيجي وابن فورك والسنوسي وشراح «جوهرة التوحيد» وسائر أئمتهم بتقديم العقل على النقل عند التعارض. وعلى هذا جرى المعاصرون منهم، ومن هؤلاء السابقين من صرّح بأن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة أصل من أصول الكفر وبعضهم خففها فقال هو أصل الضلالة!!

وقد صرح متكلمون أن نصوص الكتاب والسنة ظنية الدلالة ولا تفيد اليقين إلا إذا سلمت من عشر عوارض منها: الاضمار والتخصيص والنقل والاشتراك والمجاز... الخ وسلمت بعد هذا من المعارض العقلي بل قالوا: من احتمال المعارض العقلي.

وإنك لتقرأ في كتب عقيدتهم قديمها وحديثها المائة صفحة أو أكثر فلا تجد فيها آية ولا حديثاً لكنك قد تجد في كل فقرة: قال الحكماء، أو قال المعلم الأول، أو قالت الفلاسفة ونحوها.

٢ـ موقفهم من السنة: موقف الأشاعرة من السنة خاصة أنه لا يثبت بها عقيدة بل المتواتر منها يجب تأويله. وآحادها لا يجب الاشتغال بها حتى

(١) نهج الأشاعرة في العقيدة ص ١٨، وانظر ابن الجوزي، المنتظم أحداث سنة ٤٣٣، ٤٦٩، ٤٧٥ ج٨، ج٩.

على سبيل التأويل. حتى إن إمامهم الرازي قطع بأن رواية الصحابة كلهم مظنونة بالنسبة لعدالتهم وحفظهم سواء، وأنه في الصحيحين أحاديث وضعها الزنادقة... الى آخر مالا أستجيز نقله وهو في كتابه «أساس التقديس» فمن شاء فليراجعه. ومن المعلوم أن من مذهب الأشاعرة ان في الصحيحين أحاديث موضوعة أدخلها الزنادقة.

٣ـ أما عن إثبات وجود الله فمعلوم أن مذهب السلف هو أن وجوده تعالى أمر فطري معلوم بالضرورة، والأدلة عليه في الكون والنفس والآثار والآفاق والوحي أجل من الحصر، ففي كل شيء له آية وعليه دليل.

أما الأشاعرة فعندهم دليل يتيم هو دليل الحدوث والقدم. وقد رتبوا عليه من الأصول الفاسدة مالا يدخل تحت العد مثل انكارهم لكثير من الصفات بشبهة نفي حلول الحوادث في القديم ونفي الجوهرية والعرضية والجهة والجسمية ... الى آخر المصطلحات البدعية التي جعلوا نفيها أصولاً وأنفقوا الأعمار والمداد في شرحها ونفيها، فوافقوا الفلاسفة حتى في الفاظهم.

٤ـ التوحيد: التوحيد عند أهل السنة والجماعة معروف بأقسامه الثلاثة وهو عندهم أول واجب على المكلف. أما الأشاعرة فالتوحيد عندهم هو نفي التثنية أو التعدد ونفي التبعيض والتركيب والتجزئة أي حسب تعبيرهم «نفي الكمية المتصلة والكمية المنفصلة». ومن هذا المعنى فسروا الأله بأنه الخالق أو القادر على الإختراع وأنكروا بعض الصفات كالوجه واليد والعين لأنها تدل على التركيب والأجزاء عندهم. أما التوحيد الحقيقي وما يقابله من الشرك ومعرفته والتحذير منه فلا ذكر لها في كتب عقيدتهم اطلاقاً ولا أدري أين يضعونه أفي كتب الفروع؟ فليس فيها أم يتركونه بالمرة فهذا الذي أجزم به.

أما أول واجب عند الأشاعرة فهو النظر أو القصد إلى النظر أو أول جزء

من النظر أو. . إلى آخر فلسفتهم المختلف فيها. وعندهم أن الإنسان إذا بلغ سن التكليف وجب عليه النظر ثم الإيمان واختلفوا فيمن مات قبل النظر أو في أثنائه. أيحكم له بالإسلام أم بالكفر؟!

وينكر الأشاعرة المعرفة الفطرية ويقولون إن من آمن بالله بغير طريق النظر فإنما هو مقلد. ورجحً بعضهم كفره واكتفى بعضهم بتعصيته، وهذا ما خالفهم فيه الحافظ ابنُ حجر رحمه الله ونقل أقوالاً كثيرة في الرد عليهم وان لازم قولهم تكفير العوام بل تكفير الصدر الأول[1].

٥ـ الإيمان: الأشاعرة في الإيمان مرجئة جهمية أجمعت كتبهم قاطبة على أن الإيمان هو التصديق القلبي، واختلفوا في النطق بالشهادتين أيكفي عنه تصديق القلب أم لا بد منه، قال صاحب الجوهرة:

وفسر الإيمان بالتصديـــق والنطق فيه الخلف بالتحقيق

وقد رجح الشيخ حسن أيوب من المعاصرين أن المصدق بقلبه ناجٍ عند الله وإن لم ينطق بهما، ومال إليه البوطي. فعلى كلامهم لا داعي لحرص النبي ﷺ أن يقول عمه أبو طالب لا إله إلا الله لأنه لا شك في تصديقه له بقلبه، وهو على مذهبهم من أهل الجنة!!

٦ـ التكفير: التكفير عند أهل السنة والجماعة حق لله تعالى لا يُطلق إلا على من يستحقه شرعاً ولا تردد في إطلاقه على من ثبت كفره بشروطه الشرعية.

أما الأشاعرة فهم مضطربون اضطراباً كبيراً، فتارة يقولون نحن لا نُكَفر أحداً وتارة يقولون نحن لا نُكَفِر إلا من كفَّرنا وتارة يُكفرون بأمور لا تستوجب

(١) وانظر لذلك نهاية الاقدام لشهرستاني ٩٠، وشرح الكبرى ٣٠٤، وكبرى اليقينيات ٩١ ـ ٩٣، «والله جل جلاله» لسعيد حوى. والانصاف للباقلاني، ٢٢ والارشاد، ٣ والمواقف ٣٢ ـ ٣٣ وأصول الدين للبغدادي ٢٥٤ ـ ٢٥٥.

أكثر من التفسيق أو التبديع وتارة يُكَفِّرون بأمور لا توجب مجرد التفسيق وتارة يُكَفِّرون بأمور هي نفسها شرعية ويجب على كل مسلم أن يعتقدها.

٧ـ السببية وأفعال المخلوقات: يُنكر الأشاعرة الربط العادي بإطلاق، وأن يكون شيء يؤثر في شيء وأنكروا كل باء سببية في القرآن، وكفَّروا وبدَّعوا من خالفهم، ومأخذهم فيها هو مأخذهم في القدر، فمثلاً عندهم: من قال إن النار تُحرق بطبعها أو هي علة الإحراق فهو كافر مشرك لأنه لا فاعل عندهم إلا الله مطلقاً حتى إن أحد نحاة الأندلس من دولة الموحدين التومرتية الأشعرية هدم نظرية العامل عند النحاة مدعياً أن الفاعل هو الله فلا ارتباط عندهم بين سبب ومسبب أصلاً وإنما المسألة كاقتران الزميلين من الأصدقاء في ذهابهما وإيابهما والغريب أن هذا هو مذهب ما يُسمى المدرسة الوضعية من المفكرين الغربيين المحدثين ومن وافقهم من ملاحدة العرب، وما ذاك إلا لأن الأشاعرة والوضعيين كلاهما ناقل عن الفكر الفلسفي الأغريقي(١).

٨ـ الحكمة الغائية: ينفي الأشاعرة قطعاً أن يكون لشيء من أفعال الله تعالى علة مشتملة على حكمة تقضي إيجاد ذلك الفعل أو عدمه ـ وهذا نص كلامهم تقريباً ـ وهو رد فعل لقول المعتزلة بالوجوب على الله حتى أنكر الأشاعرة كل لام تعليل في القرآن، وقالوا إن كونه يفعل شيئاً لعلة ينافي كونه مختاراً ومريداً، وهذا الأصل تسمية بعض كتبهم «نفي الغرض عن الله» ويعتبرونه من لوازم التنزيه، وجعلوا أفعاله تعالى كلها راجعة إلى محض المشيئة ولا تعلق لصفة أخرى ـ كالحكمة مثلاً ـ بها، ورتبوا على

---

(١) الانصاف ٤٥ ـ ٤٦ بهوامش الكوثري، الارشاد ١٨٧ ـ ٢٠٣، أصول الدين ١٣٣، نهاية الاقدام، ٧٧ المواقف: ٣١١، شرح الكبرى: ١٨٤، شرح ام البراهين ١١، ٨٠ ـ ٨١، متصوفة الدردير ٢٤٠. وعن المدرسة الوضعية انظر «المنطق الوضعي» زكي نجيب محمود فهو أحدهم.

هذا أصولاً فاسدة كقولهم بجواز أن يُخَلِّدَ اللهَ في النار أخلص أوليائه ويخلد في الجنة أفجر الكفار، وجواز التكليف بما لا يُطاق ونحوها.

وسبب هذا التأصيل الباطل عدم فهمهم ألا تعارض بين المشيئة والحكمة أو المشيئة والرحمة. ولهذا لم يُثبت الأشاعرة الحكمة مع الصفات السبع واكتفوا بإثبات الإرادة مع أن الحكمة تقتضي الإرادة والعلم وزيادة حتى أن من المعاصرين من أضافها مثل سعيد حوى.

٩ـ النبوات: يختلف مذهب الأشاعرة عن مذهب أهل السنة والجماعة في النبوات اختلافاً بعيداً، فهم يقررون أن إرسال الرسل راجع للمشيئة المحضة ـ كما في الفقرة السابقة ـ ثم يقررون أن لا دليل على صدق النبي إلا المعجزة، ثم يقررون أن أفعال السحرة والكهان من جنس المعجزة لكنها لا تكون مقرونة بادعاء النبوة والتحدي، قالوا: ولو ادعى الساحر أو الكاهن النبوة لسلبه الله معرفة السحر رأساً وإلا كان هذا إضلالاً من الله وهو يمتنع عليه الإضلال. . إلى آخر ما يقررونه مما يخالف المنقول والمعقول، ولضعف مذهبهم في النبوات مع كونها من أخطر أبواب العقيدة إذ كل أمورها متوقفة على ثبوت النبوة أغروا أعداء الإسلام بالنيل منه واستطال عليهم الفلاسفة والملاحدة.

والصوفي منهم كالغزالي يفسرون الوحي تفسيراً قرمطياً فيقولون هو انتقاش العلم الفائض من العقل الكلي في العقل الجزئي.

١٠ـ التأويل: أما التأويل فهو أصل منهجي من أصول الأشاعرة وليس خاصاً بمبحث الصفات بل يشمل أكثر نصوص الإيمان. والتأويل ضروري للأشاعرة، لأنه لما تعارضت عندهم الأصول العقلية التي قرروها مع النصوص الشرعية وقعوا في مأزق رد الكل أو أخذ الكل فوجدوا في التأويل مهرباً عقلياً ومخرجاً من التعارض الذي اختلقته أوهامهم ولهذا قال

الصابوني إننا مضطرون للتأويل وإلا أوقعنا القرآن في التناقض وإن الخلف لم يؤولـوا عن هوى ومكابرة وإنما عن حاجة وإضطرار؟ فأي تناقض في كتاب الله يا مسلمون نضطر معه إلى رد بعضه أو الإعتراف للأعداء بتناقضه؟

وقـد اعتـرف الصابوني بأن في مذهب الأشاعرة تأويلات غريبة فما المعيار الذي عرف به الغريب من غير الغريب؟

وهنا لا بد من زيادة التأكيد على أن مذهب السلف لا تأويل فيه لنص من النصوص الشرعية إطلاقاً ولا يوجد نص واحد ـ لا في الصفات ولا في غيرها ـ اضطر السلف إلى تأويله ولله الحمد.

وإن تعجب فاعجب لهذه اللفظة النابية التي يستعملها الأشاعرة مع النصوص وهي أنها «توهم» التشبيه، فهل في كتاب الله إيهام أم أن العقول الكاسدة تتوهم والعقيدة ليست مجال توهم.

فالعيب ليس في ظواهر النصوص ـ عياذاً بالله ـ ولكنه في الأفهام ـ بل الأوهام ـ السقيمة. أما دعوى أن الإمام أحمد استثنى ثلاثة أحاديث وقال لا بد من تأويلها فهي فرية عليه افتراها الغزالي (في الإحياء وفيصل التفرقة) ونفاها شيخ الإسلام سنداً ومتناً.

وحسب الأشاعرة في باب التأويل ما فتحوه على الإسلام من شرور بسببه فإنهم لما أوّلوا ما أوّلوا تبعتهم الباطنية واحتجت عليهم في تأويل الحلال والحرام والحشر والحساب، وما من حجة يحتج بها الأشاعرة عليهم في الأحكام والآخرة إلا احتج الباطنية عليهم بمثلها أو أقوى منها من واقع تأويلهم للصفات. وإلا فلماذا يكون تأويل الأشاعرة لعلو الله ـ الذي تقطع به العقول والفطر والشرائع ـ تنزيها وتوحيداً وتأويل الباطنية للبعث والحشر والصلاة والصوم كفراً وردة!؟

١١ـ التحسين والتقبيح : ينكر الأشاعرة أن يكون للعقل والفطرة أي دور في الحكم على الأشياء بالحسن والقبح ويقولون مرد ذلك إلى الشرع وحده، وهذا رد فعل مغالٍ لقول البراهمة والمعتزلة أن العقل يوجب حسن الحسن وقبح القبيح، وهو مع منافاته للنصوص مكابرة للعقول. ومما يترتب عليه من الأصول الفاسدة قولهم إن الشرع قد يأتي بما هو قبيح في العقل. فإلغاء دور العقل بالمرة أسلم من نسبة القبح إلى الشرع ومثَّلوا لذلك بذبح الحيوان فإنه إيلام له بلا ذنب وهو قبيح في العقل ومع ذلك أباحه الشرع، وهذا في الحقيقة هو قول البراهمة الذين يحرمون أكل الحيوان. فلما عجز هؤلاء عن رد شبهتهم ووافقوهم عليها أنكروا حكم العقل من أصله وتوهموا أنهم بهذا يدافعون عن الإسلام. كما أن من أسباب ذلك مناقضة أصل من قال بوجوب الثواب والعقاب على الله بحكم العقل ومقتضاه[1].

١٢ـ صفات الله تعالى: أثبت الأشاعرة لله تعالى سبع صفات ونفوا الصفات الأخرى الثابتة له في الكتاب والسنة. وقالوا إن لله سبع صفات عقلية يسمونها «معنوية» وهي: كونه حياً وكونه عالماً وكونه قادراً وكونه مريداً وكونه سميعاً، وكونه بصيراً وكونه متكلماً. ثم لم يأتوا في التفريق بين المعاني والمعنوية بما يستسيغه عقل، بل غاية ما قالوا إن هذه الأخيرة أحوال فإذا سألتهم ما الحال؟ قالوا صفة لا معدومة ولا موجودة!![2].

١٣ـ أما بخصوص القدر فقد أراد الأشاعرة أن يُوفقوا بين الجبرية والقدرية، فجاؤا بنظرية الكسب وهي في مآلها جبرية خالصة لأنها تنفي أي قدرة أو تأثير للعبد.

والإرادة عند الأشاعرة لها معنى واحد هو المحبة والرضا. وأوَّلوا قوله

---

(١) نهاية الاقدام ٣٧٠، المواقف ٣٢٣، شرح الكبرى ٤٢٩، غاية المرام، ٢٣٤

(٢) كما زعم الأشاعرة أن الصفات الاختيارية كالخلق والرزق لم يكن الله متصفاً بها وإنما اتصف بها بعد خلق الخلق.

تعالىٰ ﴿ولا يرضى لعباده الكفر﴾ بأنه لا يرضاه لعباده المؤمنين! فبقي السؤال وارداً عليهم: وهل رضيه للكفار أم فعلوه وهو لم يُرِدْه؟

ومن هذا القبيل كلامهم في الاستطاعة، والحاصل أنهم في هذا الباب خرجوا عن المنقول والمعقول ولم يُعربوا عن مذهبهم فضلاً عن البرهنة عليه!!(1)

١٤ـ رؤية الله تعالى: وقع الأشاعرة في تناقض حينما اثبتوا الرؤية لله تعالى ونفوا صفة العلو فناقضوا أنفسهم حينما أثبتوا الرؤية ونفوا علو الله. وقد أوَّلوا علو الله الذي ورد في نصوص الكتاب والسنة بالقهر والغلبة ومنهم من قال استوى بمعنى استولى.

١٥ـ فرَّق الأشاعرة بين معنى القرآن ولفظه، فالكلام الذي يثبتونه لله تعالى هو معنى أزلي أبدي قائم بالنفس ليس بحرف ولا صوت ولا يوصف بالخبر ولا الإنشاء. أما الكتب المنزلة ذات الترتيب والنظم والحروف ـ ومنها القرآن ـ فليست هي كلامه تعالى على الحقيقة بل هي عبارة عن كلام الله النفسي. والكلام النفسي شيء واحد في ذاته، وهكذا فإنَّ التوراة والإنجيل والقرآن كلها مخلوقة، ووصفها بأنها كلام الله مجاز لأنها تعبير عنه فقط.

وأخيراً فإن الأشاعرة قد وصفوا آنفاً بما هم فيه فعلاً دون أية مبالغة. ولا أنسى أن أذكر القارىء بحقيقتين هما:

١ـ ليس هناك أدق ولا أصدق من رجال الجرح والتعديل، وهؤلاء ترجموا لأئمة الأشاعرة في كتبهم. وعلى سبيل المثال يكفي القارىء أن يُراجع ترجمة أئمة الأشاعرة كالفخر الرازي والآمدي في «الميزان» للحافظ الذهبي و «لسان الميزان» لابن حجر العسقلاني رحمها الله.

---

(1) الانصاف ٤٥، الارشاد ١٨٧ ـ ٢٠٣، أصول الدين ١٣٣.

٢ـ الحقيقة الثانية أثبتها علماء الأشعرية الكبار بأنفسهم ـ كالجويني وابنه أبي المعالي والرازي والغزالي وغيرهم، وهي حقيقة إعلان حيرتهم وتوبتهم ورجوعهم إلى مذهب السلف، وكتب الأشعرية المتعصبة مثل طبقات الشافعية أوردت ذلك في تراجمهم أو بعضه، فما دلالة ذلك؟ إذا كانوا من أصلهم على عقيدة أهل السنة والجماعة فعن أي شيء رجعوا؟ ولماذا رجعوا؟ وإلى أي عقيدة رجعوا؟؟ بل إن ابا الحسن الأشعري نفسه رجع عن عقيدته إلى عقيدة أهل السنة والجماعة في أواخر حياته فلم يكن في آخر كتبه «الإبانة» أشعرياً.

إنصــاف التصـــوف

أصل مصطلح التصوف:

ليس صحيحاً أن التصوف مشتق من الصُّفَّة حيث كان يجتمع فقراء المهاجرين، لأن النسبة إلى الصُّفَّة «صُفي» لا «صوفي». وكذلك لا يستقيم القول إن الاشتقاق جاء من صفاء النفس. وأكثر الآراء صحة رأيان:

١ـ إن المصطلح مشتق من الصوف، فقد كان لبسه قبل الإسلام معروفاً بين من ينقطع عن الدنيا للعبادة من الرهبان النصارىٰ والأحبار اليهود.

٢ـ انه مشتق من الكلمة اليونانية (صوفيا) وتعني الحكمة. قال بذلك ابو الريحاني البيروني (المتوفى ٤٤٠هـ) وكثير من العلماء المعاصرين مسلمين وغير مسلمين.

معنى التصوف وحدوده:

ينبغي أن يُفهم جيداً أن التصوف لا يعني الزهد في الدنيا أو تزكية النفس وتصفيتها، وإنما هو فلسفة كاملة شاملة وعقيدة لها معالمها الخاصة بها. ولم يكن المتصوفة المسلمون هم أول من ابتدعوا التصوف واخترعوه، بل هو فكرة فلسفية قديمة جداً، كان لها اتباعها في اليونان والهند والصين وفارس. وكان في البوذية والهندوسية واليهودية والنصرانية متصوفتها الخاصة بها. ولم يوجد التصوف بين المسلمين إلا بعد ترجمة كتب الفرس واليونان والهنود إلى العربية. والدارس لعقائد الصوفية يجد لها أصلاً في الديانات السماوية والوضعية الأخرى. فوحدة الوجود عند المتصوفة مستمدة من

الهندوسية، والحلول والفناء في ذات الله مستمد من النصرانية التي تؤمن بحلول ذات عيسى البشرية بالذات الإلهية. وكذلك عقيدة الحقيقة المحمدية مأخوذة من تصور مشابه للنصرانية حول عيسى ومكانته في الدنيا. واستمع إلى شيخ الصوفية الأكبر يتكلم عن التثليث كلاماً مشابهاً للنصارى: «اعلم وفقك الله أن الأمر كله (يعني الخلق) مبني نفسه على الفردية ولها التثليث، فهي من الثلاثة فصاعداً. فالثلاثة أول الأفراد وعن الحضرة الالهية وجد العالم»[1]. وينشد مستعملاً نفس الألفاظ النصرانية (الاقنوم والتثليث):

تثلث محبوبي وقد كان واحداً   كما صير الأقنام بالذات أقنما

أما التفرقة بين الحقيقة والشريعة أو بين الظاهر والباطن، فقد أخذه المتصوفة عن الشيعة. وتأثروا بهم كذلك فيما يخص التأويل، وهو صرف النص إلى معنى بعيد الاحتمال اعتماداً على الخواطر، بحجة أن للقرآن ظاهراً وباطناً.

إن هذه الدراسة عن التصوف ستنير الطريق لطالبي الحق الباحثين عن الحقيقة. وهي إن شاء الله موضوعية وغير متحيزة، لأنني اعتمدت فيها المصادر الصوفية التي يَعُدها المتصوفة مراجع معتمدة عندهم، ومؤلفوها من شيوخ الصوفية الكبار منها: الفتوحات المكية وفصوص الحكم لشيخ الصوفية ابن عربي، والإنسان الكامل للجيلي، وتائية ابنْ الفارض، والطبقات الكبرى، والجواهر والكبريت الأحمر للشعراني، والابريز للدباغ، والجواهر والرماح لمشايخ التيجانية. واللمع وهي الموسوعة الصوفية الأولى لأبي نصر السراج الطوسي، والرسالة القشيرية للقشيري، وقوت القلوب لأبي طالب المكي.

---

(١) أول الفص الحادي عشر من «فصوص الحكم» لابن عربي.

إن هذه الدراسة ستثبت أن مشكلة الفكر الصوفي من اخطر المشاكل التي تهدد مستقبل الأمة، لأنها مشكلة عقدية وسيتضح للجميع أن التصوف ليس كما يظن كثيرون من أنه لا يتعدى الزهد وتزكية النفس، بل إن الأمر أكبر من هذا بكثير. وليس لصوفي يطالع هذا البحث أن يعترض، فهذه أقوال مشايخكم وعلمائكم. وإن كان هذا ليس هو التصوف الذي تؤمنون به فما عليكم إلا التبرؤ ظاهراً وباطناً أمام الله وأمام الناس من هؤلاء جميعاً: ابن عربي وعبد الغني النابلسي والشعراني والحلاج وأبي طالب المكي والقشيري والتيجاني وابي يزيد البسطامي وأبي حامد الغزالي وبقية مشايخ الصوفية الذين سنستشهد بأقوالهم من مؤلفاتهم.

لقد قامت هذه الدراسة من أولها إلى آخرها على أهم المصادر المعترف بها لدى المتصوفة التي ألفها كبار علماء التصوف وشيوخه، فليس لأحد بعد هذا أن يشكك في دقة الدراسة وموضوعية الباحث.

أما الشخصيات الصوفية المُسْتَشْهد بأقوالهم في هذه الدراسة فهم سادات الصوفية وكبار مشايخ التصوف وأقطابه: الشيخ الأكبر محيي الدين محمد بن علي المعروف بابن عربي، وعبد الكريم بن هوازن القشيري، وأبو محمد عبد الوهاب بن أحمد الشعراني، وأبو طالب محمد بن علي المكي، والشيخ عبد الغني بن إسماعيل النابلسي، وأحمد بن عجيبة الحسني، وأحمد التيجاني، وأبو يزيد البسطامي، والدباغ، وعبد الكريم الجيلي، وأبو حامد الغزالي وغيرهم. فهل لصوفي بعد الآن أن يتهمني بالتجني؟!!!

وأما موضوعات هذا البحث المختصر فهي: معنى التصوف وحدوده، وحدة الوجود، الحلول والفناء، وحدة الأديان، التصرف في الكون وتدبير المتصوفة له، علوم المتصوفة، الحقيقة المحمدية، تقديس المشايخ، أدب الصوفية مع الله ورسوله، الغناء والرقص، الصوفية والمردان، كرامات

الصوفية، أبو حامد الغزالي، دفاع المتصوفة عن أنفسهم ودحض دفاعهم.

وحيث كانت مراجع هذه الدراسة هي أهم المراجع المعتمدة لدى المتصوفة أنفسهم، وحيث كانت الشخصيات المستشهد بأقوالهم هم كبار مشايخ التصوف وعلماؤه، فقد عنونت هذا الفصل بـ «إنصاف التصوف».

١ـ وحدة الوجود:

يعتقد المتصوفة أنه ليس هناك موجود إلا الله، وما هذه المخلوقات إلا مظاهر لحقيقة واحدة هي الحقيقة الالهية. فالمخلوقات جميعها صفات لله تعددت لتعرب عن الصفات الكثيرة له، فلا فرق ولا مغايرة بين الخالق والخلق، وهذا ابن عربي شيخ الصوفية يقول:

أ ـ لا تراقب فليس في الكون إلا ... واحد العين فهو عين الوجود
ويُسمى في حالة بالإله ... ويكنى في حالةٍ بالعبيد[1]

ب ـ فوقتاً يكون العبد رباً بلا شك ... ووقتاً يكون العبد عبداً بلا افك
فإن كان عبداً كان بالحق واسعاً ... وإن كان رباً كان في عيشة ضنك[2]

جـ ـ «ألا ترى الحق يظهر بصفات المحدثات، وأخبر بذلك عن نفسه، وبصفات النقص وبصفات الذم، ألا ترى المخلوق يظهر بصفات الحق من أولها إلى أخرها، وكلها حق له كما هي صفات المحدثات حق للحق»[3] وأنشد:

الرب حق والعبد حق ... يا ليت شعري من المكلف؟
إن قلت عبدٌ فذاك حق ... أو قلت رب أني يُكلف[4]

(١) الفتوحات المكية، ١٢٩.
(٢) الفصوص، ٨٤.
(٣) المصدر السابق، ٨٠.
(٤) الفتوحات المكية (١/٢).

د ـ وعن صور ومظاهر الكون يقول ابن عربي «هي ظاهر الحق إذ هو الظاهر وهو باطنها، إذ هو الباطن»[1].

هـ ـ ويزيد ابن عربي الأمر جلاءً بقوله: «والعارف المكمَّل من رأى كل معبود مَجْلى للحق يعبد فيه، ولذلك سموه كلهم إلهاً مع اسمه الخاص بحجر أو شجر أو حيوان أو إنسان أو كوكب أو ملك»[2].

أما الشيخ عبد الكريم الجيلي فيقول: «إن الحق تعالى من حيث ذاته يقتضي ألا يظهر في شيء إلا ويُعبد ذلك الشيء وقد ظهر في ذرات الوجود»[3].

أما ابن الفارض شاعر الصوفية فيؤكد أنه هو الله، فإن دُعي الله أجاب ابنُ الفارض وإن دعي ابن الفارض أجاب الله:

فإن دُعِيتْ كنتُ المجيبَ، وإن أكُن   منادى أجبت من دعاني ولبَّيت

ويقول محمد بهاء الدين البيطار:

وما الكلب والخنزير إلا إلهنا   وما الله إلا راهب في كنيسة[4]

وإذا كان أهل التوحيد يقولون:

وفي كل شيء له آية   تدل على أنه واحد

فإن أصحاب وحدة الوجود من الصوفية ينشدون:

وفي كل شيء له آية   تدل على أنه عينه

---

(١) الفصوص (١/١٩٥).

(٢) اللمع، ٤٦١.

(٣) «الإنسان الكامل» لعبد الكريم الجيلي نفسه، الجزء الأول ٢٧ ـ ٣٧.

(٤) صوفيات، ٢٧.

٢ـ الحلول والفناء:

والمراد به الفناء في ذات الله تعالى واضمحلال الذات البشرية بالذات الالهية. وهو عقيدة ذات اصل هندوسي ونصراني وكان أول من نادى بها من المتصوفة الحسين بن منصور الحلاج، الذي لقبه الصوفية بشهيد العشق الإلهي. وقد أجمع علماء مصر على إباحة دمه، وأول من قال أنه حلال الدم أبو عمرو القاضي.

والفناء في ذات الله غاية الغايات عند معظم المتصوفة. وفي حين أن الأمة اجمعت على تقسيم التوحيد إلى ثلاث مراتب: توحيد الربوبية وهو الاعتقاد بأن الله خالق كل شيء، وتوحيد الالوهية وهو إفراد الله وحده بالعبادة دون غيره، وتوحيد الاسماء والصفات وهو اثبات اسماء الله وصفاته من غير تعطيل أو تأويل أو تمثيل أو تكييف، فإن الصوفية قد شذوا وخالفوا، فهم يرون، بناءً على اعتقادهم بالحلول والفناء، أن التوحيد نوعان: توحيد العامة، ويقصدون به توحيد الالوهية (وهو التوحيد الذي بُعثت الرسلُ من أجله)، وتوحيد الخاصة: وهو الذي ينتهي بصاحبه إلى الفناء والحلول في الله. وإليك أقوال مشايخهم بهذا الخصوص:

أ ـ يصف الحسين الحلاج روحه والروح الالهي في حالة مزج تام حيث يقول:

مُزجت روحك في روحي كما ... تُمزج الخمرة بالماء الزلال
فإذا مسَّك شيء مسني ... فإذا أنت أنا في كل حال[1]

أو اتحاد تام حيث يقول:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا ... نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتني أبصرته ... وإذا أبصرته أبصرتنا[2]

(١) الطواسين، ١٣٤ ـ ١٣٥.

(٢) المصدر السابق، ١٦٥، ١٧٥.

ب ـ ويتضرع عبد السلام بن مشيش من كبار شيوخ الشاذلية إلى الله فيقول «اللهم انشلني من أوحال التوحيد وأغرقني في عين الوحدة حتى لا أرى ولا اسمع ولا أجد ولا أحس إلا بها»[1] ويقصد بالتوحيد توحيد الالوهية، وبالوحدة الفناء في الله.

جـ ـ أما ابن الفارض فيعتقد أن الله قد حلَّ بكثير من خلقه ومنهم عدد من النساء:

ففي النشأة الأولى تراءت لآدم ... بمظهر حوا قبل حكم الأمومة
فهام بها كيما يكون بها أبا ... ويظهر بالزوجين حكم النبوة
وما برحت تبدو وتخفى لعلة ... على حسب الأوقات في كل حقبة
وتظهر للعشاق في كل مظهر ... من اللبس في أشكال حسن بديعة
ففي مرة لبنى وأخرى بثينة ... وآونة تدعى بعزة ـ عزت
ولسن سواها لا ولاكن غيرها ... وما ان لها في حسنها من شريكة

ففي البيت الأخير يؤكد أن حقيقة لبنى وبثينة وعزة لا تغاير الحقيقة الالهية في أي شيء على الإطلاق. أما ابن عربي فيذهب إلى أبعد من ذلك: «ان الحق غيور على عبده أن يعتقد أنه يلتذ بغيره فإذا شاهد الرجلُ الحق (أي الذات الالهية) في المرأة، فشهوده للحق في المرأة اتم وأكمل لأنه يشاهد الحق من حيث هو فاعل منفعل، فلهذا أحب ﷺ النساء لكمال شهود الحق فيهن. ذلك أن شهود الحق فيهن اعظم الشهود وأكمله وأعظم الوصلة النكاح»[2] وهكذا يعتقد ابن عربي أن علة حب الرسول ﷺ للنساء هي اعتقاده انهن الله في أجمل صور تجلياته ورغبته في التلذذ الجسدي بربه!!!

---

(١) الإنسان الكامل (١/ ٣٠).

(٢) فصوص الحكم (١/ ٢١٧).

د ـ ويشرح ابو يزيد البسطامي من أعلام التصوف في القرن الثالث الهجري كيفية حلول الله فيه فيقول: «رفعني الله مرة حتى قُمتُ بين يديه فقال لي يا أبا يزيد: إن خلقي يحبون ان يروك. قلت: يا عزيزي وأنا أحب، إن كانوا يحبون أن يروني وأنت تريد ذلك فقربني بوحدانيتك، وألبسني ربانيتك، وارفعني إلى أحديتك، حتى إذا رآني خلقك قالوا: رأيناك فيكون أنت ذاك ولا أكون أنا هناك ففعل بي ذلك»[1]. وكان أبو يزيد هذا يقول: أنا اللهوسبحاني[2] وطرق طارق بابه فقال: من تطلب؟ فقال: أبا يزيد، فأجابه: ما في البيت غير الله[3].

٣ـ المتصوفة ووحدة الأديان:

ثمة اعتقاد صوفي مفاده أن جميع الأديان حق، ومثل هذا الاعتقاد نتيجة طبيعية وتلقائية لعقيدة وحدة الوجود آنفة الذكر. فالكفر والإيمان والشرك والتوحيد اسماء لحقيقة واحدة، ومترادفات لها مدلول واحد، فلا فرق بين دين سماوي وآخر وضعي، فمُنزِّل السماوي هو الله، وواضع الوضعي هو الله أيضاً باعتباره متجسداً في صورة بشرية. وإليك الأدلة من أقوال كبار علماء التصوف:

أ ـ ابن عربي: يرى ان قوم نوح كانوا مؤمنين وكذلك قوم هود. أما فرعون مُدعي الربوبية فيقول عنه ابن عربي: «فقبضه الله عند الغرق طاهراً مطهراً ليس فيه شيء من الخبث ونجاه الله من عذاب الآخرة»[4]. واقرأ بقية ما كتبه في «الفص الموسوي» في كتابه «الفصوص» من تفضيله فرعون على موسى. وعند حديثه عن عبادة بني إسرائيل للعجل يؤكد ابن عربي أنهم

---

(١) الإنسان الكامل، (١/٣٨) والفتوحات المكية (١/٣٥٤).

(٢) الإنسان الكامل (٢/٨٣).

(٣) انظر ترجمة البسطامي في «الكواكب الدرية» للمناوي.

(٤) فصوص الحكم، ٢٠١، ٢١٢.

عندئذ ما عبدوا إلا الله، مدعماً قوله هذا بحجة هي «فإن العارف من يرى الحق في كل شيء، بل يراه عين كل شيء»[1]. وكذلك قوم نوح فإن الأصنام التي عبدوها لم تكن إلا مظاهر لله الواحد. ويحتج على هذا الزعم بقوله: «فإن للحق من كل معبود وجهاً يعرفه من يعرفه، ويجهله من يجهله، فما عُبد غيرُ الله في كل معبود»[2]

ب ـ ويقول ابن الفارض في تائيته الكبرى:

فبي مجلسُ الأذكار سَمْعُ مُطالعٍ	ولي حانَـةُ الخمـار عينُ طليعـة
ومـا عقد الزُّنَّار حُكماً سوى يدى	وإن حُلَّ بالإقرار بي، فَهيِ حَلَّتِ
وإن نار بالتنـزيل محـرابُ مسجد	فمـا بار بالإنجيل هيكـلُ بيعـةِ
وأسـفـار توراة الـكليم لقـومـه	يناجي بهـا الأحبـارُ في كل ليلة

والزنار هو العلامة المميزة لأهل الذمة، والبيعة هي معبد النصارى.

جـ ـ ويفسر عبد الكريم الجيلي في كتابه «الانسان الكامل» لا إله إلا الله فيقول: «يعني الالهة المعبودة ليست إلا أنا، فأنا الظاهر في تلك الأوثان وفي كل ما يعبده أهل كل ملة ونحلة، فما تلك الالهة كلها إلا أنا، ولهذا اثبت لهم لفظ الالهـة وتسميته لهم بهذا اللفظ من جهة ما هم عليه من الحقيقة تسمية حقيقية لا مجازية. فقد أراد ان يُبين لهم أن حكم الالوهية في تلك الالهة حقيقية. وأنهم ما عبدوا في جميع ذلك إلا هو، فقال: لا إله إلا أنا، أي ما ثَمَّ من يُطلَق عليه اسم الأله إلا وهو أنا. لا إله إلا أنا أي ما ثَمَّ إلا أنا، وكل ما اطلقوا عليه اسم الاله فهو أنا»[3]

ويؤكد الجيلي وهو الصوفي الكبير أن إبليس لم يعص الله أبداً، فيقول

---

(١) فصوص الحكم، ١٩٢.

(٢) المصدر السابق، ٧٢.

(٣) الإنسان الكامل (١/ ٦٩).

معلقاً على رفض إبليس السجود لآدم «وجواب إبليس هذا يدل على أن إبليس من أعلم الخلق بآداب الحضرة الالهية وأعرفهم بالسؤال، وما يقتضيه من الجواب»[1] واقرأ بقية اعجابه بابليس وتقديسه له في كتابه «الإنسان الكامل» الجزء الثاني. ومن شعره الذي يؤكد فيه وحدة الأديان قوله:

وأسلمتُ نفسي حيث أسلمني الهوى
ومالي عن حكم الحبيب تنازع
فَطَوراً تراني في المساجد راكعاً
وإني طوراً في الكنائس راتع
إذا كنتُ في حكم الشريعة عاصياً
فإني في علم الحقيقة طائع

د ـ أما الشيخ عبد الغني النابلسي فيرى أن الله ورسوله والمؤمنين والشياطين والحق والباطل كله واحد، وانظر لذلك كتابه «الفتح الرباني» الصفحات (٤٩ ـ ٥٨).

٤ـ المتصوفة والتصرف في الكون:

يعتقد المتصوفة أنهم يملكون التصرف في الكون وأنَّ لهم وحدهم كلمة التكوين: «فأولياء الصوفية لهم التصرف العام والحكم الشامل العام في جميع المملكة الالهية»[2] والولي الذي يستخلفه الله هو خليفة يُمَلِّكُه الله كلمةَ التكوين فمتى قال للشيء كن، كان من حينه»[3]. أما الربوبية العظمى فهي لعبد الكريم الجيلي:

---

(١) المصدر السابق (٢/٤٢).
(٢) جواهر المعاني (٢/٧٩).
(٣) المصدر السابق (٢/٨).

لي الـملك في الـدارين، لم أر فيهمـا
سواي، فأرجـو فضـله، أو فأخـشـاه
وقـد حزتُ أنـواع الـكـمـال، وإنـني
جمـالُ جلالِ الكـل، مـا أنـا إلا هو[1]

أمـا أبو السعود فيقول: «إن الله أعطاني التصرف منذ خمس عشرة سنة، وتركناه تظرفاً». ويعلق ابن عربي على هذا فيقول: «وأما نحن فما تركناه تظرفاً وإنما تركناه لكمال المعرفة»[2]

وقـد ادعى التصـرف في الجنـة والنـار كثير من الصوفية منهم شيخ التيجانية الأول الشيخ أحمد التيجاني: «اخبرني سيد الوجد يقظة لا مناماً: كل من أحسن إليك بخدمة أو غيرها، وكل من اطعمك يدخلون الجنة بلا حساب ولا عقاب»[3]. أما الدسوقي فهذا نص كلامه: «أنا بيدي أبواب النار اغلقها، وبيدي جنة الفردوس افتحها، من زارني اسكنته جنة الفردوس»[4]

والديوان الصوفي (وهو ديوان باطني، يتكون من القطب الأكبر وشيوخ صوفية آخرين هم أقطاب صغار) هو الذي يُصَّرف اقدار الوجود. وهناك محكمة عليا يُحاكم فيها الأقطاب اقدار الله دون أن تستطيع القدرة الالهية نسخ أحكامها: «والديوان يكون بغار حراء وأهل الديوان إذا اجتمعوا فيه، اتفقوا على ما يكون من ذلك الوقت إلى مثله من الغد، فهم يتكلمون في قضاء الله تعالى في اليوم المستقبل والليلة التي تليه، ولهم التصرف في العوالم كلها السفلية، والعلوية، وحتى في الحجب السبعين، فهم الذين

---

(١) الإنسـان الكامل للجيلي (١/٢٣)، والنفحات الأقدسية، ١٦.

(٢) فصوص الحكم (١/١٢٩).

(٣) جواهر المعاني في فيض التيجاني (١/٩٧).

(٤) انظر لذلك ترجمة الدسوقي في «الطبقات الكبرى» للشعراني.

يتصرفون فيه، وفي أهله، وفي خواطرهم، وما تهجس به ضمائرهم، فلا يهجس في خاطر واحد منهم شيء إلا بإذن أهل التصرف»[1].

٥- علوم المتصوفة:

في حين يعتقد المسلمون أن العلم بالشريعة قد تلقته الأمة من رسولها ﷺ الذي تلقاه من الوحي وتناقلته الأجيال بالتعليم والتعلم، فإن الصوفية يؤمنون بأن العلم إنما يُتلقى بالكشف وأنه يُحصَّل بالمجاهدة والرياضات الروحية والبدنية. لذا كان تعلم العلوم الشرعية عندهم ادنى مرتبة من علم التصوف. بل العلم الشرعي مشغلة عن علم التصوف النافع. ويُسمون علوم الشريعة علوم الظاهر، وعلماء الشريعة علماء الرسوم. أما التصوف فإنه علم الباطن أو علم الحقيقة. وقد نفَّر الصوفية من العلوم الشرعية وحاولوا هدمها وبخاصة الاسناد في الحديث، فصحَّحوا ما شاؤوا من الأحاديث الضعيفة وضعَّفوا ما شاؤوا من الأحاديث الصحيحة[2] معلنين أن العلم إنما يُتلقى مباشرةً من الله:

أ - يقول أبو يزيد البسطامي مخاطباً علماء المسلمين: «أخذتم علمكم ميتاً عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت، يقول أمثالنا: حدثني قلبي عن ربي، وأنتم تقولون: حدثني فلان، وأين هو؟ قالوا مات، عن فلان، وأين هو؟ قالوا: مات»[3].

ب - ويقول ابن عربي: «ورب حديث يكون صحيحاً من طريق رواته

---

(١) الابريز (٢/٨).

(٢) وقد تكلم راداً على تصحيح الأحاديث عن طريق الكشف الشيخ عبد الفتاح أبو غدة في تعليقه على كتاب علي القاري «المصنوع في معرفة الحديث الموضوع» بيروت، ١٩٨٤، والصفحات ٢١٥ - ٢١٨ و ٢٧٣ حيث فند حجج القائلين بـ «التصحيح الكشفي» و «التضعيف الكشفي».

(٣) الفتوحات المكية (١/٣٦٥).

حصل لهذا المكاشف الذي عاين هذا المظهر فسأل النبي ﷺ عن هذا الحديث الصحيح فانكره وقال له: لم أقله ولا حكمت به فيعلم ضعفه فيترك العمل به على بينة من ربه وإن كان قد عمل به أهل النقل لصحة طريقه وهو في نفس الأمر ليس كذلك»[1]. ويؤكد ابن عربي أن كتاباً له كاملاً وحي من رسول الله، فيقول في مطلع كتابه «فصوص الحكم» المليء بالكفر الصراح والذي يتدارسه المتصوفة: «أما بعد فإني رأيت رسول الله ﷺ بدمشق، وبيده كتاب فقال لي: هذا كتاب فصوص الحكم خذه واخرج به إلى الناس ينتفعون به، فقلت السمع والطاعة لله ولرسوله فأخرجت الكتاب كما حدَّه لي الرسول ﷺ من غير زيادة ولا نقصان»[2].

جـ ـ أما الشيخ عبد الغني النابلس فيقول: «فكل من اشتغل بالعلوم الظاهرة ولم يعتقد أن ما وراء ما هو ساعٍ في تعلمه حقائق وعلوماً باطنة فهو غافل عن الله تعالى»[3]. ويخبرنا أنه تلقى كتابه «الفتح الرباني» مباشرة من الله فيقول: «وأنا اتكلم لك الآن في ذلك بحسب الوارد ترجمةً عن الالقاء الرحماني»[4].

د ـ أما الجنيد شيخ الصوفية في زمانه فيقول: «أحب للمبتدىء ألا يُشغل قلبه بهذه الثلاثة، وإلا تغيرت حاله: التكسب وطلب الحديث، والتزوج، وأحب للصوفي أن لا يقرأ ولا يكتب لأنه أجمع لهمه»[5]. ويقول أيضاً لا يبلغ الرجل عندنا مبلغ الرجال حتى يشهد فيه ألف صديق من علماء الرسوم (أي علماء الشريعة) بأنه زنديق، لأن أحوالهم وراء النقلْ والعقل»[6].

(١) المصدر السابق (١/١٩٥).
(٢) الفصوص، بتعليق د. أبو العلاء عفيفي، ٤٧.
(٣) الفتح الرباني والفيض الرحماني، ١٣٣.
(٤) من مقدمة «الفتح الرباني».
(٥) قوت القلوب (٣/١٣٥).
(٦) الأنوار القدسية على هامش الطبقات (١/٢٢).

هـ ـ ويعلن كبير الصوفية في القرن العشرين الشيخ عبد الحليم محمود ما يلي: «وابن سينا حينما أراد أن يحدد طريق البصيرة حتى يصير سر الإنسان مرآة مجلوة لم يحدده بقراءة وبحث وإنما حدده بإرادة ورياضة[1]. ويقول أيضاً: «فالأنبياء والأولياء إنما انكشف لهم الأمر وفاض على صدورهم النور لا بالتعليم والدراسة والكتابة للكتب بل بالزهد في الدنيا»[2]. أرأيت كيف جمع الأنبياء الذين يأتيهم الوحي مع الأولياء الذين لا يُوحى إليهم على صعيد واحد في مرتبة واحدة، ولم يذكر الوحي طريقاً لتعليم الأنبياء من قريب أو بعيد.

إن حملة كبار مشايخ الصوفية على علماء الشريعة حملة دون حدود وتتسم بالسخرية من العلماء بإتهامهم بالجهل وبوصفهم بالشكليات وعدم النفوذ إلى حقائق الأشياء ويطلقون عليهم «علماء الرسوم» وعلماء الظاهر إلى غير ذلك من القاب السخرية. واستمع إلى الشيخ الأكبر محي الدين ابن عربي يصف علماء الكتاب والسنة وهذه بعض أقواله:

أ ـ «ما خلق الله أشق ولا أشد من علماء الرسوم على أهل الله المختصين بخدمته، العارفين به من طريق الوهب الالهي الذي منحهم اسراره في خلقه وفهمهم معاني كتابه وإشارات خطابه. فهم لهذه الطائفة مثل الفراعنة للرسل»!![3].

ب ـ «لو كان علماء الرسوم ينصفون لا عتبروا بما في نفوسهم. إذا نظروا في الآية بالعين الظاهرة التي يسلمون بها فيما بينهم فيرون أنهم يتفاضلون في ذلك. ويعلو بعضهم في الكلام على معنى تلك الآية. ويقر القاصر بفضل غير القاصر وكلهم في مجرى واحد.

---

(١) عبد الحليم محمود، المرسي أبو العباس، ١٧.

(٢) المصدر السابق، ٢٤.

(٣) الفتوحات المكية (١/٣٦٣ ـ ٣٦٥).

ومع هذا الفضل المشهود لهم فيما بينهم في ذلك ينكرون على أهل الله إذا جاءوا بشيء مما يغمض عن ادراكهم وذلك لأنهم يعتقدون فيهم أنهم ليسوا بعلماء وأن العلم لا يحصل إلا بالتعلم المعتاد في العرف. وصدقوا فإن أصحابنا ما حصل لهم العلم إلا بالتعلم وهو الاعلام الرحماني الرباني»[1].

جـ - ويتهمهم بالغفلة عن الآخرة فيقول «فلما رأى أهل الله أن الله قد جعل الدولة في الحياة الدنيا لأهل الظاهر من علماء الرسوم وأعطاهم التحكم في الخلق بما يفتون به والحقهم بالذين يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون. وهم في افكارهم عن أهل الله يحسبون أنهم يحسنون صنعاً. سلم أهل الله لهم أحوالهم لأنهم علموا من أين تكلموا وصانوا عنهم أنفسهم بتسميتهم الحقائق إشارات. فإن علماء الرسوم لا ينكرون الإشارات[2].

٦- المتصوفة والحقيقة المحمدية:

محمد عبد الله ورسوله في نظر كثير من المتصوفة ليس بشراً رسولاً، وإنما هو قريب في منزلته للذات الإلهية في أسمى مراتبها، بل هو في نظر بعضهم الذات الالهية. وقد عُرف ذلك عندهم بالحقيقة المحمدية، وهي فكرة أتى بها غلاة المتصوفة لتشكيك المسلمين في دينهم. وقد اخذوها عن النصرانية المحرفة التي ادعت ما ادعته في عيسى عليه السلام من الوهية.

أ - يقول ابن عربي: «بدء الخلق الهباء. وأول موجود فيه الحقيقة المحمدية الرحمانية الموصوفة بالاستواء على العرش الرحماني وهو العرش

---

(١) الفتوحات المكية ١/٣٦٥.

(٢) المصدر السابق.

الالهي»[1] ويقول أيضاً: «مثل نوره كمشكاة فيها مصباح» فشبه بالمصباح، فلم يكن أقرب إليه قبولاً في ذلك الهباء إلا حقيقة محمدالمسماةبالعقل، فكان مبتدأ العالم بأسره وأول ظاهر في الوجود»[2] ويرى «أن رسول الله ﷺ اعطي القرآن مجملاً قبل جبريل من غير تفصيل»[3]، بل يذهب إلى أبعد من ذلك فيصف رسول الله بأنه: «الجامع بين العبودية والربوبية الشامل للإمكانية والوجوبية»[4].

ب ـ أما الدباغ فيقول: «اعلم أن أنوار المكونات كلها من عرش وفرش وسماوات وجنات. . . الخ وُجدت بعضاً من نور النبي، وأن مجموع نوره لو وضع على العرش لذاب»[5].

جـ ـ ويشهد عبد الكريم الجيلي: «أن رسول الله مهبط أنوار الجبروت، ومُنَّزل اسرار الملكوت، بجمع حقائق اللاهوت، هو الذي يستحق الأسماء الذاتية والصفات الالهية استحقاق الأصالة»[6]. ويقول الدمرداشي:«حقيقة الحقائق هي المرتبة الإنسانية الكمالية الالهية الجامعة لسائر المراتب كلها وهي المساة بحضرة الجمع وهي الحقيقة المحمدية»[7]. والدمرداشي بذلك يؤكد جمعه عليه السلام للصفة البشرية،والالهية معاً كما وصف النصارىٰ عيسى عليه السلام تماماً.

د ـ ويقول الكمشخانلي: «صورة الحق هو محمد لتحققه بالأحدية

(١، ٢) الفتوحات المكية، (١/١٥٢ ـ ١٥٤).

(٣) الكبريت الأحمر على هامش اليواقيت والجواهر، ٦.

(٤) مجموعة الأحزاب، ٢.

(٥) الابريز (٢/٨٤).

(٦) الإنسان الكامل، ١٠٢ ـ ١٠٤.

(٧) معرفة الحقائق، ٧.

(٨) جامع الأصول في الأولياء، ٩٢.

والـواحدية، فهو الجامع لجميع الاسماء، أو هو اسم الذات الالهية»[٨] ويقول الشيخ البيطار: «شأن محمد في جميع تصرفاته شأن الله فما في الـوجـود إلا محمـد، ولما كانت بشريته ﷺ نوراً محضاً، كانت فضلاته مقدسة طاهرة»[١]

٧ـ تقديس المشايخ عند الصوفية:

من الأسس التي يقوم عليها التصوف تقديس الأولياء والمشايخ. وقد أثبت الصـوفية لشيوخهم عصمـة كعصمـة الأنبياء فشابهوا بذلك الشيعة القائلين بعصمة أئمتهم. والشيخ في نظر المتصوفة واسطة بين الله وبين تلاميذه ومريديه، وهو أمين الالهام كما أن جبريل امين الوحي بل إن أهم ما يقتضيه الدخول في التصوف التسيلم وعدم الاعتراض، بان يستسلم الصوفي للشيخ المربي استسلام الميت إلى غاسله، وعليه أن يؤول أفعال شيخـه إن كان ظاهرها المعصية، واستمع إلى قول السـهروردي فالشيخ «يُنقي بذر الكلام عن ثوب الهوى ويُسلمه إلى الله ثم يقول فيكون كلامه بالحق من الحق. فالشيخ للمـريدين امين الالهـام كما أن جبريل امين الوحي، فكما لا يخطأ جبريل في الوحي لا يخطأ الشيخ في الالهام»[٢]. ويرى ابن عربي أن الدين كان ناقصاً لبنتين وأن محمداً أتى بواحدة وأتى خاتم الأولياء بالآخرى فكمُل الدين على يديه وهو يرى أن خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء لهذا السبب، ولسبب آخر هو أن خاتم الأنبياء يأخذ عن الله بواسـطة الملك، أمـا خاتم الأولياء فيأخـذ عن الله مبـاشـرة[٣]. والحكيم الترمذي يرى كذلك أن خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء، وأن الولاية أفضل من النبوة[٤]. وقد ادعى ختم الولاية صوفية كثيرون منهم

---

(١) النفحات الأقدسية، ٩ ـ ١٣.
(٢) عوارف المعارف على هامش إحياء علوم الدين (٢/ ٣٨)، (٤/ ٧٣).
(٣) فصوص الحكم (١/ ٦٣، ١٦٣).
(٤) مفتاح السـعادة لطاش كبرى زاده (٢/ ١٧٠).

ابن عربي واحمد التيجاني .

وعموماً فإن الصورة التي يضعها المتصوفة لمشايخهم وضرورة الاستسلام لهم عامة شاملة لا تكاد تخلو منها طريقة صوفية . وأول ما يفعله المشايخ مع الداخلين الجدد في التصوف ترويضهم على قبول السلطة المطلقة للشيخ . وقد سمعت مراراً عندما كنت صوفياً العبارات التالية : من لم يكن له شيخ فشيخه الشيطان، سلِّم تسلم، ويستمر هذا الترويض مدة طويلة حتى يألف الصوفي الخضوع المطلق لشيخه ويصبح ذلك جزءاً من نفسيته•يقول السهروردي : «طريقنا لا يصلح إلا لأقوام كُنست بأرواحهم المزابل»[1] .

٨ـ أدب الصوفية مع الله ورسوله :

يزعم الصوفية أن غايتهم تهذيب النفوس وتطهيرها . فإلى أي حد تنسجم هذه الدعوى مع أدبهم مع الله ورسوله ﷺ :

أـ إمام الصوفية الأكبر ابن عربي يصف الله بالفقر تماماً كما وصفه اليهود فيقول : «فوجودنا وجوده ونحن مفتقرون إليه من حيث وجودنا، وهو مفتقر إلينا من حيث ظهوره لنفسه وينشد :

فيحمدني وأحمده ويعبدني وأعبده»[2]

ب ـ وأبو طالب المكي صاحب المؤلفات الصوفية الشهيرة لا يرى شيئاً في ملك الله بما في ذلك العرش الكريم والجنة يستحق الثناء والاستحسان، فبعد أن أراه الله تعالى كل ملكه «ثم اوقفني بين يديه، فقال لي : سلني اي شيء رأيت حتى أهبه لك، فقلت : يا سيدي ما رأيت شيئاً استحسنه فأسألك إياه»[3] .

---

(١) عوارف المعارف على هامش الإحياء (١/٢٦٨).

(٢) الفصوص (١/٨٣). (٣) قوت القلوب، ١٠٣ .

جـ ـ ومع أنه صحَّ أن رسول الله ﷺ قال لأم سلمة (قولي اللهم إنك عفو تُحبُ العفو فاعفو عني)، فإن ابن عطاء الله السكندري يسخر من أسماء الله الحسنى فيقول «اسمه تعالى العفو يليق بأذكار العوام لأنه يصلحهم، واسمه «الغافر» يُلَقن لعوام التلاميذ. أما اسمه المتين فإنه ينفع أهل الاستهزاء بالدين»(١)

د ـ والولي في نظر الدباغ «إذا انكشفت عورته وإذا تكلم بألفاظ المجون والسفه لم تنفر الملائكة منه، لأنه إنما يفعله لغرض صحيح، فستر العورة لغيره من الناس وليس له»(٢).

هـ ـ وأما أبو يزيد البسطامي فيقسم بالله أنه أفضل من رسول الله ﷺ «تالله، أن لوائى أعظم من لواء محمد. . . . ولأن تراني مرة خير لك من أن ترى ربك ألف مرة»(٣). ويقول مخاطباً علماء الحديث النَبوي «أخذتم علمكم ميتاً عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت»(٤) ويقول: «خضنا بحراً وقف الأنبياء بساحله»(٥). وأبو يزيد هذا من أعلام التصوف المعتبرين عند المتصوفة.

و ـ وأقطاب الصوفية الثلاثة الذين يتصرفون في الكون في نظر الصوفية «يجلسون عند الوحي عرايا ويستمعون الوحي ويفهمون المراد منه»(٦).

٩ـ الغناء والرقص:

يُعَدُّ الغناءُ من المحرمات شرعاً بنصوص الكتاب والسنة لا شك في

---

(١) مفتاح الفلاح، ٢٣ ـ ٢٤.
(٢) الابريز للدباغ (٢/٤٣).
(٣) لطائف المنن، ١٢٥.
(٤) الكواكب الدرية للمناوي، ٢٤٦.
(٥) جواهر المعاني (٢/٦٣).
(٦) جامع الاصول في الأولياء، ١٣٣.

ذلك، وهو مع هذا من أهم مقومات ذكر الله عند المتصوفة ويسمونه بالسماع.

أ ـ فهذا الجنيد سيد الصوفية في زمانه يقول: «الرحمة تنزل على الصوفي في ثلاث مواضع: عند الأكل، وعند الكلام وعند السماع»[1].

ب ـ والسراج الطوسي في كتابه الشهير في التصوف «اللمع»: «وهؤلاء (يعني الصوفية) ربما يحضرون في هذه المواضع التي فيها السماع لأحوال شتى، وجهات مختلفة يجتمعون معهم من جهة مساعدة أخ من إخوانهم، وربما يحضرون لعلمهم وثباتهم وكبر عقولهم، حتي يعرفوهم ما لهم وما عليهم من شروط السماع وآدابه»[2].

جـ ـ ويذكر الدكتور زكي مبارك بأنه لاحظ في القاهرة أن مجالس الصوفية كانت تنقلب أحياناً إلى مجالس فنية فهي مجالس تعقد ظاهراً لذكر الله ولكن الغرض منها الغناء.

ويقول الكتور مبارك أيضاً: «كانت مجالس الذكر مدرسة لتخريج المغنيين! ففيها ظهرت تباشير النبوغ لعبده الحامولي ومحمد عثمان وسلامه حجازي ويوسف المينلاوي وسيد درويش. وفي القرى المصرية مئات من قراء الموالد في الأصل من اتباع الصوفية»[3].

وسيمر معنا فيما سيأتي حث الغزالي على السماع والغناء، الذي تُعد مزاولة المتصوفة له عند الذكر أمراً معروفاً لكل من خالطهم وحضر مجالسهم في أي بلد من البلاد. ومما تجدر الإشارة إليه أن الغناء جزء من عبادة اليهود، فقد جاء في المزمور التاسع والأربعين بعد المائة: «لِيَبتهج

---

(١) التعرف على مذهب أهل التصوف، ١٦١.

(٢) اللمع، ٣٦٧.

(٣) التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق (٢/٢٦٧).

بنــو صهيون بملكهــم لِيُسَبِّحُــوا اسـمــه برقص، بدف، وعــود، لِيُرَنِّموا. . . هَلِّلُوا يا، سَبِّحوا لله في قدسه، سبحوه برباب وعود، سبحوه بدف ورقص، سبحوه بأوتار ومزمار، سبحوه بصنوج الهتاف».

١٠- الصوفية والمردان:

الأمـرد هو الشـاب أو الغـلام الجميل. وقد عشق كثير من الصوفية المـردان. ومن مصطلحاتهم تكنيتهم للأمرد بقولهم «شاهد» أي أنه لحسن صورته شاهد على قدرة الله، أما لماذا عشقوا المردان فهذا سؤال ينبغي أن يُوجه إليهم.

أـ يقص علينا الشعراني في طبقاته سيرة الصوفي الشهير أبي خودة فيقول «وكان رضي الله عنه إذا رأى امرأة أو أمرداً راوده عن نفسه، وحسَّس على مقعدته سواء كان ابن أمير أو ابن وزير، ولو كان بحضرة والده أو غيره، ولا يلتفت إلى الناس»[1]. وفي ترجمة الصوفي الكبير علي وحيش: «وكان إذا رأى شيخ بلد أو غيره يُنزله من على الحمار يقول له: امسك رأسها حتى أفعـل فيهـا، فإن أبى شيخ البلد تسَّمر في الأرض لا يستطيع أن يمشي خطوة، والناس يمرون عليه»[2].

ب ـ والشبلي من أئمة التصوف يروي أنه «رأى إبليس في المنام فناداه، فقال له إبليس: ليس لي بكم حاجة، قد فرغت منكم. غير أن لي فيكم لطيفة، قال الشبلي: وما هي؟ قال صحبة الأحداث. قال الشبلي: وهذا شيء لا يكاد ينجو منه أحد من الصوفية»[3].

جـ ـ وقـد كان جزء كبير من أدب الشيخ عبد الغني النابلسي في الغزل

---

(١) الطبقات الكبرى (٢/١٢٢، ١٣٢).

(٢) المصدر السابق (٢/١٣٥).

(٣) المصدر السابق، ١٠٤.

بالمذكر وبخاصة الغلمان الأتراك، ومن اشعاره بهذا الخصوص:

بدا كبــدر على غصــن، فقــلت له:
الله أكبــر! ليس الـحـسـن في العــرب
بالله بالله يا طرفــي أجــلْ نظراً
كم تحـت كمــة ذا التــركي من عجب!
لم أنس ليلة وافــانــي على حذر
من الــرقـيب، وشـخص الـليل لم يغب

* * *

لو شاء ربــي أن يصــون عبــاده
ما كان يخــلق في الأنــام ملاحــاً

* * *

ومــا تركت الهــوى كلا، وكيف، وهــل
تخــفـى الـمــلاحــة في أولاد أتــراك؟
وجــه مليح وشــعــر أســود جعــد
واحــيرتــي بين أضــواء وأحــلاك

* * *

قام يســعــى بهــا، فطاف بقــلبــي
طائــف الــشــوق سبــعــة ثم حيا
من بين التــرك أحــور الــطرف أحــوى
في هواه تركــت سلمــى ومــيا[1]

د ـ ويوسف بن الحسن الـرازي الصوفي يشهد هو أيضاً بذلك فيقول: «نـظرت في آفـات الخلق، فعرفت من أين أُتوا، ورأيت آفة الصوفية في صحبة الأحداث، ومعاشرة الأضداد، وأرفاق النسوان». وإنه ليعترف بعدها

(١) الفتح الرباني، ٢٧.

بما يدينه بتلك الخطايا فيقول: «كل ما رأيتموني أفعله فافعلوه إلا صحبة الأحداث، فإنه أفتن الفتن» ويقول: «عاهدت ربي أكثر من مائة مرة، ألا أصحب حدثاً، ففسخها على حسن الخدود، وقوام القدود، وغنج العيون، وما سألني الله تعالى معهم عن معصية»[1]

هـ ـ فلا عجب أن يضع الصوفية الأحاديث في شأن المردان وينسبونها لرسول الله ﷺ كقولهم «النظر إلى وجه الأمرد عبادة» و «النظر إلى الوجه الحسن يجلو البصر» و «رأيت ربي في صورة شاب أمرد».

١١ـ كرامات الصوفية:

ولع الصوفية بالكرامات ونسبوا لأنفسهم القدرة على إحياء الموتى ومصافحة الرسول في قبره ونزول الموائد عليهم من السماء. ونحن لا ننكر الكرامة للأولياء، ولكن ما ادَّعاه المتصوفة هو من قبيل مالا يحصل إلا للرسل، ثم ان المسلم لا يكون همه الكرامة ولا يسعى إليها. أضف إلى ذلك أن الكرامات الخاصة بالمتصوفة مما لا يجد له المرء معنى، ونخجل ان نذكره لولا أن صوفياً كبيراً كالشعراني في «طبقات الأولياء الكبرى» ذكره فقال: «ومنهم الشيخ إبراهيم العريان كان يطلع المنبر ويخطبهم عرياناً فيحصل للناس بسط عظيم»[2] ويقول عن شيخه العريان أيضاً: «وكان يُخْرِجُ الريح بحضرة الأكابر ثم يقول هذه ضرطة فلان ويحلف على ذلك فيخجل ذلك الكبير منه»[3].

ويقص الشعراني في طبقاته كرامات سيده علي وحيش: «وكان الشيخ رضي الله عنه يقيم عندنا في بنات الخطا. وكان كل من خرج ـ أي بعد

---

(١) طبقات الصوفية للسلمي، ١٨٩ ـ ١٩١.

(٢) الطبقات الكبرى (٢/ ١٢٩).

(٣) المصدر السابق.

اقتراف الزنا ـ يقول له: قف حتى أشفع فيك قبل أن تخرج فيشفع فيه»[1].

ومن كرامات الصوفية ما يرويه الشعراني عن الغمري من أنه دخل عليه محمد بن شعيب فرآه جالساً في الهواء وله سبع عيون. وكان الشيخ أبو علي يناول الناس الذهب والفضة كلما قبض من الأرض شيئاً من التراب[2]. أما أحمد الطابراني السرخسي: «فكان إذا اراد أن يستنجي فلم يجد ما يستنجي به تناول شيئاً من الهواء فيتحول إلى شيء فيستنجي به[3]. وكان عبد الرحمن بن أحمد إذا توضأ للصلاة سال الماء بين يديه قضبان ذهب وفضه[4].

وأقرأ بقية كرامات الصوفية في الرسالة القشيرية، ومواقع النجوم لابن عربي والطبقات الكبرى للشعراني والكواكب الدرية لعبد الرؤوف المناوي وطبقات المناوي، ففيها ما يسلي ويضحك.

١٢ـ أبو حامد الغزالـي:

هو الـذي لقبه الصوفية حجة الإسلام، صاحب كتاب «إحياء علوم الدين» الذي يقول فيه المتصوفة «بيع اللحية واشتري الإحيا». فقد جعل المتصوفة والمستشرقون الأوروبيون منه علماً، ذلك أنه هو الذي استطاع أن يُضفي على التصوف مسحةً حملت كثيراً من الناس على تقبله بعد أن كان صعباً عليهم ذلك لما مرَّ معنا آنفاً. ومن هنا يكمن خطر مؤلفاته التي يُصور فيها التصوف خالياً من أي اذى مليئاً بكل نفع وخير وحكمة، وانني لن أظلم الرجل بل سأدعه يحدث عن نفسه بنفسه:

أـ إيمانه بوحدة الوجود وبالحلول فيقول: «الكل من نوره، بل هو لا هوية

---

(١) المصدر السابق (٢/١٣٥).

(٢) الكواكب الدرية لعبد الرؤوف المناوي، ١١.

(٣)،(٤) الرسالة القشيرية ١٦٣، ١٦٤.

لغيره إلاّ بالمجاز. بل كما لا إله إلا هو، فلا هو إلا هو، فإن هو: عبارة عما إليه الإشارة،وكيفما كان فلا إشارة إلا إليه، بل كلما اشرت، فهو بالحقيقة الاشارة إليه»[1]. وهكذا يزعم الغزالي انك إذا اشرت إلى شيء ما، فإنما تشير في الحقيقة إلى الله، لأنه عين ذلك الشيء المشار إليه.

ويؤكد الغزالي إيمانه بالحلول بين الخالق والخلق وفناء المخلوق في الخالق فيقول: «له نزول إلى سماء الدنيا، وأن ذلك هو نزوله إلى استعمال الحواس، وتحريك الأعضاء، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام صرت سمعه.. الحديث فهو السامع والباصر والناطق إذن لا غيره»[2].

ويتابع قائلاً: «العارفون بعد العروج إلى سماء الحقيقة، اتفقوا على أنهم لم يروا في الوجود إلا الواحد أحد الحق، فلم يبق عندهم إلا الله وسكروا سكراً، فقال بعضهم: أنا الحق، وقال الآخر سبحاني ما أعظم شأني (القائل هو البسطامي) وقال الآخر (أي الحلاج): ما في الجبة إلا الله، وتسمى هذه الحالة اتحاداً وبلسان الحقيقة توحيداً. ووراء هذه الحقائق اسرار لا يجوز الخوض فيها. ومثل هذا الكلام يُطوى ولا يُحكى»[3]. والسؤال ما هي الأسرار التي فضّل الغزالي عدم الخوض فيها بعد كل هذا!!

ب ـ اعتراض الغزالي وانتقاده لتوحيد الرسل والأنبياء:

يرى الغزالي أن توحيد الرسل هو توحيد العوام ويؤكد على تقسيم المتصوفة للتوحيد مخالفاً بذلك إجماع أهل السنة والجماعة في تقسيمهم للتوحيد، فيقسمه إلى أربع مراتب: «للتوحيد أربع مراتب.. والثانية: أن يصدق

---

(١) الغزالي، مشكاة الأنوار، ١٢٤.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق، ١٢٢.

بمعنى اللفظ قلبه، كما صدق به عموم المسلمين وهو اعتقاد العوام! والثالثة: أن يشاهد ذلك بطريق الكشف والرابعة: ألا يرى في الوجود إلا واحداً وهي مشاهدة الصديقين، ويسميه الصوفية الفناء. وهذه هي الغاية القصوى في التوحيد، فلا يرى الكل من حيث أنه كثير بل من حيث أنه واحد»[1].

ويتابع وصفه لتوحيد الرسل والأنبياء والمسلمين بأنه توحيد العوام فيقول: «لا إله إلا الله توحيد العوام، ولا هو إلا هو توحيد الخواص، لأن ذلك أعم، وهذا أخص وأشمل وأحق وأدق وأدخل بصاحبه في الفردانية المحضة والوحدانية الصرفة»[2].

جـ - الغزالي والغناء والرقص:

الغناء أو السماع، كما يسميه المتصوفة، عبادة في نظر الغزالي، بل إنه أشد أثراً على القلب من كتاب الله عز وجل، الذي تطمئن به القلوب، واستمع إليه: «يثمر السماع حالة في القلب تسمى الوجد، ويثمر الوجد تحريك الأطراف أما بحركة غير موزونة فتسمى الاضطراب، وأما موزونة فتسمى التصفيق والرقص». ويقول أيضاً: «فاعلم أن الغناء اشد تهيجاً للوجد من القرآن»[3]. وقال أيضاً من أحب الله وعشقه واشتاق إلى لقائه، فالسماع في حقه مؤكد لعشقه.

د - الغزالي والمشاهدة:

المشاهدة - في نظر المتصوفة - هي رؤية الله سبحانه بالأبصار بعد طول العناء وشدة المجاهدة والرياضة الروحية. وفي حكم الله فإنه سبحانه

---

(١) إحياء علوم الدين (٤/٢١٢ - ٢١٥).

(٢) مشكاة الأنوار، ١٢٤ - ١٢٦.

(٣) احياء علوم الدين، (٢/٢٣، ٢٦٢).

لا يراه في الحياة الدنيا أحدٌ حتى الأنبياء والرسل. أما الغزالي فإنه يرى خلاف ذلك. فالمشاهدة عنده «يمكن أن تتم أثناء الخلوة، والخلوة لا تكون إلا في بيت مظلم فإن لم يكن له مكان مظلم فيلف رأسه بجيبه أو يتدثر بكساء أو إزار، ففي مثل هذه الحالة يسمع نداء الحق سبحانه وتعالى ويشاهد جلال الحضرة الربوبية»(١).

هـ الغزالي والجهاد:

في الوقت الذي كان فيه شيخ الإسلام ابن تيمية يبذل قصارى جهده لصد التتار عن دمشق مسافراً بين مصر والشام لهذه الغاية،. بل ويشارك في معركة مرج الصفر قريباً من دمشق، فإن التاريخ يحكي لنا قصصاً مختلفة تماماً عن أعلام التصوف وشيوخ المتصوفة. فالغزالي مثلاً يذكر في كتابه «المنقذ من الضلال» عند بحث طريقة التصوف، أنه كان خلال الحروب الصليبية مشغولاً في خلوته تارة في منارة دمشق وتارة في صخرة القدس، يغلق بابهما عليه في مدة تزيد على سنتين. بل إن الغزالي شهد سقوط القدس في أيدي الصليبيين، وعاش اثني عشرة سنة بعد ذلك، ولم يشر إليه في كتبه. وكذلك عاش عمر بن الفارض ومحي الدين بن عربي إبان الحروب الصليبية ولم يذكراها في كتبهما وأشعارهما، فالأمر لا يعنيهما من قريب أو بعيد.

و ـ علوم الغزالي والكشف:

تقوم علوم الغزالي على الكشف «وهو بيان ما يستتر على الفهم فيكشف عنه العارف كأنه رأي العين، وقد اعتمد عليه المتصوفة بدلاً من الدليل الشرعي الذي اعتمد عليه علماء الشريعة مما فتح الباب على مصراعيه امام تقبل الصوفية للأحاديث الموضوعة واستشهادهم بها. وقد

---

(١) احياء علوم الدين (٢/ ٦٦).

ظهر جلياً في كثير من الكتب الصوفية وخاصة في كتاب إحياء علوم الدين»[1].

د ـ الغزالي وإحياء علوم الدين:

يعد إحياء علوم الدين من أكثر الكتب مليئاً بالأحاديث الضعيفة والموضوعة. ولا أدَل على ذلك من تخريج المحدث الكبير الحافظ عبد الرحيم بن الحسين العراقي الشافعي من علماء القرن الثامن الهجري لأحاديثه في كتابه «المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار» الأمر الذي يكشف عن جهل فاضح للغزالي في السنة النبوية. وقد قامت معظم دور النشر بطباعة كتاب العراقي على هامش «الإحياء» في كتاب واحد تعميماً للفائدة. وما أحسن ما قاله ابن الجوزي في «الإحياء» قال: «وجاء أبو حامد الغزالي فصنف لهم ـ أي للمتصوفة ـ كتاب الإحياء على طريقة القوم وملأه بالأحاديث الباطلة، وهو لا يعلم بطلانها! وتكلم في علم المكاشفة وخرج عن قانون الفقه وقال إن المراد بالكوكب والشمس والقمر اللواتي رآهن إبراهيم صلوات الله عليه أنوار هي حجب الله عز وجل ولم يرد هذه المعروفات: وهذا من جنس كلام الباطنية. وقال في كتابه «المفصح بالأحوال»: إن الصوفية في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ويسمعون منهم أصواتاً ويقتبسون منهم فوائد، ثم يترقى الحال(!!) من مشاهدة الصور إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق (!!).

ثم قال الإمام ابن الجوزي عن كتاب الإحياء وغيره، وكان السبب في تصنيف هؤلاء مثل هذه الأشياء قلة علمهم بالسنن والإسلام والآثار وإقبالهم على ما استحسنوه من طريقة القوم»[2].

---

(١) التصوف بين الحق والخلق، ٣٩.

(٢) تلبيس إبليس، ١٨٦.

ولقد أفتى معظم علماء المغرب والأندلس بعدم جواز قراءة إحياء علوم الدين وطالبوا أميرهم علي بن يوسف بمنع تداول الكتاب لما يحتويه من بدع وضلالات، فأمر الأمير بجمع نسخ الإحياء وإحراقها في أحد الميادين العامة. وقد أثار ذلك الغزالي فحرَّض بعض اتباعه على السفر للأندلس وتدبير الفتن والمؤامرات ضد الأمير مما ساهم في إضعاف الأندلس أمام نصارى إسبانيا.

دفاع المتصوفة عن أنفسهم:

إن دفاع المتصوفة عن أنفسهم يتضمن أمرين هما: تهديد منتقديهم بالطرد من رحمة الله، وحث أتباعهم على ستر أسرار التصوف. «فإذا رأيت منتقداً على التصوف ففر منه فرارك من الأسر واهجره»[1] وهكذا فإن الصوفي يُنصح بعدم الدخول في حوار مع أهل العلم الشرعي حرصاً على إبقائه تابعاً منقاداً لشيخه: «فطريق الكشف والشهود لا تحتمل المجادلة والرد على قائله»[2]. وواجب المتصوفة هو إخفاء التصوف وستر اسراره، «وهذا الفن من الكشف يجب ستره عن أكثر الخلق لما فيه من الغلو فغوره بعيد»[3].

هذا جوابهم بشكل عام: الهرب من المواجهة والتهديد بالطرد من رحمة الله. وفي أحسن الأحوال ينكرون الأقوال التي تُنسب إليهم. وأحياناً اخرى يزعمون أن المراد بها ليس ظاهرها المتبادر. وان المراد منها لا يفهمه إلا أصحاب الذوق فقط. وهذا الزعم باطل لما يأتي:

١ـ عندما نرجع إلى كتب المتصوفة فإننا لا نجد رموزاً وأسراراً، بل أدلة صريحة تعبر عن معتقدات حقيقة.

(١، ٢، ٣) رسالة الفناء من رسائل ابن عربي ص ٣، ٨ وايقاظ الهمم شرح الحكم لابن عجيبة ص ٨.

٢ـ اننـا معشـر المسلمين مأمورون أن نحكم بالظاهر، لأنه وحده الذي يُضبط، أما الباطن فلا ضبط له. والألفاظ إذا صُرفت عن مقتضى ظواهرها لم تعد تحتمل المعاني المخصصة لها أصلاً في اللغة، وإنما أصبحت تحتمل المعاني المخصصة لغيرها من الألفاظ. قال الحافظ زين الدين العراقي: «ولا نقبل ممن اجترأ على مثل هذه المقالات القبيحة أن يقول: أردت بكلامي هذا خلاف ظاهره، ولا نؤول له كلامه ولا كرامة»[1]. وقال الإمام علاء الدين القونوي عندما سُئل عن تأويل مقولات الصوفية: «إنما نؤول كلام من ثبتت عصمته حتى نجمع بين كلاميه، لعدم جواز الخطأ عليه. وأمـا من لم تثبت عصمته، فجائز عليه الخطأ والمعصية والكفر، فنؤاخذه بظاهر كلامه، ولا يُقبل منه ما أوَّل كلامه عليه مما لا يحتمله، أو مما يخالف الظاهر وهذا هو الحق»[2].

٣ـ إن الذين نطقوا بتلك المخالفات الشرعية الظاهرة البينة الواضحة كانوا سادات الصوفية وشيوخها المقدمين على غيرهم، الذين يُستشهد بأقوالهم. فهل يقبل مع هذا كله اعتذار الصوفية عنهم بأن مثل تلك الأقوال كانت من قبيل الشـطح، والشطح مغفور لهم لأن حبهم لله قد غلب عليهم، فلم يدركوا ما يقولون!!!

٤ـ وحتى لو كان ذلك صحيحاً يُعذر صاحبه، فهو كلمة أو جملة. أما أن تمتلأ كتبهم بمثل تلك المقولات الكفرية الصريحة الواضحة بحجة غلبة حب الله عليهم، فإنه إعتذار من المحال قبوله.

٥ـ إن الصـوفية انفسهم وعلى ألسـنـة كبـار مشـايخهم يعترفون بارتكاب المعاصي فهذا الجيلي يقول:

---

(١) تنبيه الغبي، ٦٦.

(٢) المصدر السابق.

إذا كنتُ في حكم الشريعة عاصياً فإني في علم الحقيقة طائع

وقد مر معنا آنفاً قول الجنيد من أن الرجل لا يكون صوفياً حتى يشهد فيه ألف عالم من علماء الشريعة بأنه زنديق.

٦ـ لماذا ننفي عن القوم تهماً ومقولات وعقائد هي في نظرهم حق وفضيلة كوحدة الوجود والحلول في الله بل هي غايتهم التي يسعون إليها. ولماذا ننفي عنهم كرامات ينسبونها بأنفسهم إلى أنفسهم.

٧ـ ولقد واجهتُ بعض كبار الصوفية في هذا البلد بما تضمه كتب ابن عربي من كفريات، فما كان جوابهم إلا أنهم انكروا نسبة هذه المؤلفات لصاحبها، مع أنه لا أحد في الدنيا يشك في ان ابن عربي هو مؤلف «الفتوحات المكية» و «الفصوص». ومع انكارهم ـ أمام غيرهم ـ لنسبة هذه المؤلفات لاصحابها، إلا انهم يتدارسونها فيما بينهم في مجالسهم الخاصة بهم وفي منازلهم.

٨ـ إن عقائد المتصوفة آنفة الذكر لم تكن نظرية، بل كان لها واقعها العملي في حياة الصوفية، وقد مارسها المتصوفة ممارسة واقعية، فليس الأمر خيالاً وظنوناً. خذ مثلاً وحدة الوجود فقد رفع كثير من الصوفية ـ نتيجةً لإيمانهم بوحدة الخلق والخالق ـ التكاليف الشرعية عن انفسهم مما تسبب في آثار سلبية على الدين والخلق. وقد أخبرني من أثق به عن بعض شيوخ الصوفية عندنا أنهم لا يقيمون الصلاة لأنهم وصلوا إلى مرتبة الحلول والإتحاد مع الله فلمن يصلون فهم كما يقول شيخهم ابن عربي:

الرب حق والعبد حق يا ليت شعري من المكلف
إن قلت عبد فذاك حق أو قلت رب أنى يُكَلَّف!![1]

---

(١) الفتوحات المكية (١/٢).

أما الإعتقاد الصوفي بوحدة الأديان فآثاره في غاية الخطورة، ذلك أنه إذا لم يكن ثمة فرق بين الخير والشر، وبين الكفر والإيمان، وبين الشرك والتوحيد بإعتبار أن كل هذه مقدرة من الله، فليس من الضروري عندئذ الإلتزام بالتكاليف الشرعية.

٩ـ إنك إذا واجهت الصوفي البسيط بحقائق التصوف وعقائده لم يصدق أن هذا هو التصوف، وانكر عليك ذلك، لكن جهله بحقيقة الطريق الذي بدأ بسلوكه ليس عذراً له، وليس له أن يحتج بأن غايته تزكية النفس لأن عليه أن يفعل ذلك وفق لا ضد نصوص الكتاب والسنة وضمن حدود الشرع واعتماداً على التوحيد الخالص والطاعة لله لا للمشايخ. أضف إلى ذلك أن الصوفي المبتدأ وإن كان لا يزال بعيداً عن حقيقة التصوف، إلا أنه في طريقه إليها وسيصلها وسيجد نفسه فجأة مستسلماً لشيخه يبحث عن الفناء في ذات الله والحلول فيه.

وإن عدم تعريف الصوفي المبتدأ بحقائق التصوف آنفة الذكر إنما لاستدراجه وعدم تنفيره. وحتى في المرحلة الأولى للتصوف فإن الصوفي يرتكب ضروباً من الشرك كالتسليم الأعمى للشيخ في كل ما يقوله، واعتقاده بتأثير الشيخ في أمور لا يملك البشر عليها تأثيراً.

١٠ـ ان التصوف كل متكامل وتزكية النفس ليست إلا خديعة ينخدع بها طيبوا القلب الباحثون عن الزهد والصفاء، لكنهم تدريجياً سرعان ما يسقطون في مهاوي سحيقة لا يخرجون منها إلا برحمة الله. وقد قال الشافعي: «لو أن رجلاً تصوف أول النهار لا يأتي الظهر حتى يصير أحمق. وقال: «ما لزم أحد الصوفية اربعين يوماً فعاد عقله إليه أبداً وأنشد.

ودعوا الذين إذا أتوك تنسكوا ... وإذا خلوا كانوا ذئاب خفاف[1]

---

(١) تلبيس ابليس لابن الجوزي، ٣٧٠.

١١ـ إن التفرقة بين صوفية الأمس كابن عربي وابن الفارض والشعراني وبين صوفية اليوم دعوى مردودة، لأن ما نراه ويراه المسلمون من ممارسات الصوفية بين ظهرانينا وفي بلاد المسلمين إنما هو أخذ بمقولات صوفية الأمس وإظهار عملي لها. وكيف لا يكون ذلك وصوفية اليوم يتدارسون كتب صوفية الأمس ويعدونهم قدوتهم ومثلهم الأعلى.

ومن جهة أخرى فإنه وان كان من بين المتصوفة علماء أفاضل كالشيخ عبد القادر الجيلاني، لكن نسبة هؤلاء لا قيمة لها بالنسبة للكم الهائل للتراث الصوفي المخالف للكتاب والسنة، فلا يُحسب اولئك الأفاضل من أهل السنة والجماعة على المتصوفة ومقاييسهم.

١٢ـ اما تلفظ بعض علماء التصوف بمقولات يدعون فيها اتباعهم للتمسك بالكتاب والسنة فلا قيمة له لدى المحقق المدقق، وذلك أنه إن وجد قول من هذا القبيل، فثمة مائة قول مخالف للكتاب والسنة تقابل ذلك القول. والعالم إنما يُحكم عليه بالنظر إلى مجموع ارائه والطابع الغالب المميز لعقيدته وطريقة فهمه للنصوص، وإن اعتماده الأراء المخالفة للكتاب والسنة يناقض دعوته للإلتزام بهما ويكشف حقيقته.

١٣ـ أما حجة المتصوفة بان كتبهم ليست لعامة المسلمين بل لخاصتهم الذين هم وحدهم القادرون على فهم حقائقها واستيعاب معانيها، فهي حجة من المستحيل قبولها. إذ لو كانت كذلك فلماذا يعمد المتصوفة إلى طباعتها ونشرها!! وكيف يفسرون قول ابن عربي بعد أن طلب منه رسول الله بدمشق نشر كتاب «فصوص الحكم» بين الناس، فسمع وأطاع. والكتاب مليء بالكفر الصراح كما هو ظاهر مبين لكل من يقرأه.

١٤ـ وإذا لم يكن المراد من أقوال المتصوفة في كتبهم الظاهر، فلماذا لا ينبهون الناس على ذلك، ويجعلون في مقدمة كل كتاب تعريفاً

بالمصطلحات المستعملة وتحذيراً من عدم فهمها على ظاهرها وتبييناً بأنه وإن كان ظاهر هذه النصوص وتلك الأقوال الكفر، إلا أن باطنها المراد منها الإيمان.

إن ما سبق يكشف عن حقيقة التصوف، وأنه خطر باطن وعدو مستتر، وأنه اخطر ما يواجه المسلمين اليوم لما يتضمنه من شرك ممزوج بدعوى تصفية النفس، وهو يتناقض مع التوحيد الصحيح الذي هو أساس تصويب مسار المسلمين اليوم وغداً.

وختاماً اذكر للقارىء بعض المصادر التي تعين طالب الحق على معرفة طريقه والوصول إلى غايته:

١ـ التصوف الإسلامي في الأدب والاخلاق، د. زكي مبارك.
٢ـ فضائح الصوفية، عبد الرحمن عبد الخالق.
٣ـ التصوف بين الحق والخلق، محمد فهر شقفه.
٤ـ هذه هي الصوفية، عبد الرحمن الوكيل.
٥ـ الهدية الهادية إلى الطائفة التيجانية، د. محمد تقي الدين الهلالي.
٦ـ لا طرق في الإسلام، محمد الناصري.
٧ـ مشتهى الخارف الجاني في رد زلقات التيجاني الجاني، محمد الخضر الشنقيطي.
٨ـ تلبيس إبليس ـ ابن الجوزي.
٩ـ المدخل إلى الأدب الجزائري الحديث، للأديب الجزائري صالح ترفي (وفيه بيان صلة التصوف بالاستعمار الفرنسي بالجزائر).
١٠ـ حياة ابن عربي وعقيدته، تقي الدين الفاسي.

الانحراف في ممارسة العبادة

ما من ريب أن العبادة هي من أهم أسباب صلة العبد بربه، لذا فقد بيّنها الشرع وضبطها بدقة عجيبة. فكان من غير الجائز على الإطلاق فيما يخص العبادة إلا إتباع الكتاب والسنة والتقيد بهما، فلا يُعْبد الله تعالى إلا بما شرع، والأدلة على ذلك كثيرة منها:

١ـ قوله تعالى: ﴿اليومَ أكملتُ لَكُم دِينَكُم﴾ [المائدة: ٣].

٢ـ قوله ﷺ: «فمن رغب عن سنتي فليس مني»[1]

٣ـ قوله ﷺ: «. . . وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار»

٤ـ قوله ﷺ: «من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رَدٌّ»[2].

وهكـذا فإن الله تعـالى لا يريد من عبـاده أن يعبـدوه ويتقـربوا إليه فحسب، بل يريد منهم أن يكون ذلك كما يريد هو وكما شرع هو، لا كما نريد نحن أو نحب.

وإذا كانت القاعدة الفقهية «الأصل في الأشياء الإباحة ما لم يرد دليل الحظر»، فإن الأصل في العبادات «الحظر مالم يرد دليل الوجوب أو الإباحة».

إننـا نستطيع القول إن المساس بالعبادة في الإسلام قد أخذ أوجهاً متعددة. وحينما نقول المساس بالعبادة، لا نعني كما جاء بها الإسلام،

(١) طرف من حديث صحيح رواه البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه (البخاري ٢/١٦٦ ومسلم ٥/١٣٣).

بل ما هي عليه من ممارسات المسلمين، وهذه الأوجه هي كما يلي:

١ـ ما حدث من إضافات جديدة للعبادة سواء إضافة هيئات جديدة، أو صور جديدة لأي نوع من أنواع العبادات، وهناك قائمة ببعض هذه الإضافات يجدها القارىء في نهاية هذا البحث.

٢ـ تشوه تصور العبادة عند كثير من الناس كما يأتي:

أـ اعتقد بعض المسلمين أن الإسلام هو فقط الصلوات الخمس والصيام والحج، فغدا معنى العبادة عندهم ضيقاً. فالعبادة بمفهومها الواسع كما وردت في قوله تعالىٰ: ﴿وما خلقتُ الجن والإنس إلاَّ ليعبدون﴾ [الذاريات: ٥٦] هي الطاعة لكل أوامر الله واجتناب نواهيه، فهي الإسلام كله. وهذه الشعائر بالتالي ليست سوى جزء من العبادة.

ب ـ واعتقد قسم آخر أن العبادة هي الإسلام كله، لكن ممارسته وواقع حياته العملي والسلوكي كالفريق الأول، فهو لا يُحَكِّم الإسلام في واقع حياته ويُفضل الاقتصار على العبادة بمعناها المحدود.

وهكذا تم الفصل عند كثير من المسلمين بين العبادة وبين بقية أجزاء النظام الإسلامي الشامل. هذا الفصل الذي أكَّد ﷺ رفضه بأحاديث منها «من لم يَدَع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجةٌ في أن يَدَع طعامَه وشرابه»[1].

٣ـ القيام بعبادات نهى عنها الشرع صراحة وحرمها بل عدها شركاً كالحج لقبور الصالحين والنذر لهم وطلب قضاء الحاجات منهم والاستغاثة بهم وغيرها من أنواع العبادة المحرمة.

٤ـ الاحتفال بمناسبات دينية وأيام معينة من اختراع الناس تعبداً وتقرباً إلى

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري وأحمد وأبو داود عن أبي هريرة، (صحيح الجامع ٦٤١٥).

الله كالإحتفال بذكرى المولد وذكرى الهجرة وذكرى الإسراء والمعراج.

٥- الإنحراف في فهم دور القرآن الكريم، فأصبح كلام الله يتلى طلباً للبركة وحرزاً للأموال والأولاد فقط لا طلباً للهداية بالفهم والعمل بموجبه.

٦- أصبحت العبادات عادات لا تبعث على التقوى، إذ لم تعد العبادة تؤدي دورها. وكما هو معلوم «فإن العبادة في شرع الله وسيلة لتهذيب النفوس وبعث اليقظة في الضمائر، وتجربة روحية متجددة تحفظ صفاء النفس وتضمن مراعاة حدود الله ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. ولكن قد تنقلب العبادة إلى عادة ورسوم شاحبة ذات حركات شكلية واجتماعات فاقدة لروحها وهدفها في تهذيب النفوس أو إلى مآكل وموائد وأصناف من الطعام، فيكون دور المصلحين في ذلك الظرف أن يُجددوا في قلوب المؤمنين الأهداف والمقاصد التي أرادها الدين من العبادة، ويُرَوِّضوهم على حسن الإنتفاع منها كتربية عملية تزكي النفوس وتجعلها تألف صالح العمل»(١).

الإحتجاج بالنية ودوره في إفساد العبادة:

إحتج كثير من الناس (وهم اولئك الذين أضافوا إلى الدين عبادات لم يفعلها النبي ﷺ أو أصحابه أو التابعون) بالنية الحسنة أو بحبهم لله أو حبهم لرسول ﷺ.

ولا ريب أن الاحتجاج بسلامة النية لإحداث أساليب جديدة في التقرب إلى الله احتجاج مرفوض من أساسه. وقول الرسول ﷺ «إنما الأعمال بالنيّاتِ» لا يصح دليلاً. إذ إنَّ الحديث يَفْتَرِض وجودَ عمل صحيح ويؤكد على ضرورة سلامة النية لذلك العمل الصحيح. فهنا إذن أمران لا يتم الجزاء إلا بموجبهما، وهما: صحة العمل وصحة النية، إذ أن النية

(١) الاجتهاد والتجديد في التشريع الإسلامي، ٣٠٧.

الحسنة لا يُظْهِرها إلا عملٌ حسن. والقيام بأي عمل على خلاف ما كان عليه الرسول ﷺ وصحابته مع إدعاء سلامة النية يظل مُنْكَراً وتحريفاً للدين، فالنية الصحيحة مطلوبة ولكنها وحدها لا تكفي بل لا بد أن يُضم إليها التقيد بالمشروع، خاصة إذا كان الأمر يتعلق بالعبادة. وقد سبق أن أشرنا إلى أن الله تعالى لا يريد منا أن نعبده فحسب ولكنه يريد منا أن نعبده كما يريد هو أن نعبده، لا كما نريد نحن، ولهذا قال العلماء «لا يُعْبَدُ الله إلا بما شرع».

مظاهر الانحراف في العبادة عند المتصوفة:

كانت مساهمة الصوفية في تحريف مفاهيم العبادة في الإسلام أكثر من غيرهم، من ذلك ما يلي:

١- ينشغل بعض المتصوفة بالعبادة ويتركون سائر الأشغال، فهؤلاء بإعطائهم العبادة أكثر مما تستحق وعلى حساب الأمور الأخرى ساهموا في تحريف مفهوم العبادة في الإسلام.

٢- فرض كثير من المتصوفة على أنفسهم وعلى أتباعهم أوراداً وأذكاراً من عندهم لم ترد في الكتاب أو السنة وجعلوها على قدم المساواة مع عبادات الإسلام بل في منزلة أهم.

٣- زعموا أن عبادة الله يجب أن تكون دون رجاء مثوبة أو خوف عقوبة(١)، كقول رابعة العدوية: والله ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك. وهـذا تحريف ظاهر للنصوص التي تؤكد خلاف ذلك ومنها قوله تعالى: ﴿إنَّهم كانوا يُسارِعون في الخَيْرَاتِ وَيَدْعونَنا رَغَباً وَرَهَباً وكانوا لَنَا خاشِعين﴾ [الأنبياء: ٩٠].

---

(١) كتب الصوفية مليئة بهذا الاعتقاد، انظر التعرف لمذهب أهل التصوف لابي بكر الكلاباذي تحقيق د. عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور.

٤ـ لكثير من المتصوفة منهجهم الخاص بهم في تزكية النفس غير نهج الكتاب والسنة، الأمر الذي أدى إلى إدخال عباداتٍ جديدة في الإسلام. وليس هذا سوى إتهام غير مباشر وغير صريح للشريعة بأنها ناقصة لا تفي بحاجات تزكية النفس، ومن هنا جاء إختراعهم لمصطلح الحقيقة وزعموا أنها الأصل.

٥ـ نظراً لاعتقاد بعض فرق المتصوفة بوحدة الخالق والمخلوق، فقد قاموا بإسقاط التكاليف الشرعية عن أنفسهم وأدخلوا عباداتٍ جديدةً. من ذلك ما زعمه الحلاج أن من بنى بيتاً وصام أياماً ثم طاف عرياناً أغناه عن الحج[1]، فهدم بذلك أحد أركان الإسلام.

٦ـ يمارس كثير من الصوفية أفعالاً تعبدية تخالف الشريعة من الرقص وضرب الدف ونعيق المزامير وغيرها من الأمور التي حرمها الإسلام حتى خارج العبادة.

العبـادة والبـدع

من بدع الصلاة:

١ـ مصافحة المصلين بعد إنتهاء الصلاة، وقولهم بعضهم لبعض «يتقبل الله».

٢ـ صلاة الناس لسنة الجمعة القبلية، علماً أنه لا أصل لها.

٣ـ مواظبة خطيب الجمعة على صيغة من الدعاء لا يتحول عنها، وكذلك الدعاء نفسه إلا في الاستسقاء ونحوه.

٤ـ ما يُسمى بالتذكير وهو قراءة أذكار على المئذنة ليلة الاثنين والجمعة.

٥ـ قيام الإمام عند أسفل المنبر في صلاة الجمعة يدعو.

(١) الشعراني، الطبقات الكبرى، جـ ١، ص ١٦ ـ ١٧.

٦ـ قول بعض الناس عند صلاة ركعتي الفجر: سبحان من صبَّح الإصباح، سبحان من طيَّر الجناح.

٧ـ تهليلهم ثلاثاً جماعة بصوت مرتفع بعد ركعتي الفجر.

٨ـ وضع اليدين على الجانب الأيسر لأجل حفظ الإيمان، والسنة وضعهما على الصدر.

٩ـ الجهر بالنية قبل تكبيرة الإحرام.

١٠ـ الجمعة اليتيمة في رمضان.

١١ـ صلاة ليلة المعراج وصلاة كل ليلة من رجب وشعبان أو النصف منهما.

١٢ـ صلاة المكتوبات في آخر جمعة من رمضان.

١٣ـ الذكر والتسبيح والتهليل مجتمعين جهراً دبر كل صلاة في المسجد.

من بدع الحج[1]:

١ـ مؤاخاة المرأة للرجل الأجنبي ليصير بزعمها محرماً لها، ثم تعامله كما تعامل محارمها، أو يعقد عليها عقداً مؤقتاً لتتخذه محرماً ثم يطلقها بعد الحج.

٢ـ القول بعد التلبية: «اللهم إني أُريد الحج فيسره لي وأعني».

٣ـ تقبيل الركن اليماني.

٤ـ تقبيل الركنين الشاميين واستلامهما.

٥ـ التمسح بحيطان الكعبة والمقام.

---

(١) الألباني، مناسك الحج والعمرة، ٤٧ ـ ٦٠.

٦ـ التبرك بالمطر النازل من ميزاب الرحمة من الكعبة.

٧ـ تكرار السعي في الحج والعمرة.

٨ـ ما استفاض على ألسنة العوام من أن وقفة عرفة يوم الجمعة تعدل اثنتين وسبعين حجة، زاعمين أنها حج أكبر. والصواب أن الحج في كل عام هو حج أكبر والعمرة حج أصغر.

٩ـ الاغتسال للمبيت بمزدلفة.

١٠ـ الوقوف بمزدلفة دون مبيت بحجة الزحام.

١١ـ الغسل لرمي الجمار.

١٢ـ غسل الحصيات قبل الرمي.

١٣ـ رمي الجمرات بالنعال وغيرها.

١٤ـ الرغبة عن ذبح الواجب من الهدي إلى التصدق بثمنه، بزعم أن لحمه يذهب في التراب لكثرته، ولا يستفيد منه إلا القليل، والأصل إهراق الدم.

١٥ـ ذبح بعض هدي التمتع بمكة قبل يوم النحر. مما يجعله ملزماً بذبح هدي جديد.

من بدع الزيارة للمدينة[١]

١ـ قصد قبره ﷺ بالسفر[٢].

٢ـ إرسال العرائض مع الحجاج والزوار إلى النبي وتحميلهم سلامهم إليه.

٣ـ الإغتسال قبل دخول المدينة.

---

(١) محمد ناصر الدين الألباني، مناسك الحج والعمرة، ص ٦٠ ـ ٦٤.

(٢) ليس هناك ادنى ريب في جواز زيارة قبره عليه السلام على أن يكون المقصود من السفر زيارة مسجده ﷺ.

٤ـ استقبال بعضهم القبر بغاية الخشوع واضعاً يمينه على يساره كما يفعل في الصلاة[1].

٥ـ قصد استقبال القبر أثناء الدعاء.

٦ـ قصد القبر للدعاء عنده رجاء الإجابة.

٧ـ التوسل به ﷺ في الدعاء.

٨ـ طلب الشفاعة وغيرها منه.

٩ـ قصد الصلاة اتجاه قبره.

١٠ـ الجلوس عند القبر وحوله للتلاوة والذكر.

١١ـ قصد القبر النبوي للسلام عليه دبر كل صلاة.

١٢ـ تخصيص يوم الخميس لزيارة شهداء أحد.

من بدع الجنائز[2]:

١ـ وضع المصحف عند رأس المُحْتَضر.
٢ـ توجيه المحتضر إلى القبلة.
٣ـ إخراج الحائض والنفساء من عنده.
٤ـ تقليم أظافر الميت وحلق عانته.
٥ـ الإعلان عن وفاة الميت من على المنائر.

٦ـ الجهر بالذكر عند غسل الجنازة وتشييعها.
٧ـ سدل شعر الميتة من بين ثدييها.
٨ـ تزيين الجنازة.

---

(١) أما إذا كان المقصود هو الأدب والاحترام للنبي ﷺ فهو مطلوب.
(٢) الألباني، تلخيص احكام الجنائز، ٩٥ ـ ١٠٥.

٩ـ حمل الأعلام أمام الجنازة.
١٠ـ ذبح الخراف عند خروج الجنازة تحت عتبة الباب.
١١ـ الإبطاء في السير بها، والسنة الإسراع.
١٢ـ ترك الإنصات في الجنازة
١٣ـ الصياح بلفظ (الفاتحة) عند المرور بقبر أحد الصالحين وبمفارق الطرق.
١٤ـ جعل الوسادة أو نحوها تحت رأس الميت في القبر.
١٥ـ تلقين الميت عند دفنه.
١٦ـ الرثاء عقب دفن الميت عند القبر.
١٧ـ الصدقة عند القبر.
١٨ـ تحديد التعزية بثلاثة أيام والجلوس من أجلها.
١٩ـ اتخاذ الضيافة من الطعام من أهل الميت.
٢٠ـ إتخاذ الطعام من أهل الميت أول خميس.
٢١ـ تأبين الميت ليلة الأربعين أو عند مرور كل سنة المسمى بالتذكار.
٢٢ـ تخصيصهم الذهاب إلى المقابر في يومي العيدين ورجب وشعبان ورمضان.
٢٣ـ زيارتهم يومي الأثنين والخميس للمقابر تخصيصاً.
٢٤ـ قراءة (يسٓ) على المقابر.
٢٥ـ قراءة (قل هو الله أحد) إحدى عشرة مرة أو أقل أو أكثر.
٢٦ـ اعتقادهم في كثير من أضرحة الأولياء أن لها اختصاصات كاختصاصات الأطباء، فمنهم من ينفع في مرض العيون ومنهم من يشفي من مرض الحمى.
٢٧ـ حمل المصحف إلى المقبرة والقراءة منه على الميت.
٢٨ـ استلام القبر وتقبيله.
٢٩ـ التوسل إلى الله تعالىٰ بالمقبور.

٣٠ـ الاستعانة بالميت منهم كقولهم : يا سيدي فلان أغثني وانصرني على عدوي .

٣١ـ تجصيص القبور (أي طليها بالجص) .

٣٢ـ النقش والكتابة على القبر.

٣٣ـ بناء المشاهد والمساجد على القبور والآثار.

٣٤ـ إتخاذ المقابر مساجد بالصلاة عليها وعندها .

٣٥ـ دفن الميت في المسجد أو بناء مسجد عليه .

٣٦ـ نذر الزيت والشمع لإسراج قبر أو جبل أو شجرة .

من بـدع المساجـد :

١ـ بناء المنابر من درجات تزيد على الثلاث .

٢ـ زخرفة المساجد والمباهاة في بنائها .

٣ـ كتابة «إذا صعد الخطيب المنبر فلا صلاة ولا كلام» وهو حديث غير صحيح بل هو مكذوب على رسول الله ﷺ .

٤ـ الزيادة على الأذان المشروع عبارات معينة مثل الصلاة على النبي ﷺ .

٥ـ قراءة القرآن على المآذن .

٦ـ فرش درج المنبر يوم الجمعة .

٧ـ جعل الاعلام السود على المنبر حال الخطبة .

٨ـ الستائر للمنابر.

٩ـ المواظبة على لبس السواد من الإمام يوم الجمعة .

١٠ـ ترك الخطيب السلام على الناس إذا خرج عليهم .

١١ـ القعود تحت المنبر والخطيب يخطب يوم الجمعة للاستشفاء .

١٢ـ حود ساعة لها جرس داخل المسجد تشبهاً بناقوس النصارى .

١٣ـ سرة الألوان المثيرة في المسجد مما يلفت انتباه المصلي عن الخشوع .

١٤ـ دفن الميت في المسجد أو بناء المسجد على قبر.
١٥ـ التشويش بالقراءة على الناس في المسجد.
١٦ـ المآذن والقباب للمساجد وبدعة الهلال على المأذنة.

التفسير وعثرات المفسرين

ليس هناك من يستطيع أن يدعي أن تحريفاً ما أصاب ولو حرفاً من حروف القرآن. حتى أشد الحاقدين على الإسلام من مستشرقين وغيرهم لم يخوضوا في هذا الحديث أبداً، ووجهوا طعنهم في القرآن إلى نسبته إلى محمد ﷺ، نافين أنه من الله عز وجل. وبالتأكيد لم يقع تحريف في نصوص الكتاب الكريم كما وقع في نصوص التوراة والإنجيل، وليس هذا موضوع بحثنا، إذ إن بحثنا في هذا الفصل يتركز على تساؤل آخر هو: هل حصل انحراف في فهم نصوص القرآن؟ وإن كان قد حصل مثل ذلك، فما هي الدوافع من ورائه؟ وما هي آثاره ونتائجه؟

وقبل أن نستعرض الأمر بتفاصيله أود أن ألفت النظر إلى أن تعدد التفاسير ليس مطعناً فيها، وأن القرآن كالنبع المتجدد، وأنه إن وقع انحراف في فهمه، فهو بسبب إنحراف المفسر وبُعده عن الحق، أو عدم استيفائه الشروط المطلوبة.

مدارس التفسير

يمكن القول إن أبرز اتجاهين في تفسير القرآن هما التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي.

١ـ التفسير بالمأثور:

يعتمد التفسير بالمأثور على ما جاء في القرآن الكريم وعلى ما رواه الصحابة عن رسول الله ﷺ، وعلى ما رواه التابعون عن الصحابة من

تفسير. فتفسير القرآن بالمأثور هو تفسير القرآن بالقرآن وبالسنة وبأقوال الصحابة والتابعين.

وإمام مدرسة التفسير بالمأثور هو الإمام ابن جرير الطبري. ومن أشهر رواد هذه المدرسة الحافظ ابن كثير صاحب التفسير المشهور والسيوطي في تفسيره «الدر المنثور».

٢- التفسير بالرأي:

وتفسير القرآن بالرأي يعني تفسيره بالنظر العقلي المجرد، ومن أشهر كتب التفسير بالرأي: تفسير الرازي وتفسير النسفي وتفسير البيضاوي وتفسير الخازن وتفسير أبي السعود.

هل للتفسير بالمأثور عثرات؟

ليس من الصواب القول ان من اخطاء التفسير بالمأثور حذف اسانيده[1]، فذلك ليس معيباً ما دام أن الأسانيد محفوظة في مواطن اخرى. على أن ما يحتاجه التفسير بالمأثور هو خدمة اسانيده بتحقيقها وتخريجها حتى يتبين الصحيح من غيره من الاسرائيليات وما شابهها وهذه هي مهمة علماء الحديث والمتخصصين به.

عثرات التفسير بالرأي:

أما ابتعاد التفسير بالرأي عن الحق، فقد بدا واضحاً في إخضاعه للميول الشخصية ولمذاهب الفرق الإسلامية. فقد تبنى أتباع الفرق والمذاهب الكلامية كالمعتزلة والخوارج وغيرهم أفكاراً معينة، ثم أرادوا أن يجدوا لها مُسَوِّغاً في القرآن، فحملوا ألفاظ القرآن عليها. ولهذا نجدهم «إنما يذكرون نصوص الكتاب والسنة للاعتضاد لا للإعتماد، إن وافقت ما

(١) د. رمزي نعناعة، بدع التفاسير، ص ٢٠.

ادعوا أن العقل دل عليه قبلوه، وإن خالفته أوَّلوه! وهذا فتح باب الزندقة، نسأل الله العافية»[1].

وبكلمات أخرى فإن المتكلمين اعتمدوا العقل أصلاً في التفسير، فإن وجدوا في الايات الكريمة ما ذهبوا إليه أخذوا بها، وإلا حرَّفوها بتأويلها لصالح مذاهبهم. ولتحقيق تلك الغاية كان لا بد من صرف اللفظ عن ظاهره والإعلان عن وجود مجاز في القرآن الكريم، وبذلك فُتحَ باب التأويل غير المشروع على مصراعيه ودخل التحريف تفسير القرآن الكريم.

وطالما انتهى الحديث بنا إلى التأويل، فلا بد أن نذكر أن المعاني التي يمكن أن يدل عليها التأويل ثلاثة ليست كلها خطأ.

١ـ «التأويل بمعنى إيضاح المعنى وبيانه، وهذا اصطلاح جمهور المفسرين.

٢ـ التأويل بمعنى الحقيقة التي يؤول الشيء إليها. وهذا هو المعروف من معنى التأويل في الكتاب والسنة، كما قال تعالى: ﴿هَل يَنْظُرون إلا تَأويلَه﴾ [الأعراف: ٥٣]، ﴿ذلك خَيْرٌ وأحسن تَأويلاً﴾ [النساء: ٥٩]. وتأويل آيات الصفات بهذا المعنى ضلال، لأن حقيقة الصفات الألهية أمر لا يعلمه إلا الله تعالى.

٣ـ التأويل بمعنى صرف اللفظ عن ظاهره إلى المعنى الذي يخالف الظاهر، وهو اصطلاح المتأخرين من المتكلمين وغيرهم، وهو نوعان: صحيح وفاسد. فالصحيح ما دل دليل عليه، والفاسد مالا دليل عليه. مثال الصحيح تأويل قوله تعالى: ﴿فإذا قَرَأْتَ القُرآن فاستَعِذ باللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجيم﴾ [النحل: ٩٨]، بمعنى: إذا أردت أن تقرأ. ومثال التأويل

---

(١) ابن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، ص ٢٣٧.

الفاسد: تفسير استواء الله بالاستيلاء ويده بقوته أو نعمته»[1].

وإلى التأويل الفاسد يشر العلامة ابن أبي العز الحنفي بقوله: «فإنه قد صار اصطلاح المتأخرين في معنى التأويل: إنه صرف اللفظ عن ظاهره وبهذا تسلط المحرفون على النصوص، وقالوا نحن نتأوَّل ما يخالف قولنا، فسموا التحريف تأويلاً، تزييناً له وزخرفة ليُقْبَل»[2].

فالتأويل الصحيح هو الذي يوافق ما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة، وما خالف ذلك فهو التأويل الفاسد، لذلك سمى ابن تيمية التأويل الفاسد تحريفاً.

لقد فتح صرف ألفاظ القرآن عن ظواهرها بغير دليل شرعي باب شر عظيم عبرت منه مؤامرات المشركين وأهل البدع على الإسلام وعلى القرآن. ذلك أن الضابط فيما يسوغ تأويله وما لا يسوغ يغدو مفقوداً.

ولا ريب أن العقل لا يصح أن يكون ضابطاً، فالعقل أمر نسبي، وعقول الناس مختلفة، بل عقل الشخص الواحد متفاوت. وإذا صح أن يكون العقل ضابطاً، فإن التأويلات التي يزعم أصحابها صحتها أكثر من أن تُحصى، ويلزم حينئذ كما يشير ابن أبي العز الحنفي محذوران عظيمان:

١ـ «أن لا نُقِرّ شيئاً من معاني الكتاب والسنة حتى نبحث قبل ذلك بحوثاً طويلة عريضة في إمكان ذلك بالعقل. وكل طائفة من المختلفين في الكتاب يدَّعون أن العقل يدل على ما ذهبوا إليه، فيؤول الأمرُ إلى الحيرة المحذورة.

٢ـ إن القلوب تتخلى عن الجزم بشيء تعتقده مما أخبر به الرسول،

(١) فتح رب البرية بتلخيص الحموية، ص ٥٠.

(٢) ابن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، ص ٢٣٢.

إذ لا يوثق بأن الظاهر هو المُراد، والتأويلات مضطربة، فيلزم عزل الكتاب والسنة عن الدلالة والإرشاد إلى ما أنبأ الله به العباد وخاصة النبي، هي الأنباء والقرآن»[1].

الحقيقة والمجـاز:

إن الظن بأن هناك مجازاً في القرآن الكريم كان سبباً لفتح باب شر عظيم في فهم القـرآن وآياتـه، دخله واستغلّه أسوأ استغلال أتباعُ الفرق الإسـلامية والمتكلمـون فانتصروا لآرائهم بادعاء أن هذه اللفظة أو تلك مجاز، وأوّلوها تَبَعاً لما ذهبت إليه مذاهبهم، لذا وجب سد هذا الباب. ولحسن الحظ فإن هنـاك من الأدلة التي تُعين على سده الشيء الكثير. فالقرآن أُنزل بلسان عربي مبين وهو كتاب فُصلت آياته.

وكان من أبرز من حذّر من الشر الذي أحدثه المجازُ شيخُ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، ونسوق فيما يلي موجزاً ملخصاً لما أورده من أدلة بهذا الخصوص في كتابه «الإيمان»[2]:

١ـ إن تقسيم الحقيقة والمجاز هذا جاء متأخراً بعد القرون الثلاثة الأولى. وهذا التقسيم اصطلاح حادث لم يتكلم به أحد من الصحابة ولا التابعين ولا أحد من الأئمة المشهورين.

٢ـ أول من عُرف أنه تكلم بلفظ المجاز أبو عبيدة. معمر بن المثنى، ولكنه لم يَعْنِ بالمجاز أنه المقابل للحقيقة، وإنما عنى بمجاز الآية ما يُعَبّر به عن الآية.

٣ـ الغالب أن هذا الإصطلاح كان من جهة المعتزلة ونحوهم من المتكلمين.

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٣٦.

(٢) ابن تيمية، الإيمان، ص ٨٣ ـ ٩٣.

٤- إن الشافعي وهو الذي كان أول من جرَّد الكلام في أصول الفقه لم يقسم هذا التقسيم، ولا تكلم بلفظ الحقيقة والمجاز، وكذلك سائر الأئمة، إلا في كلام أحمد بن حنبل فإنه قال في الرد على الجهمية في قوله «إنا ونحن» ونحو ذلك في القرآن: هذا من مجاز اللغة.

٥- إن بعضهم أنكر أن يكون ابن حنبل أو غيره نطقوا بهذا التقسيم فقال: إن معنى قوله: «من مجاز اللغة» أي: ما يجوز في اللغة أن يقول الواحد العظيم الذي له أعوان «نحن فعلنا كذا وكذا ونفعل كذا» فإن ابن حنبل لم يُرد أن اللفظ استُعمل في غير ما وضع له.

٦- إن طائفة انكرت أن يكون في اللغة مجازٌ سواء في القرآن أو غيره كالإسْفرايِينيّ.

أمثلة على التأويلات الفاسدة:

١- إنكار أن يكون لله عرش حقيقة، وتأويل العرش في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ استَوى عَلى العَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] بملك الله.

٢- إنكار صفة الرضى لله عز وجل، وتأويل صفة الرضى في قوله تعالى ﴿رَضيَ الله عنْهُم وَرَضُوا عنهُ﴾ [المائدة: ١١٩]، بإرادة الإحسان.

٣- إنكار صفة الغضب لله عز وجل، وتأويل صفة الغضب في قوله تعالىٰ: ﴿وَغَضِبَ الله عَلَيهِ وَلَعَنَهُ﴾ بإرادة الإنتقام.

٤- إنكار أن لله يدين، وتأويل يدي الله التي وردت في القرآن الكريم بالقوة أو النعمة.

٥- إنكار أن يكون لله كرسي حقيقة، وتأويل لفظ الكرسي في قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰوات والأرض﴾ [البقرة: ٢٥٥] بالعلم.

٦- إنكار أن يكون لله وجه حقيقة.

٧ـ إنكار أن يكون لله عين حقيقة، وتأويلها بالعلم أو الرؤية.

٨ـ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّم كثيراً من الجِنّ والإنْس﴾ [الأعراف: ١٧٩]. فسر المعتزلة ذرأنا لجهنم: أي ألقينا فيها. دفعهم لذلك اعتقادهم أن الله لا يخلق الهداية والضلالة، وأنه لم يخلق خلقاً للنار وخلقاً للجنة.

٩ـ قوله تعالى ﴿عَمَّ يَتَساءلون. عَن النَّبَأ العَظيم. الذي هُم فِيه مُخْتَلِفون﴾ [النبأ: ١ ـ٣] يفسره الشيعة بما يلي: كان علي بن أبي طالب يقول لأصحابه: والله أنا النبأ العظيم، الذي اختلفت فيه جميع الأمم بألسنتها والله ما لله نبأ أعظم مني.

١٠ـ قوله تعالى: ﴿وعصىٰ آدمُ ربَّه فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١] فسر بعض المعتزلة «غوى» بمعنى اتخم من أكل الشجرة.

١١ـ قوله تعالى: ﴿ولله علَى النَّاس حجُّ البَيْتِ من استَطَاع إليه سبيلاً، ومن كَفَرَ فإنَّ الله غَنيٌّ عَنِ العالَمِين﴾ [آل عمران: ٩٧] استدل بها الخوارج على تكفير تارك الحج. ولا ريب أن ترك الحج من غير انكار ولا جحد لوجوبه لا يُعد كفراً.

١٢ـ قوله تعالى ﴿وُجوهٌ يَومَئذٍ ناضِرةٌ، إلى ربها ناظِرةٌ﴾ [القيامة: ٢٣] فسره المعتزلة بما يتمشى مع عقيدتهم الفاسدة بنفي جواز رؤية الله تعالى في الآخرة، وقالوا: إنَّ النظر هنا هو الانتظار للثواب، وإن كان المنتظر في الحقيقة محذوفاً. قال بذلك المعتزلة والاباضية.

١٣ـ قوله تعالى: ﴿إنَّما وَليُّكُم الله ورسولهُ والذين آمنوا الذين يقيمون الصَّلاة ويؤتونَ الزكاة وهم رَاكِعون﴾ [المائدة: ٥٥]. يذكر الشيعة أنها نزلت في علي حين سأله سائل وهو راكع في صلاتهِ، فأومأ إليه بخنصره فأخذ خاتمهُ منها، بمعنى أن الآية تدل على إمامته دون سواه.

١٤ـ قوله تعالى: ﴿وَكَلَّم اللهُ موسى تَكليماً﴾ [النساء: ١٦٤]. قرأ المعتزلة الآية هكذا «وكلم اللهَ موسى تكليما» بنصب لفظ الجلالة على أنه مفعول ورفع موسى على أنه فاعل انسجاماً مع عقيدتهم بنفي جواز تكلم الله[1].

من عثرات المفسرين:

١ـ الادعاء بأن للقرآن ظاهراً وباطناً:

يزعم الشيعة بأن للقرآن ظاهراً وباطناً، وأن الناس لا يدركون الباطن وإنما يدركه الإمام المعصوم الذي أُودع علم النبوة، وهذه الوديعة التي أودعها النبي علياً رضي الله عنه، قد أودعها علي الإمامَ من بعده وهكذا.

ومن مراجع الشيعة في التفسير «مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار» لعبد اللطيف الكازراني وتفسير الحسن العسكري. وبالرجوع إليهما يمكن إدراك خطر الشيعة على الإسلام بعامة وفهم القرآن بخاصة.

٢ـ شيوع الشطحات الروحية في بعض التفاسير وهذه تجعل الكلام غامضاً، وهو ما يبدو واضحاً في تفسير المتصوفة لآيات القرآن الكريم. وقد دعاهم لذلك طلب الدليل من نصوص القرآن لنصرة عقائدهم. ولذلك تكثر العبارات الغامضة في تفاسيرهم.وأشهر التفاسير من هذا النوع تفسير القرآن للشيخ محي الدين بن عربي المعروف بـ «فصوص الحكم» ومن كتابه هذا وغيره من كتب الصوفية أقتبس للقارىء الكريم ما يأتي:

ـ قال ابن عربي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَنَسُوق المُجْرمين إلى جَهَنَّم وِرْداً﴾: فنسوق المجرمين، وهم الذين استحقوا المقام الذي ساقهم إليه بريح الدبور التي أهلكهم عن نفوسهم بها فهو يأخذ بنواصيهم، والريح تسوقهم ـ وهي عين الأهواء التي كانوا عليها ـ إلى جهنم ـ وهي البعد الذي

---

(١) انظر تفسير «الكشاف» للزمخشري المعتزلي (١/٣٩٧ ـ ٣٩٨).

كانـوا يتوهمونه، فلما ساقهم إلى ذلك الموطن حصلوا في عين القرب، فزال البعد، فزال مسمى جهنم في حقهم، ففازوا بنعيم القرب»[1].

ـ وفسّـر السهـروردي قولـه تعـالى: ﴿أنزلَ مِنَ السَّماء ماء فسالت أودية بقـدرهـا﴾ أنـزل من السمـاء ماء أنـواع الكرامات فأخذ كل قلب بحظه ونصيبه. فسالت أودية قلوب العلماء وأودية قلوب الصوفية»[2].

ـ وفسّر الغزالي قوله تعالى ﴿ومَنْ يتق الله يَجعل له مخرجاً وَيرزقه مِنْ حيث لا يحتَسِبْ﴾ يجعل له مخرجاً من الأشكال والشبهة ويرزقه علماً من غير تعلم وفطنة من غير تجربه[3].

ـ وفسّر ابن عربي قوله تعالى ﴿بل هو ما ٱستَعْجلتم بِه ريح فيهَا عَذابٌ أليم﴾ أي جعل الريح إشارة إلى ما فيها من الراحة فإن هذه الريح اراحتهم من هذه الهياكل المظلمة والمسالك الوعرة وفي هذه الريح عذاب أي أمر يستعذبونه إذا ذاقوه إلا أنه يوجعهم لفرقة المألوف»[4].

ـ وقال ابن عربي في قوله تعالى ﴿الرحمن على العرش استوىٰ﴾الحقيقة المحمدية الموصوفة بالاستواء على العرش الرحماني الالهي[5].

ـ وفسّر السهروردي قوله تعالى ﴿وجاهدوا في سبيل الله حق جهاده﴾ هو مجاهدة النفس والهوى وذلك حق الجهاد وهو الجهاد الأكبر[6].

---

(١) فصوص الحكم، ١٠٨ (الفص الهودي).
(٢) عوارف المعارف على هامش الاحياء (٢/ ٥٦).
(٣) إحياء علوم الدين (٣/ ٢٠).
(٤) فصوص الحكم، ١٠٩.
(٥) الفتوحات المكية (١/ ١٥٢).
(٦) عوارف المعارف على هامش الاحياء (٢/ ٥٦).

ـ ويفسّر ابن عربي قوله تعالى على لسان نوح ﴿رب اغفر لي﴾ أي استرني، (ولــوالــدي) يعني العقــل والـطبيعــة و (لمن دخـل بيتي) يعني قلبي، (للمؤمنين) أي العقول، (والمؤمنات) أي النفوس (ولا تزد الظالمين) أي أهـل الغيب، (إلا تبارا) أي هلاكاً، فلا يعرفون نفوسهم لشهودهم وجه الحق دونهم، ثم يقـول بعد ذلك: «ومن أراد أن يعرف أسرار نوح فعليه بالرقي في فلك نوح، وهو في (التنزلات الموصلية) لنا والله يقول الحق»[1].

وقد أدى هذا الأسلوب بالمتصوفة إلى تفسير نصوص القرآن الكريم وفقاً لعقائد دخيلة، أرادوا البرهنة على صحتها، ففسروا الآيات التي تدل على إحاطة علم الله بخلقه كقوله تعالى ﴿وَلَقد خَلَقنا الإنسانَ ونعلمُ ما تُوَسوسُ به نفْسُه، ونحنُ أقرب إليه مِنْ حبلِ الوَريد﴾ [ق: ١٦] وقوله ﴿ما يكونُ من نجوى ثلاثةٍ إلا هو رابعُهُم ولا خمسةٍ إلا هو سادِسهمُ ولا أدنى من ذلكَ ولا أكثَرَ إلا هُو مَعَهُم أينما كانُوا﴾ [المجادلة: ٧] فهذه الآيات حمولها على وحدة الوجود وعدم الإنفصال بين الخالق والمخلوق.

٣ـ تحميل نصـوص القـرآن أكثـر مما ينبغي، والادعاء بأنها شاملة لكل شيء، بما في ذلك أنواع المعارف والعلوم كلها دون استثناء. وهكذا فإن فيه نظريات فيزيائية وكيميائية... الخ. ولا شك أن هذا امرٌ خطير يخرج بالقرآن الكريم عن اتجاهه الصحيح إلى اتجاه منحرف.

والحقيقة أن نزعة التفسير العلمي ليست جديدة فقد ظهرت في أيام العباسيين وامتدت إلى أيامنا هذه. وقد كانت الغاية منها التوفيق بين القرآن وبين ما استجد من علوم. وقد ألفت كتب في استنباط العلوم من القرآن. وفيما يلي أمثلة تبين هذه النزعة قديماً وحديثاً:

---

(١) فصوص الحكم، ٧٤.

أ ـ يقول أبو حامد الغزالي «إن كل ما أشكل فهمه على النظار واختلف فيه الخلائق في النظريات والمعقولات، في القرآن له رموز ودلالات علمية يختص أهل الفهم بدركها[1]».

ب ـ خصص الغزالي الفصل الرابع من كتابه «جواهر القرآن» لكيفية انشعاب العلوم الدينية كلها وما يتصل بها من القرآن وهذا حق لا مراء فيه. وخصص الفصل الخامس لكيفية انشعاب سائر العلوم من القرآن أيضاً ويوضح فكرته تلك بسرد عدد من الآيات القرآنية، وصلتها ببعض العلوم ويختم كلامه بقوله «فتفكر في القرآن والتمس غرائبه لتصادف فيه مجامع علم الأولين والآخرين»[2].

جـ ـ يزعم بعض المتقدمين كأبي الفضل المرسي ما يلي:

- إن علم الهندسة موجود في قوله تعالى في سورة المرسلات ﴿إنطلقوا إلىٰ ظل ذي ثلاث شعب﴾ فإن فيه قاعدة هندسية وهي أن الشكل المثلث لا ظل له[3].

- إن الجبر والمقابلة مأخوذان من أوائل السور، فإن فيها ذكر مدد وأعوام وأيام التواريخ لأمم سالفة. وإن فيها بقاء هذه الأمة، وتاريخ مدة أيام الدنيا وما مضى وما بقي مضروب بعضها في بعض[4].

د ـ ذكر السيوطي عن بعض العلماء: أنه استنبط أن عمر النبي ﷺ ثلاث وستون سنة من قوله تعالى في سورة المنافقون ﴿ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها﴾ [الآية: ١١] فإن هذه السورة هي السورة الثالثة والستون في القرآن

(١) الغزالي، إحياء علوم الدين، جـ ٣، ص ١٣٥.

(٢) الغزالي، جواهر القرآن، ص ٣٢ ـ ٣٤.

(٣) بدع التفاسير، ص ٧٦.

(٤) بدع التفاسير، ص ٧٦.

الكريم. وعقبها بالتغابن ليظهر التغابن في فقده[1].

وفي العصر الحديث كان أبرز من سلك مسلك النزعة العلمية الشيخ طنطاوي جوهري في تفسيره «الجواهر في تفسير القرآن الكريم» حيث ذكر فيه كل العلوم، لهذا قوبل تفسيره بمعارضة كبيرة فهو مثلاً عندما يفسر الآية (٦٧) وما بعدها من سورة البقرة نجده يقول: «وأما علم تحضير الأرواح فإنه من هذه الآية استخراجه • إن هذه الآية تتلى والمسلمون يؤمنون بها حتى ظهر علم الأرواح بأمريكا أولاً ثم بسائر أوروبا ثانياً... ثم قال ولما كانت السورة التي نحن بصددها قد جاء فيها حياة العزيز بعد موته، وكذلك حماره، ومسألة الطير وإبراهيم الخليل، ومسألة الذين خرجوا من ديارهم فراراً من الطاعون فماتوا ثم أحياهم الله... وعلم الله أننا نعجز عن ذلك جعل قبل ذكر تلك الثلاثة في السورة ما يرمز إلى استحضار الأرواح في مسألة البقرة»[2].

وهناك أمثلة أخرى نرى من خلالها كيف حاول بعض المفسرين اقحام أمور غريبة على القرآن الكريم منها:

- التغير الكيميائي ناشيء عن اختلاف نسبة المقادير وذلك مصداقاً لقوله تعالى ﴿وكل شيء عنده بمقدار﴾ [الرعد: الآية ٨].

- إن طريقة إمساك الظل، أي التصوير الشمسي وردت في القرآن. يقول عز وجل ﴿ألم تر إلى ربك كيف مدَ الظِل وَلو شاءَ لَجَعلَه ساكناً ثمَ جَعَل الشَمس عليه دليلًا﴾ [الفرقان: الآية ٤٥].

- ومن الأمثلة على محاولات التوفيق بين حقائق شرعية وبين نظريات علمية تفسير الشيخ محمد عبده لقوله تعالى: ﴿الذنَ يأكُلونَ الرِّبا لاَ

---

(١) السيوطي، الاكليل في استنباط التنزيل، ص ١٣.

(٢) الشيخ طنطاوي جوهري، الجواهر في تفسير القرآن الكريم ج١، ص ٧١ - ٧٧.

يَقومونَ إلا كَما يَقوم الذي يتخبطه الشَّيطان من المَس﴾ فقد فسر الشيخ «الشيطان» بالجراثيم. وهذا يتعارض مع الحقائق التي قررها القرآن في غير موضع بخصوص وجود أجسام مخلوقة من النار تدعى بالجن، وأنهم مكلفون وأننا وإن كنا لا نراهم فإنهم يروننا.

وفي تفسيره لقوله تعالى: ﴿يا أَيُّها النَّاسُ اتَّقوا رَبَّكُم الذي خَلَقَكُم مِنْ نَفْس واحِدةٍ﴾ [النساء: ١]، يقول: ليس من الضروري أن كل البشر من آدم، إذ إن (نفس واحدة) هنا هي نكرة. وفي معرض الكلام عن قوله تعالى: ﴿ولولا دفعُ الله الناسَ بعضهم ببعض﴾ [البقرة: ٢٥١] يشير إلى امكانية احتمال نظرية دارون[١].

٤ـ ومن عثرات المفسرين ما نلمسه في بعض التفاسير من اطناب ارباب العلوم المختلفة كالنحوي والفقيه والمؤرخ والاديب والمتكلم في علومهم واستطرادهم عند تفسيرهم للقرآن الكريم من غير ضرورة ولا حاجة إلى مثل ذلك الاستطراد.

---

(١) انظر تفسير المنار جـ ٢، ص ٤٩٧، جـ٣ ص ٩٦.

الفقه وعثرات الفقهاء

يمكن لنا أن نُعَرّف الفقه بأنه: العلم بالأحكام الشرعية التفصيلية التي تتعلق بالعبادات والمعاملات والأحوال الشخصية والجنايات، ولكن ليس بالعقيدة. وأدلة الأحكام الفقهية: الكتاب والسنة والإجماع والقياس الصحيح.

«وقد ازدهر الفقه ازدهاراً عظيماً في القرون الأولى من الإسلام، وعلى هذا مضت دولة المسلمين صاعدة في عنفوانها قويةً يقظةً. وتربى بين أحضان هذه القوة وهذه اليقظة فقه إسلاميٌّ صافٍ من شوائب الزيف والفساد، فقه مصقول تبدو مظاهره جلية في مجالات الإجتهاد عند أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل وغيرهم من أئمة الاجتهاد، الذين شاركوا مشاركة فعالة في تزويد الفكر الإنساني بثروة لم تزل ثرة المنابع.

وهكذا استمر الفقه الإسلامي في أداء رسالته قروناً، ثم لم يلبث أن اعتراه فتور ظل يتزايد يوماً فيوماً، حتى آل به إلى الركود والتوقف عن كل اجتهاد»[1].

إغلاق باب الإجتهاد وركود الفقه:

إن قوة زخم الفقه لم تستمر كما هي، فأخذوضع الفقه بالانحدار حتى بدأ دور الركود نظراً لعوامل عديدة أهمها التعصب المذهبي وحظر الاجتهاد، فقد توقف كثير من علماء الإسلام عن الاجتهاد نظراً للدعوى الخاطئة القائلة بإغلاق بابه. ولم يكن الأمر كما ذهب إليه مصطفى

(١) مصطفى التا.زي، الاجتهاد والتجديد في التشريع الإسلامي، ص ٢٥٥.

التـارزي ورفقـاؤه من أن الاضـطراب السياسي والاجتماعي كان السبب الرئيس في ايجاد جو الخمول العلمي. يقول مصطفى التارزي: «إذ مع بداية القرن الخامس الهجري كانت البلاد الإسلامية ممالك صغيرة يسيطر عليها حكام انشقوا عن سلطان الخلافة. وكان يحفزهم الطمع في سعة السلطان إلى مقاتلة بعضهم، بل إن أكثرهم كان لا يتورع في سبيل مأربه أن يستعين بالروم أو بغيرهم من أعداء الإسلام على محاربة من جاورهم من المسلمين وخضد شوكتهم وقعد المسلمون عن مقاومة أعدائهم وضعفوا حتى أخـذت تداهمهم الكـوارث من كل جانب وتـوالت عليهم عوامـل الضعف تبـاعـاً، فاصيبوا بزحف المغول الذين اجتاحوا البلاد الإسلامية وعاثوا فيها فساداً حتى إن المكتبات لم تسلم من اذاهم.

ثم شنَّ الصليبيون حملاتهم بدافع التعصب الديني والجشع المادي لفترات تنـاهـز القرنين، لاقى أثناءهما المسلمون من الفتور ما أضعف تفكيرهم، وحدَّ من نشاطهم العقلي. ثم برزت الفتن الداخلية، وكان لا بد أن تفضي إلى عدم استقرار الحكم، خصوصاً وقد هيأ لها ذلك ما كان موجوداً من فوضى القوانين واستحكام الاستبداد.

وطبيعي أن لا تكـون هنـاك حياة اجتمـاعية مستقـرة في هذا الجـو السياسي المضطرب. فقد أفضى تنازع الأمراء فيما بينهم وتتابع الغارات على البلاد الإسلامية إلى اختلال الأمن في البلاد ووجود حالة من الرعب والفزع سكنت قلوب الناس. وكاد اسم الحاكم يصبح مرادفاً لمعنى الجور والنهب والاستيلاء، وبهذا أضحى المواطن غير مطمئن على نفسه وماله وحرمه، فأفضى الأمر إلى نقص في الأموال والأنفس والثمرات فانتشرت الفاقة وكثر اللصوص وقطاع الطرق واشتد الغلاء، فكان الناس إزاء هذا الوضع صنفين: ذوي يسار اخلدوا إلى الترف والراحة، وذوي عسرة ركنوا إلى التعطل والبطالة.

كان من أبـرز نتـائج هذا الوضع أن ضعفت الحركة العلمية وتوقف الفكر الإسلامي إلى حين. فمن العسير أن نجد للفكر حركة نشيطة مثمرة في زمن تضطرب فيه السياسة ويفقد الناس فيه الاستقرار وكل ما يمكنهم من الاشتغال بالبحث والتفكير، إذ الظلم عدو الفكر الحر، كثيراً ما يكبته ويغله»[1].

إن مثل هذا الربط بين الحياة السياسية والحياة العلمية أمر عليه بعض الملاحظات. ذلك ان الواقع المشاهد في عصور الإسلام أنه ليس هناك ترابط شديد، فالاضـطراب السياسي لم يؤثـر كثيراً على النشاط العلمي والانتاج الفكري، وما ذلك إلا لأن دور الحكومات كان محدوداً، فقد كان مقصـوراً على حماية الثغور والقضاء وما يتعلق بذلك. أما شئون الحياة الأخرى فأثر الحكومة السياسي فيها بعيد، بخلاف عصرنا الحاضر حيث اتسـع دور الحكـومـة وأثـرهـا في الناس تربية وتعليماً واقتصاداً وسياسةً واجتماعاً وإعلاماً.

إن أسباب خمول الحركة العلمية والفكرية ينبغي أن يُبحث عنها في أوساط الحركة العلمية نفسها. فقد بلغ التعصب إلى حد اعتبار اقوال أئمة المـذاهب بمثـابة أدلة مستقلة يُستشهد ويُستدل ويُحتج بها. وبمثل هذا التفكير انغلق باب الإجتهاد وانفتح باب التقليد على مصراعيه مما كان له الأثـر السَّيء على جمود الفقه وعدم مسايرته لمشاكل الحياة المتجددة. وقصـة التعصب المذهبي وعلاقته بالتقليد يرويها بتفصيل أكثر مصطفى التارزي إذ يقول: «لقد ضيق الفقهاء على أنفسهم فالتزموا مذاهب معينة ودرسـوا فقهها دون تصرف، واجتنب أهل الفكر والنظر والصَّدع بآرائهم الاجتهادية، ورُدَّ الناس إلى تقليد الأئمة الأربعة، وتشبث كل مقلد بمذهب

---

(١) الاجتهاد والتجديد في التشريع الإسلامي، ٢٥٦ ـ ٢٥٨.

إمـامه، فاتسعت شقة الخلاف بين المقلدين، حتى أصبحت المذاهب كأنها ديانات مختلفة.

على أن هذا التقليد لم يصر إليه الفقهاء دفعة واحدة، فحتى مطلع القـرن الخـامس الهجـري لم يخـل زمن من وجـود علماء قدموا فتاوى واجتهادات جريئة فيما جد من القضايا.

وبين القرنين الخامس والسادس لم يَدْعُ أحدٌ الاجتهاد بمعناه الكامل، وإنما وجد فقهاءُ ذوو اقتدار على الاستنباط في حدود مذاهبهم. ومن أواخر القرن السابع لم يوجد غير فقهاء ذوي فتاوى وترجيحات، وبذلك ضاقت مجالات الاجتهاد حتى ذهب الظن ببعض الناس إلى أن باب الاجتهاد قد أغلق.

لقـد أعرض كثير من الفقهاء عن النظر في الكتاب والسنة، وشرعوا يجترون بعض الكتب الفقهية القديمة، ولم يجددوا في شيء منها. فهم بدل أن ينـاقشوا جوهرها ويتدارسوه ويغربلوا محتواها وينقدوه ويصححوا أوضاعها ويضيفوا إليها عكفوا على مناقشة جزئيات لفظية، واغرموا بجدل لا يجـدي نفعـاً وخـلافات سطحية حول هذه الجملة أو تلك، والتأمت مجـالس لفحص فقرة أو نقد تعبير، وانكبوا على هذا الرأي أو ذاك، أو يشرحون هذا المتن أو يحشون على هذا الشرح أو يعلقون على هذه كثيراً من وقتهم في خصومات صاخبة لم تعد على الإسلام والمسلمين بأية عائدة.

وقضى المسلمـون قرونـاً على هذا الشكـل حتى اضمحلت منـابع حياتهم الفكـرية وفقدت عناصر تغذيتها فقد تضاءلت آثار الفكر المبتكر والرأي المجدد، وظل الفكر الإسلامي يخبط في ملتويات التقليد، وأصبح العلم في مفهـوم النـاس لا يعني أن يكتشف الإنسان معارف جديدة أو

يجاهد في سبيل الحصول عليها، وإنما يعني فقط أن يتمسك أشد ما يكون بمـا خلفه له الأوائل من تراث. وأصبح قصارى جهد العالم أن يفهم ما قيل، ويحفظ من كلام السابقين ما وسعته الطاقة»[1].

من عثرات الفقهاء:

إن العـلاقـة بين التقليد والاجتهـاد علاقـة عكسية، فقد أُغلق باب الإجتهـاد حينمـا ساد التقليد كما أن اتخاذ التقليد منهجاً رسَّخ من نزعة التعصب المذهبي وزاد من مقاومة الإجتهاد، حتى اتُهِم كل من نادى به بمخالفة إجماع الأمة، وقد سادت مظاهر معينة نتيجة لذلك، نستطيع أن نقول: إنها مظاهر انحراف الفقه عن جادة الصواب:

١ـ اتباع إمام مذهب أو فقيه من الفقهاء على أساس أنه يستحيل منه الخطأ وأن الصواب هو ما قاله. فيتم التعامل مع أقوال الأئمة على أنهم معصومون وأن خطئهم مستحيل. لذلك لا يجرؤ كثيرٌ من المقلدين أن يقول: أخطأ الإمام في هذه المسألة حتى لو وقع على دليلٍ محكم قاطع الدلالة واضح المعنى من الكتاب أو السنة يخالف قول إمامه. وهو بذلك يُقدِّم أمر غير الله على أمر الله مرتكباً بذلك شركاً أو ذريعة إلى الشرك.

٢ـ ونتيجـة لذلك أعرض الناس عن الكتاب والسنة والتزموا بآراء الفقهاء وَعَدّوها هي الدين.

٣ـ وبـدلاً من أن تُحَـل المشاكل المستجدةُ على ضوء نصوص الكتاب والسنـة أصبحت تحـل على أسـاس تطبيق نصـوص الكتب الفقهية واجتهادات الفقهاء.

٤ـ تقليد فقهاء المذاهب دون معرفة الدليل الشرعي عليها والتعامل مع أراء

---

(١) مصطفى التارزي، الاجتهاد والتجديد في التشريع الإسلامي، ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩.

الفقهاء على أنها أدلة بحد ذاتها، ودون اخضاعها لنصوص الكـ
والسنة، وبذلك تعطل نمو الفقه.

٥ـ وعلى الرغم من وضوح ضعف الرأي الفقهي أحياناً لدى المقلدين ومخالفته لآية أو حديث، فإن كثيراً منهم يتمسك برأي مذهبه ويحاول أن يجد مسوغاً له بتأويل الآية أو الحديث المعارض لرأي مذهبه لصالح ذلك الرأي. وهذا ناتج عن عزم وتصميم سابقين على عدم ترك المذهب وإن ظهر الدليل على خلافه.

٦ـ قاد التعصب المذهبي إلى فرقة المسلمين فقد أدى التنافس بين أتباع المذاهب المقلدين إلى التباغض إلى حد أنهم أحياناً تركوا الصلاة وراء بعضهم بعضاً، وفي بعض الأحيان لا يتزوجون من بعضهم بعضاً، ولا يستفتون بعضهم البعض، فأين هذا من الإسلام وما جاء به من وحدة؟!

٧ـ ونتيجة لذلك «حُرمت الأمة الافادة من أقوال صحيحة خالف الأئمة الأربعة فيها مجتمعين الحديث الصحيح كطلاق الثلاث هل يقع ثلاثاً أو طلاقاً واحداً. فبينما يقول الأئمة الأربعة جميعاً انه يقع ثلاثاً وبذلك من قال لامرأته (انت طالق ثلاثاً) فإنها لا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره. مع العلم أن الحديث الصحيح بخلاف ذلك فقد كان الطلاق ثلاثاً يقع واحداً في زمن رسول الله وأبي بكر وصدراً من خلافة عمر. وهذه المسألة افتى بها ابن تيمية رحمه الله وكانت السبب في اتهامه بالكفر والردة بناء على أن الدين فقط هو ما قاله الأئمة الأربعة وأنه ليس هناك دين وراء ذلك!»[1].

---

(١) السلفيون والأئمة الأربعة، ٤٤ ـ ٤٥، والحديث كما رواه مسلم عن ابن عباس قال «كان طلاق الثلاث في عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وسنتين من خلافة عمر طلاق الثلاث واحدة فقال عمر بن الخطاب إن الناس قد استعجلوا في أمر كانت لهم فيه أناة فلو أمضيناه عليهم فرضاه عليهم» صحيح مسلم بشرح النووي جـ ١٠ ص ٧٠.

٨ـ انتشار التلفيق وهو الاتجاه إلى جمع الرخص من كل مذهب والتي تناسب هوى الشخص المتبع لها فوقعت نتيجةً لذلك كثير من المخالفات الصريحة للكتاب والسنة.

٩ـ ونظراً للتقوقع على آراء المذهب الواحد والتعصب له توقف الاجتهاد، الذي يُعد على طرف النقيض للتمذهب. فالاجتهاد يقتضي الرجوع إلى الأدلة الأصلية الشيء الذي يضمن الانتقال من ضيق المذهبية إلى سعة الإسلام.

١٠ـ وهكذا توقفت حركة استنباط أحكام للوقائع المتجددة نتيجة لضعف العلم بالكتاب والسنة وحظر الإجتهاد مما أدى إلى عزل الشريعة عن حياة الناس.

١١ـ اهتمام بعض الفقهاء بالجزئيات أكثر من اهتمامهم بالقضايا الأهم. كما كان اهتمامهم مركزاً إلى حد ما على افتراضات غير واقعية فتخيلوا وقوع مسائل وبحثوا لها عن أجوبة.

١٢ـ ربط الحكم الشرعي بالحكمة لا بالعلة. والحكمة المترتبة على الحكم مثل النظافة الناشئة عن الضوء، أما العلة فهي سبب تشريع الحكم. والخطورة في ربط الحكم بالحكمة أن الأخيرة لا ضابط لها، وقد يمكن استنباطها وقد لا يمكن، فما الحكمة التي يمكن أن تستنبط من كون صلاة الفجر ركعتين؟ وإذا استنبطت فإن إمكانية الاختلاف بين الناس في استنباطها متوفرة. هذا بالإضافة إلى أن الدافع للأخذ بالحكم سيصبح مادياً نفعياً.

أما العلة فإن الأمر مختلف بالنسبة لها تماماً، فهي مستمدة من النص، وإمكانية الاختلاف في استنباطها قليلة وآثار هذا الاختلاف غير مهمة.

دفاعاً عن السنـة

إن المراقب لمجريات الأمور في مجتمعاتنا يلاحظ وجود ظاهرة معينة في المجتمـع الإسـلامي لهـا تأثيرها السلبي البالغ في التعامل مع سنة المصطفى ﷺ، كما أن تأثيراتها السلبية تنعكس على فهم الإسلام.

ولـلأسف فإن هذه الـظاهـرة داخلية، وأعني أنهـا نابعـة من داخل المجتمع الإسلامي، بل الأدهى من ذلك أنها صادرة من أناس يلبسـون لباس العلم ويتمسحون بالدين.

ولقـد كنت دومـاً ممن ينـظرون إلى ما يحيق بهذه الأمة من أخطار خارجية على أنـه أقـل شأنـاً من أن تكـون أخـطاراً حقيقية، وأن الخطر الحقيقي الـذي يهدد كيان الأمة هو من داخلها. فالضعف الحقيقي هو الضعف الذاتي، والخطر الحقيقي هو الخطر النابع من الذات، كما أن القوة الحقيقية هي القوة الذاتية.

لقد تعرضت السنة مع مرور الأيام والسنين للأذى من ثلاث جهات:

أولاً: الـدس عليهـا والـطعن في صحتهـا، ممثـلاً ذلـك في وضع الأحاديث والكذب على رسول الله ﷺ في العصور الأولى، ثم في الطعن في صحـة الأسانيد والمتون في العصور المتأخرة من قبل المستشرقين. وهذا هو أقل أذى تعرضت له السنة. ولا حاجة لنا للكلام عنه، فقد كفانا علمـاء الحـديث مؤونـة تمييز الصحيح من الضعيف، كمـا أن حجـج المستشرقين واهية، وقد رد عليهم وفضح تعصبهم غير واحد من العلماء.

ثانياً: الجهل بالسنة وهو الأذى الآخر الذي تعرضت له السنة. وكما أن الإنسان عدو ما يجهل، فإن الجاهل بالشيء عدو له دون أن يدري.

إن اقتحام أناس لميادين ليسوا لها أهلاً أمر يرفضه الإسلام ويرفضه العلم وترفضه الموضوعية. والسنة ميدان له أهله وتخصص له رجاله. وإنه ليشتد عجب المرء حينما يرى المسلمين وقد جَبُنوا عن الكلام في غير تخصصاتهم، لكن الجرأة تأخذهم إلى الكلام في دين الله بغير علم، ولا يدرون أن ذلك من أعظم الكبائر. وسنتكلم عن هذا الأذى بالتفصيل مع الأمثلة فيما سيأتي.

ثالثاً: أما الخطرُ الأدهى والأمرُ الذي يُهدد السنة دوماً وكان خطراً حقيقياً فعلاً، فهو ممن يدَّعون أنهم مسلمون ويزعمون أنهم يعلمون. ويتمثل ذلك في دعواهم أن السنة فوق مدارك عقولنا وأنه بناء على ذلك فإنه من الأسلم عدم أخذ الأحكام منها والاتجاه إلى بطون كتب الفقه للإفادة منها وحدها فقط.

ومع أنه يبدو للناظر لأول وهلة في هذه الحجج والدعاوى حسن القصد وطيب النية بل الإخلاص للسنة وصاحبها أيضاً. إلا أنه سيظهر لنا حينما نستعرض هذه الحجج أن نُصحَ أصحابها فيه ما فيه من الشر والصد عن سنة رسول الله ﷺ فتعالوا بنا نرى ما يقول هؤلاء الحريصون على الإسلام!!!

أولاً: يقولون إن هناك ضرورة تقتضي قصر العمل بالأحاديث وفهمها على العلماء الأوائل، ويزعم هؤلاء أن السنة لا تبلغ إليها مدارك المسلمين الآن، ومن هنا فإنه حفاظاً عليها يرون أن لا تُؤخذ منها الأحكام، وأن يُركنَ إلى أقوال الفقهاء واجتهاداتهم ويُسلَّم لهم فهذا أسلم. إننا لن نُسيء الظن بهؤلاء، لكن أليس حبهم للسنة ينطبق عليه المثل القائل «عدو عاقل خير

من صديق جاهل». ففي الوقت الذي طعن فيه المستشرقون بالسنة، ولم ينالوا منها خيراً، جاء هؤلاء ليضعوها في المتحف حفاظاً عليها من فهم المسلمين لها، ولم يدروا أن هذا القول ينسف الإسلام من أساسه. إذ من السهل أن يستنتج آخرون منه ما يلي: بما أن حديث رسول الله ليس بيناً واضحاً، بل هو غامض علينا، فإنه بناء على ذلك لا يكون الإسلام صالحاً لهذا العصر وإنما هو صالح لعصر خاص مضى وانقضى، عصر كان من الممكن فيه فهم السنة. وبما أن السنة لا يمكن فهمها، فإن القرآن من باب أولى لا يمكن فهمه، وبهذا نفقد الإتصال بمصدري الإسلام الأصليين، مما يهيء الفرص لتحريف الإسلام وتزويره، وأن يحل به ما حل بغيره.

ثانياً: إنهم يدعون إلى إلحاق الفقه بالكتاب والسنة في المكانة والأهمية. وسنناقش هذه القضية بالتفصيل إن شاء الله حينما نعرض لما يجب أن تكون عليه العلاقة بين الفقه والسنة.

ثالثاً: إنهم ينادون بالعمل بالضعيف من الأحاديث، وبعضهم يرى قصر العمل بالضعيف على فضائل الأعمال، وهذا أمر خطير. إذ إن التهاون في هذا الباب يفتح باب العمل بالضعيف في أبواب أخرى من الإسلام. وهل بلغ الجهل بهؤلاء إلى التعامل مع الضعيف على أنه حديث. والحق أنه ليس حديثاً لأن شروط الصحة لم تتوفر أصلاً في الإسناد، ونحن ندعوه حديثاً كما نطلق على المنسوب كذباً إلى رسول الله ﷺ حديثاً موضوعاً. وتناسى هؤلاء أمراً آخر هو أن هناك من الآيات والأحاديث الصحيحة في فضائل الأعمال ما فيه الكفاية وما يُغنينا عن الضعيف.

رابعاً: أنهم يُحذرون المسلمين من خطورة العمل بالحديث، ويزعمون أنه ليس هناك اتفاق بين علماء الحديث على الصحيح والضعيف، فما يراه فلان صحيحاً يراه الآخر ضعيفاً. ما معنى هذا القول؟

معناه أنه لا وجود للسنة أصلاً في الإسلام، وهذا إنما يدل على سوء قصد لا على جهل. وللعلم فقط أقول: إن ما اختلف عليه علماء الحديث (وهذا هو المهم علماء الحديث المتخصصون) ما اختلفوا على تصحيحه وتضعيفه ليس بالكثير.

خامساً: يزعمون أن خبر الآحاد لا يصلح مصدراً للعقيدة لأنه ظني. والجواب على ذلك بما يأتي:

«إن التفرقة بين كتاب الله وسنة رسوله والأخذ بالكتاب فقط تكاد تكون قليلة بين المسلمين. أما التفرقة بين سنة رسول الله فتكاد تكون عامة، فإن كثيراً من المسلمين يفرقون بين المتواتر والآحاد فلا يأخذون بالآحاد فيما يخص العقيدة. ومن اين لهم الدليل وهيهات أن يأتوا به، إلا إذا كان الدليل كما يظنون أقوال العلماء. ولعلهم نسوا أو تناسوا أن قول غير الرسول يحتج له لا به، وإن الذي يحتج به هو قول الرسول ﷺ. فكان مثلهم في ذلك مثل اولئك النفر من أهل العربية الذي لا يُجيزون لأنفسهم اعتبار الأحاديث شواهد لقواعد اللغة بحجة أنها مروية بالمعنى لا باللفظ، في حين يعتمدون قصائد الشعراء دون سند ـ وقد يكون بعضها متحلاً ـ شواهد معتبرة ومهمة.

إن القول بعدم الأخذ بخبر الآحاد في العقيدة هو تفريق بين سنة رسول الله ﷺ وهو دعوى لا ينهض لها دليل، بل العكس هو الصحيح، فإن الأدلة من الكتاب والسنة على وجوب الأخذ بخبر الآحاد في كل ما يخص أصول الدين وفروعه متوافرة وكثيرة»[1]. ومن هذه الأدلة ما يأتي:

أـ قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ المؤمِنُون لِيَنفِرُوا كافَّةً، فَلَولا نَفَرَ مِنْ كلِّ فِرقَةٍ منهم طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهوا في الدِّين، ولِيُنذِرُوا قومَهُم إذا رَجَعوا إليهِم

---

(١) معالم التوحيد للمؤلف، ٦٣ ـ ٦٤.

لَعَلَّهم يَحْذَرُون﴾ [التوبة: ١٢٢] وذلك يشمل العقائد والأحكام العملية. والطائفة في اللغة تقع على الواحد فما فوق، فلو أن حديث الآحاد ليس حجة في العقائد لما حضّ الله تعالى الطائفة على التبليغ.

ب ـ إن القول بأن حديث الآحاد لا تثبت به عقيدة هو في نفسه عقيدة. وبناء على ذلك وجب على أصحابه أن يأتوا بالدليل القاطع على صحة هذا القول. والحق أنه لا دليل لهم إلا أقوال بعض العلماء. وكما يقول الشيخ محمد ناصر الدين الألباني: «لقد فروا من القول بالظن الراجح في العقيدة، فوقعوا فيما هو أسوأ منه وهو قولهم بالظن المرجوح فيها»[1].

جـ ـ قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْفُ ما ليسَ لكَ بهِ علمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦] أي لا تتبعه ولا تعمل به. ولو لم يكن خبر الآحاد حجةً في العقيدة، لما رأينا المسلمين من عهد الصحابة يقفون أخبار الآحاد ويعملون بها في العقيدة مثل أشراط الساعة وإثبات صفات الله. ولو صح ما ذهب إليه الرافضون للأخذ بخبر الواحد في العقيدة لكان السلف من الصحابة والتابعين وتابعيهم قد قَفَوْا ما ليس لهم به علم.

د ـ يحتج القائلون بعدم جواز الأخذ بحديث الآحاد في العقيدة بقولهم: إن حديث الآحاد لا يفيد إلا الظن، الشيء الذي لا يجوز الاخذ به في الأخبار الغيبية وفي مسائل العقيدة، وإن كان يجوز الأخذ به في مسائل الأحكام.

والسؤال الذي يطرح نفسه عليهم هو: ما هو دليلهم على التفرقة بين أدلة المسائل العملية وأدلة المسائل العقدية؟

---

(١) محمد ناصر الدين الألباني، الحديث حجة بنفسه في العقائد والأحكام، ص ٤٨.

هـ ـ لم يرد على الإطلاق ما يشير إلى تفريق الصحابة (سواء في حياة الرسول أو بعد وفاته) بين حديث الآحاد في العقيدة والأحكام، بل العكس من ذلك فقد ورد ما يفيد أنه حجة في كلا الموضوعين.

و ـ وردت أحاديث آحاد تفيد العلم اليقين في كثير من الأحيان. وهذا يثبت بطلان ما ذهب إليه القائلون بأن حديث الآحاد لا يفيد إلا الظن، من ذلك ما ساقه الشيخ محمد ناصر الدين الألباني بقوله: «من ذلك الأحاديث التي تلقتها الأمة بالقبول. ومنها ما أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما مما لم يُنتقد عليها فإنه مقطوع بصحته، والعلم اليقيني النظري حاصل به، كما جزم به الإمام ابن الصلاح في كتابه «علوم الحديث» (ص ٢٨ ـ ٢٩) ونصره الحافظ ابن كثير في (مختصره) ومن قبله شيخ الإسلام ابن تيمية، وتبعه العلامة ابن قيم الجوزية، في «مختصر الصواعق» (٢ / ٣٨٣)، ومثّل له بعدة أحاديث، منها حديث عمر: إنما الأعمال بالنيات،«إذا جلس بين شعبها الأربع ثم جهدها فقد وجب الغسل»، وحديث ابن عمر: «فرض رسول الله ﷺ صدقة الفطر في رمضان على الصغير والكبير والذكر والأنثى وأمثال ذلك»[1]

ز ـ إن القول هو قول علماء الحديث لا غيرهم، فهم أصحاب التخصص، وقد تلقى أهل الحديث خبر الآحاد بالقبول والتصديق، فهو ولا شك يفيد العلم واليقين. بل إن معظم أحاديث البخاري ومسلم من أخبار الآحاد.

ح ـ إن أكثر السنة النبوية هي أخبار آحاد، وكثير منها في أبواب العقيدة، فلو صحت دعوى المبطلين من عدم الأخذ بخبر الواحد في العقيدة لكانت آلاف الأحاديث لا فائدة منها بل هي لغو، وهذا محال غير متصور لا يقول به إلا أحد شخصين فاقد لعقله أو فاقد لدينه.

---

(١) محمد ناصر الدين الألباني، الحديث حجة بنفسه في العقائد والأحكام، ٥٨.

وثمة مظاهر أخرى للأعراض عن السنة والتنكر لها وبخاصة عند بعض المذاهب الفقهية ذكر منها الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ما يأتي :

«أ ـ تقديم القياس على خبر الآحاد. (الإعلام ١/٣٢٧, ٣٠٠، شرح المنار ص ٦٢٣).

ب ـ رد خبر الآحاد إذا خالف الأصول. (الإعلام ١/٣٢٩، شرح المنار ص ٦٤٦).

جـ ـ رد الحديث المتضمن حكماً زائداً على نص القرآن بدعوى أن ذلك نسخ له، والسنة لا تنسخ القرآن! (شرح المنار ص ٦٤٧، الإحكام ٢/٦٦).

د ـ عدم جواز تخصيص عموم القرآن بخبر الواحد! (شرح المنار ص ٢٨٩ ـ ٢٩٤، إرشاد الفحول ١٣٨ ـ ١٣٩ ـ ١٣٤ ـ ١٤٤).

هـ ـ تقديم عمل أهل المدينة على الحديث الصحيح»[1].

ويضرب الشيخ الألباني أمثلة عملية لمخالفة الأحاديث الصحيحة. وقد رأيت أنه من المفيد بل من الضروري أن آتي بهذه الأمثلة ليتبين القارىء الكريم أن الموضوع جد خطير وأن الأعراض عن سنة رسول الله قد استفحل خطره.

أمثلة من الأحاديث الصحيحة التي خولفت بالقواعد آنفة الذكر:

١ـ «حديث قسم الابتداء وأن للزوجة حق العقد سبع ليال إن كانت بكراً، أو ثلاثاً إن كانت ثيباً، ثم يقسم بالسوية؟

٢ـ وحديث تغريب الزاني غير المحصن.

٣ـ وحديث الاشتراط في الحج، وجواز التحلل بالشرط.

---

(١) المصدر السابق. ٣٣ ـ ٣٥.

٤ـ وحديث المسح على الجوربين.

٥ـوحـديث أبي هريرة ومعـاوية بن الحكم السلمي في أن كلام الناسي والجاهل لا يبطل الصلاة

٦ـ وحديث إتمام صلاة الصبح لمن طلعت عليه الشمس وقد صلى منها ركعة.

٧ـ وحديث إتمام الصوم لمن أكل ناسياً.

٨ـ وحديث الصوم عن الميت.

٩ـ وحديث الحج عن المريض الميؤوس من برئه.

١٠ـ وحديث القضاء بالشاهد مع اليمين.

١١ـ وحديث قطع السارق في ربع دينار.

١٢ـ وحديث من تزوج امرأة أبيه يضرب عنقه ويؤخذ ماله.

١٣ـ وحديث لا يُقتل مؤمن بكافر.

١٤ـ وحديث لعن الله المحلل والمحلل له.

١٥ـ وحديث لا نكاح إلا بولي.

١٦ـ وحديث المطلقة ثلاثاً لا سكنى لها ولا نفقة.

١٧ـ وحديث أصدقها ولو خاتماً من حديد.

١٨ـ وحديث إباحة لحوم الخيل.

١٩ـ وحديث كل مسكر حرام.

٢٠ـ وحديث ليس فيما دون خمسة أُوسق صدقة.

٢١ـ وحديث المزارعة والمساقاة.

٢٢ـ وحديث ذكاة الجنين ذكاة أمه.

٢٣ـ وحديث الرهن مركوب ومحلوب.

٢٤ـ وحديث النهي عن تخليل الخمر.

٢٥ـ وحديث لا تحرم المصة والمصتان.

٢٦ـ وحديث أنت ومالك لأبيك.

٢٧ـ وحديث الوضوء من لحوم الإبل.
٢٨ـ وأحاديث المسح على العمامة.
٢٩ـ وحديث الأمر بإعادة الصلاة لمن صلى خلف الصف وحده.
٣٠ـ وحديث من دخل والإمام يخطب يوم الجمعة يصلي تحية المسجد.
٣١ـ وحديث الصلاة على الغائب.
٣٢ـ وحديث الجهر بآمين في الصلاة.
٣٣ـ وحديث جواز رجوع الأب فيما وهب لولده، ولا يرجع غيرُه.
٣٤ـ وحديث الخروج إلى العيد من الغد إذا علم بالعيد بعد الزوال.
٣٥ـ وحديث نضح بول الرضيع الذي لم يأكل الطعام.
٣٦ـ وحديث الصلاة على القبر.
٣٧ـ وحديث بيع جابر بعيره واشتراط ظهره.
٣٨ـ وحديث النهي عن جلود السباع.
٣٩ـ وحديث لا يمنع أحدكم جاره أن يغرز خشبة في جداره.
٤٠ـ وحديث إذا أسلم وتحته أختان إختار أيتهما شاء.
٤١ـ وحديث الوتر على الراحلة.
٤٢ـ وحديث كل ذي ناب من السباع حرام.
٤٣ـ وحديث من السنة وضع اليمنى على اليسرى في الصلاة.
٤٤ـ وحديث لا تجزىء صلاة لا يقيم الرجل فيها صلبه في ركوعه وسجوده.
٤٥ـ وأحاديث رفع اليدين في الصلاة عند الركوع والرفع منه.
٤٦ـ وأحاديث الاستفتاح في الصلاة.
٤٧ـ وحديث تحريمها التكبير، وتحليلها التسليم.
٤٨ـ وحديث حمل الصبية في الصلاة.
٤٩ـ وأحاديث العقيقة.
٥٠ـ وحديث: لو أن رجلاً اطلع عليك بغير إذنك.

٥١- وحديث إن بلالاً يؤذن بليل.

٥٢- وحديث النهي عن صوم يوم الجمعة.

٥٣- وحديث صلاة الكسوف والاستسقاء.

٥٤- وحديث عسب الفحل.

٥٥- وحديث المحرم إذا مات لم يخمر رأسه ولم يقرب طيباً.

قال الشيخ الألباني بعد أن ساق هذه القائمة من الأحاديث: هذه الأحاديث كلها أو جلها إلى أضعافها تركت من أجل القياس أو القواعد التي سبق ذكرها، بعضها عزاها ابن حزم للتاركين للسنة من أجل عمل أهل المدينة، واليكم أمثلة أخرى من مخالفة هؤلاء للسنة، فمن ذلك مخالفتهم لـ:

١- حديث قراءته ﷺ بالطور في (المغرب)، و (بالمرسلات) في آخر عمره ﷺ.

٢- تأمينه ﷺ بعد الفاتحة.

٣- سجوده ﷺ في ﴿إذا السماء انشقت﴾.

٤- سجوده ﷺ بالناس جالساً وهم جلوس وراءه. فقالوا: صلاة من صلى كذلك باطلة!

٥- حديث أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه ابتدأ بالناس الصلاة، فأتى النبي ﷺ فدخل فجلس إلى جنب أبي بكر رضي الله عنه، فأتم عليه السلام الصلاة بالناس. فقالوا: ليس عليه العمل، ومن صلى هكذا بطلت صلاته!

٦- حديث جمع بين الظهر والعصر (يعني في المدينة) في غير خوف ولا سفر.

٧- حديث أنه أتى بصبي فبال على ثوبه فدعا بماء، فأتبعه إياه ونضحه ولم يغسله.

٨ـ حديث أنـه عليه السـلام كان يقـرأ في صلاة العيد بسورة (ق) و (اقتربت الساعة).

٩ـ حديث أنه عليه السلام صلى على سهيل بن بيضاء في المسجد.

١٠ـ حديث أنه عليه السلام رجم يهوديين زنيا. فقالوا: لا يجوز رجمهم!

١١ـ حديث أنه ﷺ احتجم وهو محرم.

١٢ـ حديث تطيبه ﷺ لحِلة قبل أن يطوف بالبيت.

١٣ـ أحاديث التسليمتين في الصلاة.

إلى غير ذلك من الأحاديث التي خالفوا فيها أوامره ﷺ التي لو تتبعها المتتبع لربما بلغت الألوف كما قال ابن حزم رحمه الله تعالى»[1].

نتائج تعطيل السنة وآثاره:

فيما يلي بعض النتائج التي يمكن أن تنشأ من تعطيل السنة، بحجة عدم إمكان استيعابها وفهمها من الأجيال المتأخرة والحاضرة.

١ـ إنه لو صحت تلك الدعاوى، فإنه يمكن أيضاً أن تصح فيما يخص القـرآن الكريم. وهذا يؤدي بالتالي إلى وضع كتاب الله العزيز أيضاً في المتحف، واعتماد كتب الفقه على أنها الإسلام أولاً والإسلام آخراً.

٢ـ إن تعطيل السنة إنما هو تعطيل لكثير من الإسلام، فالقرآن كما هو معلوم جاء بالقواعد الكلية، أما التفصيل فقد قامت به السنة خير قيام، ولذا فإن السنة تحتوي أكثر تشريعات الإسلام، فلو صح القول بعدم فهم السـنة لَعُطل فهم أكثر الإسلام.

٣ـ إن تعطيل السـنة إنما هو تعطيل للقرآن. فالسنة كما هو معلوم شرح للقـرآن، وهي مفسـرة لنصـوصـه ومبينة لمعناه بتخصيص عامه، وبتقييد

---

(١) الحديث حجة بنفسه في العقائد والأحكام ٣٩ ـ ٤٤

مطلقه، وتوضيح مشكله، وبيان مجمله وتفصيل أحكامه، وتعيين مُبهمه، وتعليل محكمه، ودفع إيهام اضطرابه، فلو صح القول أنه يستحيل على الأجيال المعاصرة فهم السنة، فإن في ذلك إعلاناً صريحاً عن استحالة فهم القرآن، فهل يعي أولئك ما يقولون!!!

٤- إن في تعطيل السنة تعطيلاً أكيداً للاجتهاد وممارسته. إذ الاجتهاد لا يأتي من فراغ بل لا بد له من الاعتماد على نص وبخاصة نصوص السنة. وإذا تعطل الاجتهاد لم نستطع معرفة حكم الشرع لكثير من المسائل والمشاكل المستجدة. زد على ذلك أنه لم يعد لعلم أصول الفقه دورٌ يؤديه ولا فائدة ترتجى منه.

٥- لو صحّت دعاوى هؤلاء لعنى ذلك أن كل ما قام به علماء الحديث من جهود جبارة خلال عشرات السنين ذهبت أدراج الرياح، وأنه لا قيمة له!! في الوقت الذي تُعتبر فيه تلك الإنجازات الحديثية العظيمة مفخرةً للإسلام والمسلمين.

٦- قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسولَ فَقَد أَطاعَ اللهَ﴾ [النساء: ٨٠] فلا طاعة لله دون طاعة رسوله، ولا طاعة لرسوله دون فهم السنة، وهؤلاء يقولون بعدم إمكان فهمها، وعلى هذا تستحيل طاعة الله، وهو مالم يقل به عاقل، لأنه سيكون من باب التكليف بما لا يطاق، وهو عبث، والله تعالى منزه عن العبث.

٧- يقول تعالى: ﴿فَإِن تنازَعتُم في شيءٍ فَرُدُّوهِ إلى الله والرَّسول﴾ [النساء: ٥٩] فإذا اختلف المسلمون في شيء فينبغي تلمس الحل في الكتاب والسنة، وحيث إن هؤلاء عطلوا السنة، فهم بذلك أوصدوا أبواب الحل لمشاكل المسلمين إذا اختلفوا.

٨- قال تعالى: ﴿وَمَا آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذوُه وَما نَهاكُم عَنْهُ فانْتَهُوا﴾

[الحشر: ٧] فكيف يمكن الأخذ بما أمر به الرسول والإنتهاء عما نهى عنه دون فهم سنته ﷺ.

٩ـ قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لا يُؤمِنونَ حتى يُحكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهم ثُمَّ لا يَجِدُوا في أَنْفُسِهم حَرَجاً مِما قَضَيتَ ويُسلِّموا تسليماً﴾ [النساء: ٦٥] وقال تعالىٰ: ﴿وما كان لمُؤمِنٍ ولا مؤمنة إذا قَضَى الله ورسوله أمراً أن يكونَ لهم الخِيـرَةُ مِن أمـرهم ومن يَعْصِ الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً﴾ [الأحزاب: ٣٦] فما جواب هؤلاء عما يلي:

أ ـ هل ما يطالبون به هو تسليم للسنة أو لآراء العلماء؟؟

ب ـ كيف يمكن أن يتم التسليم للسنة دون فهم معناها؟؟

١٠ـ قال ﷺ: «تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما كتاب الله وسنتي، ولن يتفرقا حتى يردا عَليَّ الحوضَ»(١). فما جواب هؤلاء عما يلي؟

أـ كيف يمكن لنـا الإعتصـام والتمسـك بشيء لا يمكن لنـا فهمـه واستيعابه، بل هو فوق مدارك عقولنا؟

ب ـ هل ما يطالبون به ينسجم مع الحديث أو يخالفه؟

جـ ـ ما الذي كان عليهم أن يفهموه من قوله عليه السلام «ولن يتفرقا حتى يردا عليَّ الحوض».

١١ـ يقول عليه السلام: «إني قد تركتكم على مثل البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنهـا بعـدي إلا هالـك»(٢) فمـاذا يمكن أن يقال بعد قوله عليه

---

(١) حديث صحيح أخرجه الحاكم في المستدرك عن أبي هريرة رضي الله عنه، انظر صحيح الجامع الصغير وزيادته ٢٩٣٤.

(٢) اخرجه أحمد وابن ماجة والحاكم وصححه الألباني في تخريج كتاب السنة لابن أبي عاصم (١/٢٧).

السلام: «ليلها كنهارها»؟ وماذا يمكن أن يقال بعد قوله ﷺ «لا يزيغ عنها إلا هالك».

١٢ـ القائلون بأن السنة فوق مداركنا لا يدركون خطورة ما يقولون، فقولهم ذلك يقود إلى أحد استنتاجين:

أ ـ إما أن السنة لا تصلح لكل عصر، وهذا هدم للإسلام من أساسه.

ب ـ أو أن قدراتنا أقل من استيعاب السنة بسبب جهلنا، وهم حتماً لم يقصدوا ذلك. لأنهم لو أرادوه لطالبوا بحصر فهم السنة على أهل العلم في كل زمان، ولطالبوا بحظر التعامل مع السنة على من يجهلون فن التعامل معها. وأدوات فهمها متوفرة في كل عصر، وكل من أراد استعمالها أمكنه ذلك بعد أن يستكمل العدة، وهذا أمر معلوم للجميع.

وهكذا نرى أن دعوى الإعتماد كلية على اجتهادات علماء القرون الماضية وحظر الاجتهاد على من يملك أداوته وإقصاء السنة عن الواقع العملي بحجة قصورنا عن استيعاب ما أرادته الأحاديث الشريفة، إنما هي دعوى ظاهرها الرحمة وباطنها من قبلها العذاب، وأن نية هؤلاء حتى لو صحّت لا تكفي للدفاع عنهم، لأن النية في الإسلام وإن كانت هي أساس الشيء، إلا أنها ليست الشيء كله. فينبغي أن يُعْلَم أنه لا بد من تصحيح النية وتصحيح العمل، وما فعله هؤلاء ليس من صحيح العمل.

يقول ابن تيمية في كتابه الشهير «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» ما نصه: «واعلم أن هذه السبيل هي التي يجب سلوكها، فإن ما سواها طريقان خبيثان:

أحدُهما: القول بلحوق الوعيد لكل فرد من الأفراد بعينه، ودعوى أن هذا عمل بموجب النصوص، وهذا أقبح من قول الخوارج المكفرين

بالذنوب والمعتزلة وغيرهم، وفساده معلوم بالاضطرار، وأدلته معلومة في غير هذا الموضع.

الثاني: ترك القول والعمل بموجب أحاديث رسول الله ﷺ ظناً أن القول بموجبها مستلزم للطعن فيما خالفها، وهذا الترك يجر إلى الضلال واللحوق بأهل الكتابين الذين ﴿اتَّخذوا أحبارَهُم ورُهبانَهُم أرباباً من دونِ الله والمسيحَ بن مريم﴾ [التوبة: ٣١] فإن النبي ﷺ قال: «لم يعبدوهم ولكن أحلوا لهم الحرام فاتبعوهم وحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم»[1] ويفضي إلى طاعة المخلوق في معصية الخالق، ويُفضي إلى قبح العاقبة وسوء التأويل المفهوم من فحوى قوله تعالىٰ: ﴿أَطِيعُوا الله وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وأُولي الأمرِ منكُمْ، فإن تَنازعتُم في شيءٍ فَرُدُّوهُ إلى الله والرَّسولِ إن كنتمُ تؤمنون بالله واليومِ الآخر، ذلك خيرٌ وأحسنُ تأويلاً﴾ [النساء: ٥٩].

ثم إن العلماء يختلفون كثيراً. فإن كان كل خبر فيه تغليظ خالفه مخالف، ترك القول بما فيه من التغليظ أو ترك العمل به مطلقاً، لزم من هذا من المحذور ما هو أعظم من أن يوصف من الكفر والمروق من الدين، وإن لم يكن المحذور من هذا أعظم من الذي قبله لم يكن دونه.

فلا بد أن نؤمن بالكتاب، ونتبع ما أُنزل إلينا من ربنا جميعه، ولا نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض، وتلين قلوبنا لاتباع بعض السنة وتنفر عن قبول بعضها بحسب العادات والأهواء، فإن هذا خروج عن الصراط المستقيم، إلى صراط المغضوب عليهم والضالين»[2].

البدعة والسنة:

ما هي البدعة؟ وما حكمها؟ وما أنواعها؟ وما العلاقة بينها وبين السنة؟

---

(١) سبقت الاشارة إليه ص ٢٨.

(٢) ابن تيمية، رفع الملام عن الأئمة الأعلام، ص ٣١.

ومـا العلاقة بينها وبين الاجتهاد؟ وهل ما أدخله الصحابة يمكن أن يُعَدَّ بدعة؟ وما هي آثار البدع؟ .

أولاً : ما هي البدعة :

عرّف العلماء البدعة بتعاريف متعددة كلها تلتقي على معنى واحد هو أنها الحدث في الدين بعد الإكمال. أو ما استُحدث بعد النبي ﷺ من الأهواء والأعمال، أو ما أُحدث على خلاف الحق المُتَلَقَّى عن رسول الله ﷺ. وقـد استخـدم الصحـابة اصطلاح البدعة مقابل السنة، فعَدُّوا كل خروج على السنة من قبيل البدعة.

وبتحديد أدق «فإن البدعة المنصوص على ضلالتها في الشارع هي :

أـ كل ما عارض السنة من الأقوال أو الأفعال أو العقائد ولو كانت اجتهاداً.

ب ـ كل أمر يُتقرب إلى الله به وقد نهى عنه رسول الله ﷺ .

جـ ـ كل أمر لا يمكن أن يُشرَع إلا بنص أو توقيف، ولا نص عليه، فهو بدعة إلا ما كان عن صحابي.

د ـ ما أُلصق بالعبادة من عادات الكفار.

هـ ـ ما نصَّ على استحبابه بعض العلماء مما لا دليل عليه.

و ـ كل عبادة لم تأت كيفيتها إلا في حديث ضعيف أو موضوع.

ز ـ الغلو في العبادة.

جـ ـ كل عبادة أطلقها الشارع وقيدها الناس ببعض القيود مثل المكان أو الزمان أو صفة أو عدد»[1].

ويبين ابن تيمية رحمه الله مفهوم البدعة فيقول: «وقد قررنا في قاعدة السنة والبدعة: أن البدعة في الدين هي مالم يشرعه الله ورسوله، وهو مالم

(١) محمد ناصر الدين الألباني، تلخيص احكام الجنائز، ٩٥ ـ ٩٦.

يأمر به أمر إيجاب ولا استحباب. فأما ما أمر به أمر إيجاب أو استحباب، وعُلِمَ الأمر به بالأدلة الشرعية، فهو من الدين الذي شرعه الله، وإن تنازع أولو الأمر في بعض ذلك. وسواء كان هذا مفعولاً على عهد النبي ﷺ أو لم يكن. فما فُعِلَ بعده بأمره - من قتال المرتدين والخوارج االمارقين وفارس والروم والترك، وإخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب وغير ذلك - هو من سنته. ولهذا كان عمر بن عبد العزيز يقول: «سن رسول الله ﷺ سننا، الأخذ بها تصديق لكتاب الله، واستكمال لطاعة الله، وقوة على دين الله. ليس لأحد تغييرها ولا النظر في رأي من خالفها، من اهتدى بها فهو مهتد. ومن استنصر بها فهو منصور. ومن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين وَلَّاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيراً» فسنة خلفائه الراشدين: هي مما أمر الله به ورسوله، وعليه أدلة شرعية مفصلة ليس هذا موضعها»[1].

ثانياً: مصادر البدعة:

لا شك أن مصدر البدعة ليس هو الدين، بل هو خلافه، من ذلك ما يلي:

١- الأحاديث الضعيفة. ومعلوم أن الحديث الضعيف لا تجوز نسبته إلى الرسول ﷺ، ولا يجوز الاحتجاج به، كما لا يجوز الأخذ به حتى في فضائل الأعمال.

٢- اجتهادات واستحسانات غير مدعومة بأدلة شرعية.

٣- عادات وتقاليد اجتماعية وخرافات بالية توارثها الناس ثم اعتقدوا أنها من الدين وهي لا تمت إليه بصلة.

ويُرجع الشيخ محمود شلتوت الإبتداع إلى أسباب ثلاثة فيقول:

«١- الجهل بمصادر الأحكام وبوسائل فهمها من مصادرها.

---

(١) نقض المنطق، ٩١.

٢ـ مسابقة الهوى في الأحكام.

٣ـ تحسين الظن بالعقل في الشرعيات.

أما الجهل بالسنة فيشمل الجهل بالأحاديث الصحيحة، والجهل بمكان السنة من التشريع. أما الجهل بأساليب اللغة العربية فقد نشأ عنه أن فُهِمَت بعض النصوص على غير وجهها، وكان ذلك سبباً في إحداث مالا يعرفه الأولون. ومن ذلك قول بعض الناس إن حديث «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علي» يطلب الصلاة على النبي من المؤذن عقب الأذان، ولم يطلب منه أن يكون بغير كيفية الأذان وهي الجهر، فدل على مشروعيتها بالكيفية المعروفة!! ووجهوا دلالة الحديث على طلبها من المؤذن.وأما الجهل بمرتبة القياس في مصادر التشريع وهي التأخر عن السنة، فقد ترتب عليه أن قاس قوم مع وجود سنة ثابتة وأبوا أن يرجعوا إليها فوقعوا في البدعة. والمتتبع لآراء الفقهاء يجد أمثلة كثيرة لهذا النوع»[1].

ويُرجع الشيخ محمود شلتوت ذيوع البدعة وانتشارها بين الناس إلى أمرين يقول عنهما إنهما: «شديدي الخطر على سلامة الأديان من التحريف والزيادة والنقص:

أولهما: اعتقاد العصمة في غير المعصوم. وكثيراً ما ترى ذلك بين المتصوفة، وتراه أيضاً في اتباع الفقهاء. وقد سرى ذلك في عقائد الناس فعملوا بالبدعة وتركوا السنة محتجين بكلمة مأثورة وضعها أرباب الابتداع لتكون سبيلاً إلى ترويج بدعهم وهي «من قلد عالماً لقي الله سالماً».

وثانيهما هو تهاون العلماء في بيان الشريعة فإثمه على العلماء الذين أخذ الله عليهم العهد والميثاق أن يبينوا للناس ما نُزِّل إليهم، وقد أهمل

---

(١) محمود شلتوت، البدعة اسبابها ومضارها، ١٠ ـ ١٥.

جمهور العلماء من زمن بعيد هذا الواجب الديني العظيم الذي يتوقف عليه بقاء الشريعة سليمة نقية من الأدران ـ اهملوه ـ إما ضعفاً وخوفاً من تألب العامة وغضب الخاصة، وإما مجاملة للعظماء والحكام، وإما تهاوناً بأصل الواجب وجرياً على قاعدة «دع الخلق للخالق» التي يبررون بها احجامهم عن البيان، وإما تواكلاً، نظرا إلى أن البيان واجب كفائي قيام البعض به يُسقِط وجوبه عن الباقين.

ولما سكت العلماء وألفَ الناس منهم ذلك السكوت عن كل ما يفعلون، ظن العامة أن ما يفعلونه دين وشرع، وربما جاراهم بحكم الالفة والعادة العلماء لهم فيما يفعلون وبذلك صار ردهم عما ألفوا من البدع إلى ما تركوا من السنة شاقاً على من يحاوله، لأنهم يرونه إحداثاً جديداً في الدين لم يعرفوه، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

ولقد كان للعلماء من تحذير الله ترك البيان وإهمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما يدفع بهم إلى مكافحة البدع كلما ذرَّ قرنها، والعمل على حفظ السنة كلما هبت عليها ريح عاصف، ونرجو أن يكون من هذا ما ينبهنا إلى واجبنا وينقذنا من هول ما نحن فيه. هدانا الله إلى الصراط المستقيم»[1].

ثالثاً: حكم البدعة:

إنَّ الابتداع في الدين من الكبائر، إذ إن الكبيرة هي المعصية التي يترتب عليها حد أو توعد عليها بالنار أو اللعنة أو الغضب. وقد ورد الوعيد للمبتدع في الدين قال ﷺ: «من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو ردٌّ»[2] أي أنشأ واخترع. قال المناوي في «فيض القدير» في شرحه لهذا الحديث: أي أنشأ واخترع وأتى بأمر حديث من قِبَل نفسه، قال ابن

(١) المصدر السابق، ٢١ ـ ٢٥.
(٢) حديث صحيح سبقت الإشارة إلى تخريجه ص ٩٨.

الكمال: الإحداث إيجاد شيء مسبوق بزمان. والمراد بقوله: «في أمرنا» أي دين الإسلام. وقال عليه السلام في حديث له «وشرِ الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار»[1] وقال عليه السلام «فمن رغب عن سنتي فليس مني». أو ليس ترك السنة إلى البدعة من هذا القبيل؟ أو ليس هذا توعداً صريحاً؟.

رابعاً: أنواع البدع:ـ

أدخل بعض المسلمين مفهوم البدعة الحسنة والسيئة في الإسلام، وهذا لا أصل له. وهو تقسيم يُعَدُّ بحد ذاته بدعة، جاءوا به ليسُوغوا الإحداث في الدين. إن ذلك ليس جهلاً وحسب، بل هو مخالفة صريحة لرسول الله ﷺ الذي يقول: «وكل بدعة ضلالة» وهم يقولون «بدعة حسنة وبدعة سيئة». أما ما يروونه من قول عمر بن الخطاب «نعمت البدعة» فسوف نناقشه عند الكلام عن العلاقة بين البدعة والحديث الموقوف.

غير أن للبدعة تقسيمات صحيحة نوردها من أقوال العلماء. قال العلامة الشقيري في كتابه «السنن والمبتدعات» إن البدعة تقسم إلى قسمين: بدعة دينية وبدعة دنيوية[2] فكل بدعة في الدين ضلالة كما نص عليه رسول الله ﷺ. وهي (الدينية) أقسام:

أولاً: البدعة المُكَفِّرة كدعاء غير الله والاستغاثة به.
ثانياً: البدعة المحرَّمة كاتخاذ القبور مساجد أو الصلاة عليها.

خامساً: التمييز بين البدعة والسنة:ـ

لقد خلط البعض بين مفهومي البدعة والسنة. والحق أنه وإن كان ﷺ أشار بصراحة إلى أن كل بدعة ضلالة إلى النار، إلا أنه بيَّن أن هنالك سنة

---

(١) رواه أبو داود وابن ماجة والنسائي.

(٢) محمد الشقيري، السنن والمبتدعات في الأذكار والصلوات، ص ١٥.

حسنة وسنة سيئة. والسنة هنا ينبغي أن تُفهم في ضَوء الحديث الشريف وهو قوله ﷺ «من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء. ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[1].

لقد استدل أهل البدع بالحديث آنف الذكر على مشروعية البدعة الحسنة، ولذا كان من الضروري معرفة مناسبة الحديث حتى لا يُحتج به في غير موضعه. وسببه ما أخرجه أحمد ومسلم عن جرير بن عبد الله البجلي قال: كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار فجاءه قوم حُفاة عُراة مجتابي النمار والقباء متقلدي السيوف عامتهم من مضر بل كلهم من مضر فتغير وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة قال فدخل ثم خرج فأمر بلالاً فأذن وأقام الصلاة فصلى ثم خطب فقال: يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة إلى آخر الآية، وقرأ الآية التي في الحشر: ولتنظر نفس ما قدمت لغد، يتصدق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمره، حتى قال بشق تمرة. قال: فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها بل قد عجزت ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب حتى رأيت رسول الله ﷺ يتهلل وجهه كأنه مذهبة، فقال رسول الله ﷺ: من سنَّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من يعمل بها بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء. وأخرج أحمد عن حذيفة قال: سأل رجل على عهد رسول الله ﷺ فأمسك القوم ثم إن رجلاً أعطاه فأعطى القوم، فقال النبي ﷺ: من سنَّ خيراً فاستُن به كان له أجره ومن أجور من يتبعه غير

---

(١) صحيح أخرجه مسلم والترمذي وابن ماجة والنسائي عن جرير بن عبد الله.

منتقص من أجورهم شيئاً، ومن سن سوءاً فاستُن به كان عليه وزره ومن أوزار من يتبعه غير منتقص من أوزارهم شيئاً.

وهكذا فإن في الحديث فضل الابتداء بالخير والسبق إليه والتحذير من الإبتداء بالشر والسبق إليه، وأن الثواب يتضاعف للأول والعقاب يتضاعف على الثاني. وليس في الحديث ما يدل على البدعة الحسنة والسيئة، بل العكس فإن المبتدع كيفما اتفق ينطبق عليه قوله ﷺ «من سن في الإسلام سنة سيئة...». وعلى هذا يظهر لنا أن أي إضافة أو نقصان في الدين فهو بدعة، وهو بالتالي مرفوض لأن الدين كَمُلَ في زمنه ﷺ، وقد جاءنا كاملاً. أما الزيادات والتحسينات في مجال الدنيا فمقبولة، إذا كانت غير مخالفة لقواعد الإسلام، وهي حينئذ سنة حسنة، ومرفوضة إذا كانت مخالفة لإحدى قواعد الإسلام وهي حينئذ سنة سيئة.

سادساً: الإجتهاد والبدعة:

قد يسأل بعض الناس فيقول: إذا كانت كل إضافة بدعة، فالاجتهاد إذن من هذا القبيل، لأنه باب أضاف به العلماء إلى الإسلام الكثير.

والجواب: إن من حقيقة البدعة أن لا يدل عليها دليل شرعي لا من نصوص الشرع ولا من قواعده. أما الاجتهاد فهو استنباط الحكم الشرعي من دليله وفق شروط معينة. وهذا فرق رئيسي بين الإجتهاد والبدعة.وثمة فرق آخر هو أن الاجتهاد له مجال محدد، «فلا اجتهاد في مورد النص»، وهذه قاعدة شرعية، ولا اجتهاد في العبادات ولا العقائد. والبدعة هي إضافة للدين في ميدان ومجال تعد الإضافة فيه محظورة تماماً، وهي أيضاً إضافة دون دليل.

سابعاً: الحديث الموقوف والبدعة:

الحديث الموقوف هو ما أضيف إلى الصحابي من قول أو فعل.

والكثير من العلماء يعده مصدراً تشريعياً. يقول عليه الصلاة والسلام «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وأن تأمّر عليكم عبد حبشي فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضُوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة»[1]. ويقول «اقتدوا باللذين من بعدي من أصحابي أبي بكر وعمر واهتدوا بهدي عمار وتمسكوا بعهد ابن مسعود»[2] وفي حديث موقوف لابن مسعود يقول فيه: «إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلبَ محمد خيرَ قلوب العباد فاصطفاه لنفسه وابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه، فما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن وما رأوه سيئاً فهو غند الله سيء»[3] والمسلمون هنا هم الصحابة وليس المسلمين عموماً.«فإن قيل قد اعتاد كثير من الناس أن يستدلوا على عدم كراهة ما اعتادوه من البدع بحديث شاع بينهم وهو: «ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن، وما رآه المسلمون قبيحاً فهو عند الله قبيح» وهل يصح هذا الاستدلال منهم؟ فالجواب على ما ذكره بعض الفضلاء: إن هذا الاستدلال لا يصح، والحديث حجة عليهم لا لهم، ولا شك أن اللام في المسلمين ليس لمطلق الجنس، لأن الحديث حيئنذ يكون مخالفاً لقوله ﷺ: «ستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة كلهم في النار إلا واحدة» لأن كلا من فرق الأمة مسلم يرى تدينه

---

(١) صحيح، أخرجه الترمذي وأحمد وأبو داود وابن ماجة والحاكم عن العرباض بن سارية، انظر صحيح الجامع الصغير ٢٥٤٦.

(٢) حديث صحيح أخرجه الترمذي (٢/٣١١) والحاكم (٣/٧٥) عن عبد الله بن مسعود، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ١٢٣٣.

(٣) حسن موقوف، أخرجه الطيالسي وأحمد وغيرهما بسند حسن، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي انظر شرح العقيدة الطحاوية ٥٣١.

حسناً، فيلزم أن لا يكون فرقة منها في النار، وكذا بعض المسلمين يرى شيئاً حسناً وبعضهم يراه قبيحاً، فيلزم أن لا يتميز الحسن من القبيح، فهي إما للعهد والمعهود ما ذكره في قوله: فاختار له أصحاباً فيكون المراد بالمسلمين الصحابة فقط، أو لاستغراق خصائص الجنس فيراد بالمسلمين أهل الإجتهاد الذين هم الكاملون في صفة الإسلام صرفاً للمطلق إلى الكامل، لأن المطلق عند عدم القرينة ينصرف إلى الفرد الكامل وهو المجتهد، فيكون ما رآه الصحابة أو أهل الاجتهاد حسناً فهو عند الله حسن، وما رآه الصحابة أو أهل الإجتهاد قبيحاً فهو عند الله قبيح، ويجوز أن تكون للاستغراق الحقيقي، فيكون المعنى ما رآه جميع المسلمين حسناً فهو عند الله حسن، وما رآه جميع المسلمين قبيحاً فهو عند الله قبيح، وما اختلف فيه فالعبرة فيه للقرون الثلاثة المشهود لهم بالخير»[1].

إزاء كل هذه المعطيات، لا يمكن أن يُقال إن ما رآه الصحابة من أمور معينة هو من باب البدعة، فالصحابة هنا استثناهم رسول الله ﷺ فمن يجرأ على الإعتراض؟ ومن يريد أن يدخل في استثناء لم يُدخله فيه رسول الله ﷺ؟ وهل يحل بعد كل هذا أن يأتي قوم فيسوون بين الصحابة وغيرهم، ويطلبون لأنفسهم الحق الذي كان لتلاميذ مدرسة النبوة، الذين عاصروا نزول القرآن، وكانوا خير من نطق بالضاد.

ثامناً: العلاقة بين السنة والبدعة:

إن العلاقة بين السنة والبدعة علاقة عكسية، فما أُميتت سنة إلا وأُحييت بدعة، والعكس صحيح. قال التابعي الجليل حسان بن عطية رحمه الله: «ما ابتدع قوم بدعة في دينهم، إلا نُزِعَ من سنتهم مثلها»[2]

(١) سعيد الرومي، المجلس الثامن عشر من مجلس الأبرار نقلاً عن «أصول في البدع والسنن» لمحمد العلوي، ٣٩.

(٢) اخرجه الدارمي بإسناد صحيح.

والأمثلة على ذلك كثيرة فقد هجر الناس سنة التزاور فيما بينهم طوال العام وهذه سنة، واستعاضوا عنها بالزيارة في الأعياد والمناسبات فقط. وهجر الناس سنة لقاء المسلمين بعضهم في المساجد طوال السنة، واستعاضوا عنها بالاحتفالات بالمولد النبوي ومناسبات كالهجرة وغيرها.

إن سر تمسك الناس بالبدع ورفضهم لهجرها ومقاومتهم للتمسك بما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه هو أن هذه البدع غدت عادات اجتماعية راسخة يلتزمون في التمسك بها بالمبدأ القائل ﴿إنا وجدنا آباءَنا على أمة وإنَّا على آثارهم مقتدون. قل أوَلو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءَكم﴾ [الزخرف: ٢٣ - ٢٤].

لذا فإن من ينادي بإماتة البدعة وإحياء السنة كان دوماً محارباً من قبل كثير من العلماء والمشايخ. ليس لأنه ينادي باستئصال دين صحيح، بل لأنه يقاوم عادات فاسدة أقامها الناس مقام الدين. ومن أجل هذه حُورِبَ ابن تيمية وابن قيم الجوزية وغيرهما ممن كان على منهجهما وسبيلهما وقد أخبر رسول الله ﷺ عن ذلك فقال «طوبى للغرباء» قيل ومن الغرباء يا رسول الله؟ فقال ناس صالحون قليل في ناس سوءٍ كثير من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم»[1].

إن البدع هي نقط سوداء قاتمة في صفحة الإسلام البيضاء، وهي التعبير الحي عن الفرق الواضح بين الإسلام وممارسات المسلمين. والبدع لا تشكل عناصر التشويه في جمال الإسلام فحسب، بل إنها كذلك عناصر صبغ الإسلام بالصعوبة والتعقيد بعد أن نزل على نبي الرحمة سهلاً ميسراً. لذا فإن كل ما يبدو في الإسلام تعقيداً إنما هو بسبب البدع أو بسبب الجهل بالحكم الشرعي أو الهوى.

---

(١) صحيح، أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ١٧٧، ٢٢٢) عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

والأدهى من ذلـك كله أن البـدع أكثـر العنـاصر تفتيتا للأمة وهدم وحـدتها. إذ كيف يمكن أن يكون الدين واحداً إذا فُتح بابُ البدع. إذ ستُحْدَثُ أشياء جديدة، ومع مرور الزمن الطويل سيكون هناك دين آخر غير الذي جاء به محمد ﷺ عن ربه. لكن والحمد لله لم يكن الأمر كذلك بسبب دفاع العلماء عن السنة، واستماتتهم في استئصال كل دخيل حتى يظل الإسلام نقياً صافياً، تماماً كما قال ﷺ «ستفترق أمتي ثلاثاً وسبعين فرقة كلهم في النار إلا واحدة، قيل من هم يا رسول الله؟ قال: الذين على ما أنا عليه وأصحابي»[1] وأيضاً فإنه إذا فتح باب البدعة، فمن الذي يقرر من له الحق في إدخال بدعة جديدة ومن ليس له الحق؟ ومن الذي سيقرر أن هذه البدعة حسنة وتلك بدعة سيئة؟ أضف إلى ذلك أن البدعة هي اعتداء على حق الله في التحليل والتحريم وتشريع عبادات وفرض عقائد. وهذه كلها حق لله تعالى وحده لا يشاركه فيه حتى أكرم الخلق ﷺ، فهو ليس سوى مبلغ عن ربه، ﴿**وما على الرسول إلا البلاغ**﴾ [النور: ٥٤] فما بالك بمن هو دونه ﷺ، والمسلمون كلهم دونه عليه السلام.

يقول الاستاذ الأكبر شيخ الأزهر سابقاً الشيخ محمود شلتوت رحمه الله: «لو أن مضار الابتداع تقف عند المبتدع ولا تتعداه إلى غيره لهان الأمر وسهـل الخـطب، ولكن مضار الابتداع منها ما يصيب المبتدع ومنها ما يصيب اتبـاعـه في العمل بالبدعة ومنها ما يصيب الدين ومنها ما يصيب الأمة. أما ما يصيب المبتدع فهو اغتصاب حق التشريع الذي لا يكون إلا لله وحده. وكذلك فإن المبتدع مُضلٌ عليه أوزار الذين اتبعوه في بدعته،. وأما اتباعه فيصيبهم الحرمان من الثواب. وأما ما يصيب الدين نفسه من الابتداع فهو خفاء كثير من أحكامه وتشويه جماله. والأول سبب من أسباب اندراس الشرائع، والثاني سبب من أسباب الأعراض عنها وعدم احترامها.

(١) حسن، أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجة والحاكم من حديث أبي هريرة مرفوعاً، وله ما يشهد به.

وأما ما يُصيب الأمة التي دخلت البدع في دينها فهو القاء العداوة والبغضاء بين أهل الإسلام»[1].

عاشراً: وأخيراً فإن البدعة هي اعترافٌ غير مباشر بأن الإسلام لم يكمل، ولذا اقتضى الأمر الزيادة فيه، وإلا فما معنى هذه الزيادة؟؟ وهذا مناقض لقوله تعالى ﴿اليومَ أكملتُ لكم دينكم﴾ . والبدعة أيضاً اعتراف غير صريح بأن الإسلام غير صالح لكل زمان ومكان، ولنأخذ مثالاً على ذلك، فإنك لو قلت لمن يحتفلون بالمولد النبوي هذا بدعة فإنهم سيعللون ذلك بما يلي:

الإحتفال بالمولد النبوي لم يكن زمن رسول الله ﷺ لأن المسلمين لم يكونوا بحاجة لذلك، لقوة دينهم وتقواهم، وأما الآن فهناك حاجة، ورسول الله كان بينهم وهو ليس معنا، فما المانع أن نجمع الناس لنُذَكِّرهم بدينهم؟ وما المانع أن نُحُبِّبَ الناس بنبيهم ونجمعهم ليصلوا عليه ﷺ.

إن هذا الكلام في غاية الخطورة للأسباب التالية:

أولاً: إنه اعتراف واضح أن الدين الذي كان عليه الصحابة لم يعد صالحاً لهذا الوقت، الذي ابتعد الناس فيه عن الإسلام، فاقتضى الأمر إحداث شيء جديد يناسب هذا الزمان.

ثانياً: إن في هذا الجواب دلالةً على الجهل بالإسلام. فقد جهل هؤلاء أن في الإسلام عشرات الوسائل والأسباب لجمع الناس على الدين وتذكيرهم به.

ثالثاً: إن صاحب هذا الجواب قد لبس الحق بالباطل. فقد سوَّغ عمله المغلوط بالقصد الصحيح. فقصده شريف طيب كما يزعم، وهو أنه محب لرسول الله، وهو أيضاً يريد جمع الناس ليعظهم. ونحن لا نشك في

(١) البدعة، أسبابها ومضارها، ٢٦، ٣٢، ٣٣.

صحة قصده، تماماً كما أننا لا نشك في خطأ أسلوبه وعمله. وهنا فإنني أود أن أنبه مرة ثانية وثالثة إلى ضرورة صحة العمل بجانب صحة النية، وأن القصد الصحيح لا يكفي، وإنما لا بد من صحة العمل أيضاً. فالله عز وجل طلب منا أن نعبده بالعمل المشروع الصحيح مع النية الصحيحة.

رابعاً: لقد غفل هؤلاء أن المولد بدعة مجوسية أدخلها العبيديون الزنادقة (الذين كانوا يُدْعَوْنَ زوراً وبهتاناً فاطميين نسبة إلى فاطمة رضي الله عنها) أيام حكمهم لمصر.

السنة والفقه:

ما هي طبيعة العلاقة بين السنة والفقه، أو قل بين السنة والتقليد؟ وهل الدعوة للرجوع إلى السنة تعني رفض الفقه؟

إنه وإن كان الداعون للالتزام الحرفي بالمذهبية يرفضون الأخذ بالسنة إذا تعارضت مع مذاهبهم الفقهية، إلا أن الداعين للالتزام بالسنة لا يرفضون الأخذ بالفقه، أما ما يصدر عن البعض من رفض مطلق للفقه ولما صرح به علماء المذاهب، فهذا في الحقيقة لا يمثل موقف علماء السنة، سواء منهم الأوائل أو المعاصرون وإنما هو جهل من هؤلاء وحماس للسنة في غير موضعه.

على أنه يمكن تلخيص موقف علماء السنة والسلف نحو الفقه الإسلامي بالنقاط التالية:

١ـ المكتبة الفقهية الإسلامية الضخمة ليست كلها من تأليف أئمة المذاهب الأربعة، فما كتبه هؤلاء مؤلفات معدودات. وجاء أئمة كل مذهب من بعدهم فزادوا وشرحوا وأضافوا، مما تكوّن معه بمرور مئات السنين كتابات فقهية غزيرة تعد بعشرات المئات من الكتب، منها الغث ومنها السمين، منها الصحيح ومنها الخطأ. ومن هنا فإن لنا الحق في أخذ

ما نريد ورد ما نريد، حسب أصول معينة طبعاً، لا حسب الهوى، وإذا رددنا شيئاً فإنه ليس رفضاً ولا اعتراضاً لما جاء به الشافعي وأبو حنيفة ومالك وابن حنبل، وإنما هو رد لبعض ما جاء به شراح كل مذهب من بعدهم.

٢ـ كتب الفقه متنوعة ومختلفة، منها ما جمع بين الرأي الفقهي ودليله، ومنها مالم يفعل ذلك. وحينما عكف المتخصصون في الحديث من أئمة كل مذهب على دراسة هذه الأحاديث التي استعملت كأدلة وجدوا منها الصحيح والضعيف، فعمدوا جزاهم الله خيراً إلى خدمة مذاهبهم بتخريج الأحاديث التي اعتمدت في المذاهب كما فعل الزيلعي بواحد من أهم الكتب في الفقه الحنفي وهو «الهداية»، فَخَرَّج أحاديثه بكتابه «نصب الراية» وكما فعل ابن حجر بتخريج أحاديث كتاب الرافعي في الفقه الشافعي بكتابه «تلخيص الحبير».

٣ـ إن المذاهب الفقهية نفسها تتفاوت في بضاعتها الحديثية فاعتمد أبو حنيفة رضي الله عنه القياس بشكل واضح. واعتمد الإمام مالك رضي الله عنه عمل أهل المدينة. أما الشافعي وابن حنبل فقد اعتمدا أكثر من غيرهما على الحديث. وقد فات بعض الأئمة احاديث، وهو أمر لا يقدح فيهم أبداً.

٤ـ غير أن ما سلف لا يقدح في علم السلف رضي الله عنهم، ولا يُقلل من قيمته، ولذا فإن موقفنا نحو كتب الفقه ينبغي أن يكون واضحاً جلياً كما يلي:

أ ـ لا إفراط، فلا نأخذ بحرفية ما جاء في هذه الكتب دون تمحيص، ولا نتعامل معها كأنها نصوص مقدسة، كل ما جاء بين دفتيها صحيح لا ريب فيه. فهذا شأن القرآن فحسب. بل إن السنة نفسها التي تعلو على كلام أي فقيه أُخِذَ منها الصحيح ورُدَّ الضعيف على أهله. ومن هنا فإن التقليد الأعمى في الإسلام مرفوض إلا أن يكون للكتاب والسنة

الصحيحة، وهو حينئذ لا يسمى تقليداً، إنما يسمى إتباعاً.

ب ـ لا تفريط، فلا نرفض كل ما جاء على ألسنة الفقهاء، فهذا أمر خطير. وإذا كنا لا نرفض التصوف على عمومه وهو الذي دخله ما دخله من عقائد الهندوسية والنصرانية، بل نأخذ منه ما وافق الكتاب والسنة ونرفض منه ما خالفهما، فكيف يسمح بعض المسلمين لنفسه أن يرفض ما جاء في كتب الفقه بالكلية.

إن الداعين لرفض كل ما ورد في كتب الفقه يدعون لأمر خطير، شأنه في ذلك شأن الدعوة للأخذ بكل ما جاء في تلك الكتب.

٥ـ لذا وجب الجمع بين الفقه والحديث وفق الأسس التالية:

أ ـ إخضاع الفقه للحديث إذا تعارضا في مسألة من المسائل، وقد قال بذلك ودعا المسلمين إليه كُلُ الأئمة دون استثناء. فقد قال الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى:

«لا يحل لأحد أن يأخذ قولنا ما لم يعلم من أين أخذناه»[١]. وقال الإمام مالك رحمه الله تعالى «إنما أنا بشر اخطىء وأصيب، فانظروا في رأيي فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه، وكل مالم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه»[٢] وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: «إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله فقولوا بسنة رسول الله، ودعوا ما قلت»[٣] وقال أيضاً للإمام أحمد بن حنبل «أنت أعلم بالحديث مني فما صح عندك فأخبرنا به لنعمل بمقتضاه»[٤].

---

(١) ابن عبد البر، الانتقاء، ص ٢٠.
(٢) الفلاني، ايقاظ الهمم، ص٧٢.
(٣) النووي، المجموع شرح المهذب جـ ١، ص ٦٣.
(٤) ابن عبد البر، الانتقاء، ص ٧٥.

أما الإمام أحمد رحمه الله تعالى فكان يقول «لا تقلدني ولا تقلد مالكاً ولا الشافعي ولا الأوزاعي ولا الثوري وخذ من حيث أخذوا»[1] وقد اتفق الأئمة الأربعة على أن حديث النبي حجة بنفسه حيث قالوا: «إذا صح الحديث فهو مذهبي»[2].

ب ـ إن فوات أحاديث على إمام من الأئمة لا يقدح في علمه. فلا يُحيط بالسنة النبوية أحدٌ، والكمال لله عز وجل. وإذا كان قد فات الإمام جزء يسيرٌ تتعذر الأمثلة عليه فليس من منطق العقل والعلم أن نحسب حكم النادر على الكل. لكن ينبغي أن يُعلم أن تعاملنا مع الشافعي وابن حنبل ومالك وأبي حنيفة، ليس بنفس الطريقة التي نتعامل بها مع العلماء المتأخرين لكل مذهب. فمن العلماء المتأخرين من لا يؤخذ بكثير من أقواله، والمجتهدون كما هو معلوم درجات، وليس كل عالم بدرجة أولئك الأئمة، فيبقى الحديث حكماً ومقياساً على أقوال هؤلاء وأولئك.

جـ ـ فيما يلي بعض الأمثلة على تناقض الفقه والحديث في بعض المسائل وهي: نقض الوضوء، وتزويج المرأة نفسها.

١ـ بعض المذاهب الفقهية ترى أن من ينام إذا كان مُمَكّناً مقعده لا ينتقض وضوؤه. والرسول ﷺ يقول «العين وكاء السه فمن نام فليتوضأ»[3].

٢ـ الأحناف يقولون بإباحة تزويج المرأة نفسها إذا كانت ثيباً. والرسول

---

(١) ابن قيم الجوزية، اعلام الموقعين، جـ ٢، ص ٣٠٢.

(٢) انظر رسالة السبكي «معنى قول الإمام المطلبي إذا صح الحديث فهو مذهبي» الواردة ضمن مجموعة الرسائل المنيرية (٢/٩٨).

(٣) حديث صحيح اخرجه أحمد في مسنده عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، انظر صحيح الجامع الصغير وزيادته ٤٠٢٥. وقد فسر العلماء الأحاديث التي تفيد عدم نقض الوضوء بالنوم إذا كان النوم اغفاءة لا تصل حد النوم وانظر لذلك نيل الأوطار وشرح النووي لصحيح مسلم.

ﷺ يقول: «لا تزوج المرأة المرأة ولا تزوج المرأة نفسها»[1] وهذا عام في البكر والثيب، فلا بد أن يكون لها ولي.

د ـ إن إلحاق الفقه بالكتاب والسنة في المكانة والأهمية أمر خطير. فالفقه هو فهم الكتاب والسنة، وهو أمر يحتمل الخطأ والصواب. أما نصوص الكتاب والسنة الصحيحة فلا تحتمل إلا الصواب. أضف إلى ذلك أن هذا التراث الفقهي الهائل هو مجموعة ضخمة من أقوال العلماء واجتهاداتهم، وهي بحاجة لمن يحكم عليها، فمن يكون الحكم إن لم يكن القرآن والسنة؟؟ ﴿نبئوني بعلمٍ إن كنتم صادقين﴾ [الأنعام: ١٤٣].

هـ ـ إن كثرة كتب السنة تيسر الاستفادة منها، وتوفرها للباحثين المعاصرين ميسور أكثر من توفرها للسابقين. وقد تيسرت الاستفادة منها بالطباعة والفهارس المختلفة أكثر من تيسر استفادة المتقدمين منها. فمن السهل الاعتماد عليها وأخذ الثابت منها، وترك غيره، وتثبيت الأحكام الفقهية التي دل الدليل عليها، وتنقيح الفقه مما لا دليل عليه.

و ـ إن القول: إن عبارات السنة غامضة، جهلٌ بالسنة أو عدم اعتراف لصاحبها الذي عرف ببلاغته وفصاحته ﷺ. والعجب أن من يتنطع بهذا القول وينادي بالالتزام والتقيد بكتب الفقه، يتجاهل أن عبارات بعض هذه الكتب تكاد تكون ألغازاً، قد لا يفهمها أصحابها الذين وضعوها لو قرأوها مرة أخرى. نأخذ مثالاً على ذلك من واحد من أهم المراجع في الفقه الحنفي وهو «الهداية» للمرغيناني، ونختار فقرة تتكلم عن زواج البكر، يقول صاحب الكتاب: «وخيار البلوغ في حق البكر لا يمتد إلى آخر المجلس ولا يبطل بالقيام في حق الثيب والغلام، لأنه ما ثبت بإثبات الزوج بل لتوهم الخلل فإنما يبطل بالرضا، غير أن سكوت البكر رضا بخلاف

(١) حديث صحيح أخرجه ابن ماجة عن أبي هريرة، انظر صحيح الجامع الصغير وزيادته ٧١٧٥.

خيار العتق، لأنه ثبت بإثبات المولى وهو الإعتاق فيعتبر فيه المجلس كما في خيار المخيرة»[1].

أنبئوني هذا أوضح وأبين أم قوله ﷺ: «لا تزوج المرأة المرأة، ولا تزوج المرأة نفسها» وقوله عليه السلام «الثيب تعرب عن نفسها، والبكر رضاها صمتها»[2].

ز ـ إن مطالبتنا بإخضاع الفقه للحديث لا تعني الاجتهاد، فالاجتهاد هو بذل الجهد للتوصل إلى الحكم الشرعي العملي من دليله التفصيلي. وما نطالب به هو أن تُدْرَسَ السنة دراسة صحيحة، وأن تؤخذ الأحكام منها ومن الفقه، فما تعارض بينهما جعلت السنة حكماً عليه.

ح ـ ومن حسن حظ المسلمين أن هناك مراجع تعد أمثلة عملية ممتازة على الموقف الذي ينادي علماء السلف بإتخاذه ـ اعني اخضاع الفقه للحديث ـ وان يكون المتفقة على اطلاع واسع على أحاديث رسول الله ﷺ. فلدينا أمثلة هي: «المغني» لابن قدامة في الفقه الحنبلي «والمجموع شرح المهذب» في الفقه الشافعي، و«المحلى» لابن حزم، فهذه أمثلة رائعة للجمع بين السنة والفقه. ومن المؤلفات المعاصرة لدينا «فقه السنة» للسيد سابق[3].

ط ـ أخيراً فإن القول إن المذهبية أسلم وأنه لا بد من الالتزام بآراء مذهب ما، هو قول خطير يتضمن ما يتضمن من الشرك، فإن الله تعالى لم يتعبد أحداً من خلقه باتباع أحد مهما سما قدره في العلم ما دام غير

(١) المرغيناني، الهداية، جـ ١، ص ١٩٩.

(٢) حديث صحيح أخرجه أحمد وابن ماجة عن عميرة الكندي، أنظر صحيح الجامع الصغير وزيادته ٣٠٧٩.

(٣) وقام الشيخ محمد ناصر الدين الألباني بخدمة الكتاب فخرَّج أحاديثه في «تمام المنة في التعليق على فقه السنة».

معصوم. وهنا فليس من باب التكرار أن أُعيد ما ورد من أن عدي بن حاتم سمع النبي ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿اتَّخذوا أحبارَهُم ورُهبانَهم أرباباً من دونِ الله﴾ [التوبة: ٣١] فقال إنا لسنا نعبدهم، قال: أليس يُحرمون ما أحلَّ الله فتحرمونه، ويُحلون ما حرَّم الله فتحلونه؟ فقلت بلى، قال: فتلك عبادتهم[1].

قال أحمد بن حنبل: عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته يذهبون إلى رأي سفيان، والله تعالى يقول ﴿فَليحذرِ الذينَ يُخالفونَ عن أمرِهِ أن تُصيبَهُم فِتنةٌ أو يُصيبهم عذابٌ أليمٌ﴾ [النور: ٦٣].

وما أحسن ما ذكره الشيخ محمود شلتوت رحمه الله عن اعتقاد العصمة في غير المعصوم وانه أمر شائع بين الصوفية واتباع المذاهب الفقهية. يقول عن الصوفية: «انهم يقرأون عن شيخ طريقتهم شيئاً من الأحوال التي تُنافي الأحكام الشرعية فيعتقدون أنها من التشريع الذي خصَّ الله به عباده المقربين، وأن شيخهم لا يفعل إلا حقاً، ولا يقول إلا صدقاً، والفقه للعموم وهذه طريقة الخصوص، فيتبعونه في كل ما يُؤثر عنه من قول أو فعل على أنه الطريق المقرب إلى الله الموصل إلى رضاه.

وتراه أيضاً في أتباع الفقهاء يقرأون عنهم في كتبهم، ويعتقدون عصمتهم من الزلل، فيتمسكون بكل آرائهم وإن وصلتهم الرواية الصحيحة عن رسول الله بخلاف رأي أئمتهم، وقد أفرط الناس في رفع مستوى العلماء ومؤلفي الكتب بالنسبة إلى ما خلفوه من آراء وأحكام، واعتقد كل فريق أن رأى مَتْبوعِه هو الحق، وقالوا: إنه لو كان الدين غيره لما استقر على توالي العصور، ولأنكره من قبلنا من الشيوخ والأئمة، وأنه لا حق لنا في التمسك بالحديث يُروى بخلاف رأي الأئمة والمدوَّن في الكتب، لأنهم أعلم منا بالحديث وبمعناه، فلا شأن لنا به ولا يصح أن

---

(١) سبقت الإشارة إليه ص ٢٨.

نعدل إليه ونترك ما ألفناه من العبادة وكيفيتها.

سرى ذلك في عقائد الناس فعملوا بالبدعة وتركوا السنة، مبررين أعمالهم بكلمة مأثورة وضعها أرباب الابتداع لتكون سبيلاً إلى ترويج بدعهم وهي «مَنْ قلد عالماً لقي الله سالماً» وقد فات هؤلاء أن التقليد المباح المطلوب، شرطه الاستشراف إلى الحق، والرجوع إليه ببينة. وأنه ما من إمام إلاّ حذَّر من الاتباع وترك الحديث إذا صح، وفاتهم أن هذه الطريقة قد أنكرها الله في كتابه الكريم على من جعل اتباع الآباء والأسلاف أصلاً في الدين يُرجَع إليه دون سواه، حتى ردوا برهان الرسالة وحجة القرآن بقولهم: ﴿إنَّا وَجدنا آباءنا على أمة وإنَّا على آثارهم مقتدون﴾ وفاتهم أيضاً أن التعصب لرأي العلماء إلى هذا الحد نوع من اتخاذ غير الله ربا. وكان ذلك سنة اتباع الأحبار والرهبان ﴿إتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ وفاتهم أن الإجماع الذي عُد مصدراً من مصادر التشريع يجب اتباعه. ويتصل بهذا أيضاً الخطأ في فهم معنى الإجماع الذي عد من مصادر التشريع الإسلامي، فقد يقع في أفهام كثير من الناس أن عمل الجمهور وبخاصة إذا اتفق توارثه عن أجيال سابقة، وعم العمل به جميع الطبقات في المساجد والمجتمعات وأندية العلماء، من إجماع الأمة التي ورد أنها لا تجتمع على ضلالة فلا يجوز مخالفته ولو ظهر ما يخالفه، ومن هنا يشتد تمسكهم بالبدع بل بالمحرمات بحجة أنها أشياء مأثورة وقد رآها العلماء وخالطوا أهلها ولم ينكروها، فدلَّ على أنها الشرع وغيرها الضلال المبين. وقد انتشر عن هذا الطريق كثير من بدع المساجد والموالد، وإحياء الليالي، والاستئجار على الختمات والتهاليل والتسابيح إلى غير ذلك مما هو معروف بأنه دين والدين منه بريء»[1].

---

(١) البدعة، أسبابها ومضارها، ٢٢ ـ ٢٤.

الجهل بالدين هو الداء ليس غير:

سنتناول الآن بعض الأمثلة وهي ليست سوى نماذج تبين خطورة الكلام بجهل في الدين بعامة وفي السنة بخاصة:

١-يزعم بعض المسلمين أنه لو كان مدلول المحدثة هو ما استُحدِث بعد النبي لكان جمع القرآن من المصاحف محدثة وبدعة وضلالة، ولكن جمع عمر بن الخطاب الناس في صلاة التراويح محدثة وبدعة. والجواب عن ذلك فيما يلي:

لقد سبق لنا الحديث عن العلاقة بين الحديث الموقوف والبدعة. وقد وردت تزكية الرسول للصحابة وخاصة أبي بكر وعمر، فقال عليه السلام «اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر»[1] وقال ﷺ في عمر «إيه يا ابن الخطاب والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان قط سالكاً فجاً إلا سلك فجاً غير فجك» وقال فيه أيضاً «قد كان في الأمم قبلكم محدثون (أي مُلْهَمون) فإن يكون في أمتي منهم أحد، فإنه عمر بن الخطاب» متفق عليه[2].

هذا بشكل عام عن الصحابة وعن عمر. أما جمع عمر الناس في صلاة التراويح؟[3] فإنّ عمر حينما فعل ذلك لم يفعله ابتداءً، فقد ورد في سنن أبي داود ما يفيد حث الرسول على قيام صلاة الليل مع الإمام في رمضان، كما أنه ﷺ جمع الناس على التراويح ثلاث ليال. وكما يروي عنه جابر في الصحيحين «ولكن خشيت أن تُفْرَض عليكم فتعجزوا عنها».

يقول ابن تيمية رحمه الله: «فأما صلاة التراويح فليست بدعة في

(١) تمت الإشارة إليه.

(٢) اخرجه البخاري ومسلم عن عائشة.

(٣) انظر السيوطي، «الحاوي للفتاوي»، جـ١ ص ٣٤٧ ـ ٣٥٠، تحت عنوان «المصابيح في صلاة التراويح».

الشـريعة بل هي سنة بقول رسول الله ﷺ وفعله فإنه قال «إن الله فرض عليكم صيام رمضان وسننت لكم قيامه».

ولا صلاتها جماعة بدعة، بل هي سنة في الشريعة، بل قد صلاها رسول الله ﷺ في جماعة في أول شهر رمضان ليلتين، بل ثلاثاً، وصلاها أيضـاً في العشر الأواخر في جماعة مرات وقال «إن الرجل إذا صلى مع الإمام حتى ينصرف كتب له قيام ليلة» ولما قام بهم حتى خشوا أن يفوتهم الفلاح، رواه أهل السنن.

وإذا كان كذلك، فأصحاب النبي ﷺ قد كانوا يصلون قيام رمضان على عهـده جمـاعـة وفرادى، وقد قال لهم في الليلة الثالثة والرابعة لمّا اجتمعوا «انه لم يمنعني أن أخرج اليكم إلا كراهة أن يُفرض عليكم، فصلوا في بيوتكم فإن أفضل صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة» فعلل ﷺ عدم الخروج بخشية الإفتراض، فعلم بذلك أن المقتضي للخروج قائم، وأنه لولا خوف الإفتـراض لخرج إليهم فلما كان في عهد عمر جمعهم على قارىء واحـد وأسـرج المسجد فصارت هذه الهيئة ـ وهي اجتماعهم في المسجد على إمام واحد مع الاسراج ـ عملاً لم يكونوا يعملونه من قبل فسمي بدعة لأنه في اللغة يسمى بذلك، وإن لم يكن بدعة شرعية لأن السنة اقتضت أنه عمل صالح لولا خوف الإفتراض، وخوف الإفتراض قد زال بموته ﷺ فانتفى المعارض.

وهكذا جمع القرآن، فإن المانع من جمعه على عهد رسول الله ﷺ كان أن الوحي كان لا يزال ينزل فيغير الله ما يشاء، ويحكم ما يريد، فلو جمع في مصحف واحد لتعسّر أو تعذّر تغييره كل وقت، فلما استقر القرآن بموته ﷺ واستقرت الشريعة بموته ﷺ أَمِنَ الناس من زيادة القرآن ونقصه، وأمنـوا من زيادة الإيجـاب والتحريم، والمقتضي للعمل قائم بسنته ﷺ فعمل المسلمون بمقتضى سنته وذلك العمل من سنته، وإن كان يسمى

هذا في اللغـة بدعـة، وصار هذا كنفي عمر رضي الله عنه ليهود خيبر، ونصارى نجران ونحوهم من أرض العرب، فإن النبي ﷺ عهد بذلك في مرضه فقال «اخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب» وإنما لم ينفذه أبو بكر رضي الله عنه لاشتغاله عنه بقتال أهل الردة، وبشروعه في قتال فارس والروم، وكذلك عمر لم يمكنه فعله في أول الأمر لاشتغاله بقتال فارس والروم، فلما تمكن من ذلك فعل ما أمر به النبي ﷺ، وإن كان هذا الفعل قد يسمى بدعة في اللغة، كما قال له اليهود «كيف تخرجنا وقد أقرّنا أبو القاسم؟» وكما جاءوا إلى علي رضي الله عنه في خلافته فأرادوا منه إعادتهم وقالوا «كتابك بخطك» فامتنع من ذلك لأن ذلك الفعل من عمر كان بعهد رسول الله ﷺ وإن كان محدثاً بعده ومغيراً لما فعله هو ﷺ.

ومن هذا البـاب: قتال أبي بكر لمانعي الزكاة، فإنه وإن كان بدعة لغوية من حيث أن النبي ﷺ لم يقاتل أحداً على إيتاء الزكاة فقط، لكن لما قال «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وإن محمداً رسـول الله، فإذا فعلوا ذلـك عصمـوا مني دمـاءهم وأمـوالهم إلا بحقها وحسابهم على الله» وقد علم أن الزكاة من حق لا إله إلا الله، فلم يعصم مجـرد قولهـا من منع الزكاة كما بيّنه في الحديث الآخر الصحيح «حتى يشهـدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة» وهذا باب واسع»[1].

أمـا الإحتجـاج بقول عمر «نعمت البدعة هذه» فيرد عليه ابن تيمية بقوله: «تسـمية عمر هذه تسمية لغوية لا تسمية شرعية، وذلك لأن البدع في اللغة تعم كل ما فُعلَ ابتداءً على غير مثال سابق، أما البدعة الشرعية فكل مالا يدل عليه دليل شرعي، فإذا كان نص رسول الله ﷺ قد دل على استحباب فعل أو إيجابه بعد موته، ككتاب الصدقة الذي أخرجه أبو بكر

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم، ٢٧٥ ـ ٢٧٨.

رضي الله عنه، فإذا عمل أحد ذلك العمل بعد موته صح أن يسمى بدعة في اللغة لأنه عمل مبتدأ، كما أن نص الدين الذي جاء به النبي ﷺ يسمى بدعة ويسمى محدثاً في اللغة، ثم العمل الذي يدل عليه الكتاب والسنة ليس بدعة في الشريعة، وإن سمي بدعة في اللغة، فلفظ البدعة في اللغة أعم من لفظ البدعة في الشريعة، وقد عُلِمَ أن قول النبي ﷺ: «كل بدعة ضلالة» لم يُرَدْ به كل عمل مبتدأ، وإنما أراد من الأعمال التي لم يشرعها هو ﷺ»[1].

٢- يزعم آخرون أن لفظ محدثة لا يراد بها الشيء يستجد، بدليل أن الذين ينتقض وضوءه يسمى محدثاً لا لأنه أتى بشيء جديد، لم يكن معروفاً وإنما لأنه أتى بأمر نقض فيه عرى طهارته.

وجواب ذلك ما ورد في لسان العرب: بدعة: أنشأه وابتدعه، وفيه بَدَعَ الخلق أحدثهم لا على مثال سابق. والبَدْع: الأمر الذي يكون أولاً. وفي المصباح: أبدعت الشيء وابتدعته: استخرجته وأحدثته. ومنه قيل للحالة المخالفة بدعة. أما وجه الشبه بين من نُقض وضوءه ويسمى محدثاً، وبين من يأتي بشيء جديد يضيفه إلى الدين، ويسمى أيضاً محدثاً، فهو أن كليهما يجمع بينهما نقض شيء، فالأول نقض وضوءه بأحد نواقض الوضوء، والثاني نقض عروة من عرى الإسلام بتعديه على حق الله في التشريع. وقد ورد في الحديث الصحيح: «لتنقضن عرى الإسلام عروة عروة. .»[2].

٣- أما سنة الجمعة القبلية، وهي بدعة اعتقد كثير من الناس

---

(١) ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم، ص ٢٧٥ - ٢٧٦.

(٢) حديث صحيح رواه أحمد في مسنده وابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه عن أبي أمامه، انظر صحيح الجامع الصغير وزيادته ٤٩٥١.

مشروعيتها، واحتجوا لها بما لا يصلح دليلاً فذكروا ما يلي دليلاً على مشروعيتها:

أ- إن ابن عمر كان يصلي قبل الجمعة أربعاً وبعدها أربعاً، وأنه كان يصلي قبل الجمعة فيطيل الصلاة.

ب - قوله ﷺ «بين كل اذانين صلاة لمن شاء»[1].

والحق أنه ليس هناك تناقض بين ما أورده هؤلاء وبين عدم وجود سنة قبلية للجمعة. فليس ثمة ما يمنع من الصلاة قبل الجمعة، طالماً أن هذه الصلاة ليست سنة قبلية، فللمسلم أن يصلي ركعتين عند دخوله المسجد أو نفلاً تقرباً إلى الله. وصلاة ابن عمر كانت من هذا القبيل، وما ورد من قوله عليه السلام «بين كل آذانين صلاة» فهو حديث صحيح لكن الإحتجاج به دليل على عدم العلم بالسنة من قريب أو بعيد. فهاتان ركعتان يسن للمسلم أن يصليهما بين الأذان والإقامة من كل صلاة من الصلوات، والمراد بين كل آذانين: الأذان والإقامة لكل صلاة لا كما فهم بعض الناس بين الأذان الأول والثاني. كما أنه لم يرد في هذا الحديث ما يشير للجمعة، بل وردت كلمة (آذانين) نكرة.

إننا لا نريد أن نجعل من سنة الجمعة القبلية قضية المسلمين الأولى، ولكننا نرفض أي مبدأ وأي طريق تُضاف فيه عبادات جديدة للإسلام الذي كَمُلَ عقيدةً وعبادةً وأصولاً منذ زمن رسول الله ﷺ.

٤- ولبعض الناس ما يظنون أنها حجة على من يحارب البدع بأنه يسد أبواب الخير، والجواب.

- أليس الإسلامُ هو الخير كله؟

---

(١) حديث متفق عليه، انظر صحيح الجامع الصغير وزيادته ٢٨٤٧.

ـ ألم يأت في الإسلام من أبواب الخير ما يكفي حتى نفتح أبواباً أخرى؟

ـ وهل ترك الإسلام باباً من الخير لم يفتحه للناس؟

ـ وهل الخير يكون باتباع ما جاء في الدين أم بالابتداع والإضافة؟

ـ أم هل هل يريد بعض المسلمين أن يكونوا أكمل من الرسول ﷺ وصحابته الذين اكتفوا بما شرعه الله لهم؟ فإذا أرادوا ذلك فليراجعوا إذن إيمانهم.

ـ أم هل يا ترى أن المسلمين الآن فعلوا كل ما أمرهم الله به، وطلبوا المزيد فأخذ بعضهم يُشَرِّع بفتح أبواب أخرى للخير؟

ويستدل هؤلاء بأن النبي ﷺ في حجة الوداع كان ينزل عليه القرآن وهو يعرف تأويله، وما عمل به من شيء عملناه، فأهلَّ بالتوحيد لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك. إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك. وأهلَّ الناس بهذا الذي يهلون به، فلم يرد عليهم رسول الله شيئاً، ولزم رسول الله تلبيته.

إنَّ الحديث الذي استدلوا به، ليس فيه ما يؤيد دعواهم. إذ من المعروف أن سنة رسول الله ﷺ هي قوله أو فعله أو إقراره. وسكوته ﷺ عمن زاد في التلبية عن تلبيته ﷺ هو من باب الإقرار فمن الآن يُقرُّ أحداً أو يخالفه عن وحي؟! ولا وحي بعد رسول الله ﷺ فليس هناك ما يفيد ما ذهبوا إليه من استدلالهم بالحديث.

إن الزعم بأن من البدع ما يكون حسناً وهو عندئذ خير للناس يرد عليه بعنف الشيخ الأكبر محمود شلتوت رحمه الله فيقول: «فإذا كان المبتدع يرى أن ابتداعه لم يكن إلا لخير الناس في دينهم، فما أجدره بالحزن العميق على نفسه بموقفه من البدعة التي عرف الشارع ما فيها من خطأ

وزلـل وحمق. وإذا كان الإبتـداع يتضمن هذا الوضع السيء من هاتين الناحيتين: اغتصاب حق الله في التشريع، والوقوف من التشريع موقف من يعتقد فيه النقص، فإنه من جهة ثالثة يُوقع الناس في اعتقاد أنَّ ما ليس من الدين دين. وهو من التلبيس الذي ضًل به كثير من أهل الكتاب وصرفوا به كثيراً من الناس عن طريق الهدى والرشاد»[1].

٥ـ ولآخرين دعوى مفادها: إن الادعاء القائل أن كل شيء في العبادة لا بد فيه من الاتباع، ولا تجوز فيه المخالفة، ادعاء غير صحيح، وأن النبي ﷺ ترك لنا جزئيات نتصرف فيها بما لا يغير شكل عبادة منصوص عليها.

والحق أن القاعدة الشرعية تفيد أنه لا اجتهاد في مورد النص كما تقدم وان العبادة والعقيدة من الأمور التي لا يجوز الاجتهاد فيها من قريب أو بعيد، وهـذا ما أجمـع عليه المسلمـون قاطبـة. وفي هذا يقول الشيخ الأكبر شيخ الجامع الأزهر سابقاً محمود شلتوت رحمه الله ما نصه: «وأما الجهل بمحل القياس في التشريع، فقد نشأ عنه أيضاً أن قاس الناس من متأخري الفقهاء في العبادات وأثبتوا به في الدين مالم ترد به سنة ولا عمل، مع توفر الحـاجـة إلى عمله وعـدم المـانع منه، ومن ذلك إسقاط الصلاة، فإن أصحابها قاسوها على فدية الصوم التي ورد النص بها، ولم يقفوا عند هذا الحكم بالجواز، بل توسعوا فشرعوا لها من الحيل ما يجعلها صورة لا روح فيها ولا أثر لها.

والابتـداع هنا من أغرب أنواع الابتداع، فهو ابتداع لأصل الحكم واحتيال لإسقـاط تكـاليف الحكم المبتـدع، ثم إعتبـار الأمرين البدعة والاحتيال في إسقـاطها من الدين ـ ويجدر بنا تسميته بالبدعة المركبة ـ يخرجان من عهدة التكليف، وهذا نوع خاص من البدعة»[2].

---

(١) محمود شلتوت، البدعة اسبابها ومضارها، ٢٨ ـ ٢٩.

(٢) المصدر السابق، ١١ ـ ١٢.

وختاماً فإنه بإمكان طالب الحق الباحث عن الحقيقة في موضوع «السنة والبدعة» أن تنجلي له الصورة بشكل أوضح بالرجوع إلى الكتب الآتية:

١ـ العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم، محمد بن الوزير اليماني.
٢ـ الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم ـ محمد بن الوزير اليماني.
٣ـ إيقاظ همم أولي الأبصار لصالح بن محمد الشهير بالفلاني.
٤ـ الاتباع لابن أبي العز الحنفي.
٥ـ الابداع في مضار الابتداع لشيخ الأزهر سابقاً على محفوظ.
٦ـ الاعتصام ـ لأبي اسحاق الشاطبي.
٧ـ السنن والمبتدعات المتعلقة بالاذكار والصلوات ـ محمد عبد السلام الشقيري.
٨ـ تحذير المسلمين عن الابتداع والبدع في الدين ـ أحمد بن حجر آل بوطامي.
٩ـ البدعة وأثرها السيء في الأمة ـ سليم الهلالي.
١٠ـ البدعة أسبابها ومضارها ـ الشيخ محمود شلتوت.
١١ـ مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة ـ السيوطي.
١٢ـ الحديث حجة بنفسه في الاحكام والعقائد ـ محمد ناصر الدين الألباني.
١٣ـ هل المسلم ملزم باتباع مذهب معين ـ المعصومي.
١٤ـ منزلة السنة في الإسلام ـ محمد ناصر الدين الألباني.
١٥ـ اصلاح المساجد من البدع والعوائد ـ جمال الدين القاسمي.
١٦ـ المساجد بين الاتباع والابتداع ـ محمد القيسي.

أمثلة من الإنحراف والتحريف المعاصرين

إن تعدد أوجه الانحراف والتحريف ليس أمراً غريباً، فالباطل متعدد والحق واحد. لذا ليس عجباً أن نرى اتحاداً في اسباب مظاهر التحريف، وهو البعد عن منهج الكتاب والسنة، وأن نرى تعدداً في نتائج الابتعاد عن هذه المنهج.

وفيما يلي عرض لبعض مظاهر الانحراف والتحريف في القرن العشرين:

١ـ دعوى أن دور الإسلام مشابه لدور الأديان الأخرى، مقصور على تحديد وتنظيم العلاقة بين العبد وربه، وأن الإسلام لم يأت كمنهاج حياة شامل. وهذا إنما هو ترديد للمفهوم الغربي للدين، وهو خطوة نحو فصل الدين عن الدولة كما حصل في أوروبا، أي العلمانية.

٢ـ العمل والأخذ ببعض احكام الإسلام وترك بقية احكامه، مثل التزام الناس بالعبادات والشعائر الدينية، وإهمالهم الالتزام بالأحكام الشرعية فيما يخص النظام الاجتماعي مثلاً، فلا تظهر فيهم سمات المجتمع المسلم.

٣ـ تحريف مفهوم صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان على حساب الإسلام وأحكامه، فمثلاً حينما تختلط العائلات في الزيارة رجالاً ونساءاً، ويعترض أناسٌ، يكون الجواب: إن هذا ينسجم مع روح الإسلام الصالح لكل زمان ومكان. وهكذا أصاب هذا المفهومَ نوعٌ من الميوعة جعلت في إدعائه وترديده شبهة واستنكاراً.

٤ـ دعوى التوفيق بين الأصالة والمعاصرة. ويريدون بالاصالة الإسلام، والمعاصرة روح العصر الحديث. ويكفي هذه الدعوى شراً وخطراً أنها تترك الانطباع بأن الدين وأحكامه لا تتلاءم مع العصر الحديث دون تعديل أو توفيق بينهما، ونحن نعتقد خلاف ذلك وأن الأصالة وحدها تكفي، ففيها المعاصرة.

٥ـ المطالبة بالالتزام بروح الإسلام لا بنصوصه، في محاولة لنسف أوامر الإسلام ونواهيه. وتحقيقاً لهذا المطلب تم إطلاق أوصاف سيئة على الملتزمين، تشويهاً لصورتهم، وإثناءً لهم عن استقامتهم. وهكذا أصبح يُطلق على المتمسك بدينه: متزمت، متشنج، متطرف، جامد، حرفي، متعصب. ومقابل ذلك طالب هؤلاء بالالتزام بروح الإسلام لا بنصوصه، وبالأفكار المعقولة المعتدلة في محاولة لتمييع القضية من أساسها وفي محاولة خبيثة للإشارة بطريقة غير مباشرة إلى وجود أفكار غير معقولة وغير معتدلة في الإسلام.

٦ـ تحريف المصطلحات التي تدل على أمور منكرة، وإطلاق الفاظ جميلة وأسماء مقبولة في محاولة لتجميل تلك الأمور لجعلها مقبولة لدى الناس، فأطلقت المشروبات الروحية على الخمر، والإكرامية على الرشوة، والفائدة على الربا، والفنانة على الراقصة التي تعبث بجسدها، والشيخ على الساحر، والتحرر والعصرية على التحلل من قيود الأخلاق. وقد أشار رسول الله ﷺ إلى بعض هذه الأمور فقال: «ليشربن ناس من أمتي الخمر، يسمونها بغير اسمها»[1].

٧ـ استعمال مصطلحات غريبة لوصف الإسلام، كوصف الإسلام بأنه دين ديمقراطي، والإشارة إلى اشتراكية الإسلام، أو أن الإسلام دين

(١) حديث صحيح رواه ابو مالك الاشعري وأخرجه أبو داود (٣٦٨٨) وابن ماجة (٤٠٢٠).

اشتراكي. مما لا يجوز اطلاقه على الإسلام، فالإسلام هو الإسلام، والمسلم هو المسلم.

٨ـ إطلاق لفظ التراث على الإسلام، وهو لفظ لطيف يطلق في محاولة ذكية لإعطاء الانطباع بأنه لا صلة له بالحاضر أو المستقبل. يقول الأستاذ أنور الجندي: «مفهوم التراث لا ينطبق على الفكر الإسلامي الحي المتجدد الفعال وإنما ينطبق على الفكر الروماني المبتوت المنقطع الذي انفصل ألف عام ومن ثم فقد حق أن يكون موضع المراجعة والنظر والانتقاء»[1].

٩ـ حصر الإسلام في مؤسسات معينة وفي أناس معينين. وهذا ما أصاب اليهودية والنصرانية من قبل. وهكذا حصر الإسلام في مؤسسات دينية ورجال دين. لكن ذلك لا ينفي الحقيقة الخالدة أنه لا توجد منظمة دينية ولا رجال دين في الإسلام. وكما أنه لا رجال دين في الإسلام، غير أن في واقع المسلمين رجال دين. وكما أنه لا كهنوتية في الإسلام، غير أن في واقع المسلمين طبقة تتصف إلى حد ما ببعض صفات الكهنوتية.

إن نظام الإسلام وإن كان لا يمنع من وجود وزارات مختلفة، لكن لا على أساس حصر الإسلام بواحدة منها، فحصر الإسلام في وزارة معينة وعزل الإسلام عن المؤسسات الأخرى بداعي التخصص ونحوه أمر ليس من الدين في شيء.

---

(٢) أنور الجندي، شبهات في الفكر الإسلامي، ص ٥٤.

القسم الثانــي

معالم الهدى إلى فهم الإسلام

١ـ التجديد: معناه الصحيح ومعانيه غير الصحيحة.
٢ـ العنصر الأساس في التجديد.
٣ـ التجديد في فهم العقيدة.
٤ـ تجديد التفسير.
٥ـ تجديد الفقه.
٦ـ دور السلطة السياسية في حماية الدين من التحريف.
٧ـ الثقافة الإسلامية والغزو الثقافي.
٨ـ خاتمــــة.

التجديد: معناه الصحيح ومعانيه غير الصحيحة

رأينـا كيف كان الإنحـراف بقصـد أو بغير قصد عملية مستمرة فيما يخص فهم الإسلام، وأنها نجحت فيما يخص الفهم إلى حد ما وفي بعض الأوساط بسبب الجهل أو الهوى، وأنها فشلت تماماً فيما يخص تحريف النصوص.

ومن هنا فإن عملية أخرى ينبغي أن تُواجه الأنحراف، المقصود أو غير المقصود، وأعني بها التجديد، وذلك للأسباب التالية:

١ـ إن طبيعة تركيب الأمة الإسلامية من شعوب شتى دخلت وتدخل في الإسلام باستمرار يخلق وضعاً صعباً وخطيراً، إذا لم توجد الضمانات الكافية لحمايته من التحريف.

٢ـ إن تحريف الإسلام أمر بالغ الخطورة، ذلك أنه إذا كان تحريف الأديان الأخـرى شيئـاً قبيحـاً، فإن تحـريف الإسلام أشد قباحة وأفدح خطورة، نظراً لأنه خاتم الأديان والرسالات، فلو حُرِّف لظل على تحريفه، لأنه لا دين بعده يهيمن عليه ويصوبه.

٣ـ إن مؤامرات المنافقين من الداخل ومؤمرات أعداء الأمة من الخارج وجهـل المسلمين بدينهم وابتعـادهم عن المصـدرين الأصيلين للعلوم الشرعية (الكتاب والسنة) بالإضافة لداعي الهوى والتقليد، كل ذلك يدعو لاستمرار تجديد الدين وإعادة الأصالة إليه باستمرار.

٤ـ إن قوة الإسـلام وقوة المسلمين تكمن في أسباب أهمها وضوح

صورة الإسـلام الأصلية في أذهـان المسلمين، ويعكس ذلك يكـون الضعف. وقـد أصاب أنور الجندي إذ يقول: «الواقع أن الغرب يخشى الإسلام في مفهومه الصحيح لأنه يحول دون نفوذه ووجوده وسيطرته ويرفع المسلمين إلى مقاومته وتحرير أرضهم»[1].

٥ـ ومن هنا فإنه ينبغي التأكيد على أهمية القيام بحفظ الإسلام من العناصر الأجنبية الد خيلة ومقاومتها، وتلك مسؤولية كل مسلم قال تعالى: ﴿لِتَكـونـوا شهداءَ على النَّاسِ ويكونَ الرَّسولُ عليكُم شَهيداً﴾ [البقرة: ١٤٣]. ولهذا واكبت جهود الإصلاح الديني تاريخ المسلمين الطويل، وكان همّ القائمين عليها إعادة الناس للكتاب والسنة.

ماذا يعني تجديد الإسلام؟؟

«ما من شك أن التجـديد لا يعني التغيير أو التحول عن المبادىء والأهـداف، والتبعية لجميع التيارات الفكـرية أو المادية أو الذهاب مع الأهواء والشهوات، لأن هذا لا يسمى تجديداً بل يسمى انحلالاً وتفككاً وذوباناً وموتاً. لأن جميع الأديان والمذاهب العالمية والأحزاب الكبرى لا يمكنها أن تُثبت ذاتيتها وتفرض وجودها وتدعم وسائل بقائها إلا إذا كان لها دستور واضح ومبادىء محدودة وأهداف معينة محترمة ومنهاج حاكم لا محكوم»[2].

كما أن التجديد لا يعني الإتيان بشيء جديد أو سلوك طريق جديد، فهذا إنما هو خلط بين الإسلام وغيره وتوفيق بين الإسلام وما يناقضه، في حين أن التجديد يعني تنقية الإسلام من العناصر الأجنبية الدخيلة ولا يعني التوفيق بينها وبين الإسلام.

---

(١) أنور الجندي، شبهات في الفكر الإسلامي، ص ٢٤.

(٢) الاجتهاد والتجديد في التشريع الإسلامي، ٥١.

والحق أن تجديد الإسلام هو الإتيان به جديداً كما كان، ولا يكون ذلك إلا بعد أن تندرس بعض معالمه فتغدو غير واضحة. فالتجديد يكون بأن تسلك الأمة الطريق الصحيح مرة أخرى، وهذا لا يكون مرة واحدة بل هو ضروري كلما ابتعد المسلمون عن الصحيح الأصيل المتوارث من لدن رسول الله، قال ﷺ: «إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»(١).

إن في الحديث حثاً على التجديد وتحريضاً لنيل فضله وخيره. فالحديث وإن أفادنا خبراً عن التجديد الذي سيقع، إلا أنه أيضاً تضمن الأمر بالتجديد، ومن هنا فإن تجديد الدين مسؤولية الأمة فهو إذن فرض كفاية على العلماء أن يقوموا به وإلا أصبح فرض عين تأثم الأمة بإهماله. قال ﷺ: «إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء. قيل: من هم يا رسول الله: قال: الذين يَصْلُحُون إذا فسد الناس»(٢).

غير أنه مما يجب أن يلفت النظر إليه أن التجديد بمعانٍ معينة مرفوض، فالتجديد بمعنى تطوير الأحكام وتغييرها مع مرور الأيام والسنين أمر يرفضه الإسلام، فالأحكام الشرعية لا تتغير بتغير الأزمنة، لأن الزمان ليس عامل تغيير بالنسبة للأحكام. والإسلام هو الذي يُطّور الأزمنة وليست الأزمنة هي التي تطور الإسلام.

أما تغيير الحكم للمسألة الواحدة بتغير العلة فهذا ليس تطوراً وتغييراً في الشريعة، بل هو أحد أهم خصائصها وهو المرونة. وحتى هذه المرونة لا تتسم بها مبادىء الإسلام كلها. فهناك مبادىء ثابتة لا يمكن أن تتغير بتغير الزمان والمكان. «فيجب إذن أن نفرق بين الجوهري من الدين وهو

---

(١) صحيح، عن أبي هريرة، أخرجه أبو داود (٤٢٩١)، انظر لتخريجه الالباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة جـ ٢، ص ١٥٠.

(٢) سبقت الإشارة إليه ص ١٨.

أصوله التي تضمنتها نصوصه الصريحة الواضحة مما يعد دستور الإسلام، وبين أحكامه الاجتهادية المبنية على علة متبدلة أو عرف متغير أو مصالح اقتضتها الحاجة. فأما ما هو جوهري فإنه خالد باق لا يقبل التغيير، وأما ما عداه فإن أحكامه قابلة للتغير لا للتطور»[1]، وهذا التغيير محكوم بعلة الحكم، لا بحكمة الحكم.

إن الإسلام تنزيل معصوم كامل قادر وحده على الإستجابة لحل كل المشاكل المتجددة، فلا حاجة إلى إدخال عناصر غريبة عليه بقصد تطويره، لأن إدخال هذه العناصر يعني أنه غير كامل وغير قادر، هذا إذا كان بحاجة لهذه العناصر، وإن لم يكن بحاجة إليها فلا فائدة منها.

إن تطويع العقيدة أو الشريعة أو أي مظهر منهما لدعاوى التطوير المخطئة والخاطئة هي إتهام للإسلام بأنه غير كامل. هذا إذا افترضنا حسن القصد، أو على أسوأ الأحوال هي عملية مقصودة ترمي إلى تشويه الإسلام وتحريف مساره الصحيح وتمييع الثابت منه ليلائم الأهواء البشرية المتبدلة المتغيرة.

ولا ريب أن هناك فجوة بين الإسلام والواقع الذي تعيشه البشرية، وحتى تزول هذه الفجوة: فأمامنا ثلاثة حلول يجب أن نختار منها واحداً؟!

١ـ أن يُكيَّف الواقعُ لكي يتلاءم مع الإسلام.
٢ـ أن يُكيَّف الإسلام لكي يتلاءم مع الواقع.
٣ـ أن يحدث التكييف بقدر متساوٍ بين الاثنين.

وإنه مما لا يحتاج لبرهان أو دليل أن متطلبات الحياة متجددة، وهذا التجدد دائم مستمر. والسؤال الذي يطرح نفسه بهذا الصدد هو: هل تُخْضَع الشريعة لمتطلبات الحياة المتغيرة، أم تُخْضَع متطلبات الحياة

(١) الاجتهاد والتجديد في التشريع الإسلامي، ص ٥٢.

المتغيرة للشـريعة؟ ويمكننا أن نضع السؤال بطريقة أخرى: هل نُخضعُ المتغيرَ للثابت أم نُخضعُ الثابتَ للمتغير؟. إن الثابت إذا خضع للمتغير لم يعد ثابتاً بل أصبح متغيراً، وبالتالي فإنه لم يعد صالحاً لأن يخضع له المتغير.

ومما لا ريب فيه أن العقـل البشـري متفاوت ومختلف، بل العقل الواحد متغير ومتفاوت. ومن غير المعقول ولا المقبول أن يخضع الثابت الإلهي للمتغير البشري، فالمتغير بحاجة دائمة إلى ثابت يرعاه ويضبطه. والثبات لا يعني الجمود وعدم القدرة على حل المشاكل، والشريعة جمعت بين العنصرين: الثبات والمرونة، ففي الثبات أصالة وفي المرونة معاصرة، والثاني يخضع للأول وينبثق منه. والأمر يجب أن لا يُنْظَر إليه من حيث الثباتُ والجمودُ، فلا يُرفَض الثابت لأنه ثابت. بل يجب أن يُنظَر إليه من حيث صلاحيته، فإن كان صالحاً فنعم، وإن لم يكن صالحاً فيرفض، لا لكـونـه ثابتـاً بل لكـونه غير صالح. الشيء الذي يقال أيضاً عن القديم والجديد، فلا يُرفض القديم لقدمه، ولا يُقْبَل الجديد لأنه جديد، وإنما ينظر للصلاحية أولاً وأخيراً.

والاعتقـاد بصـلاحية الإسلام ـ كما هو ـ لكل زمان ومكان جزء من الاعتقاد بالإسلام أصلاً. فلا يصح إسلام مسلم ما لم يعتقد ذلك ويجزم به.

مرونة الإسلام ذاتية لا إضافية:

إنْ الإسـلام صالح لكل زمان ومكان وحده، دون تعديلات عليه أو إضافات إليه ومرونة الإسلام نابعة من ذاته، لا حاجة لأن تضاف إليه عناصر مرونة أجنبية ودخيلة. ومتى طوَّعنا الإسلام للعصر بإدخال تعديلات عليه فإننا نكون بذلك قد سلكنا مسلك أهل الأديان الأخرى قبل الإسلام، أعني التحريف.

وحينما يقال: إن الإسلام صالح لكل زمان ومكان، فإن ذلك لا يعني بحال أن الإسلام صالح لكل مجتمع. فصلاحية الإسلام للمجتمعات البشرية مرهونة بقبول تلك المجتمعات للإسلام وتبنيها له عقيدة وشريعة ونظام حياة، لا بتطويع الإسلام وتعالميه لثقافتها وأسلوب حياتها.

والأدلة على مرونة الإسلام كثيرة، نستقيها من الإسلام نفسه، وهي بذلك تثبت أن مرونته ذاتية، من هذه الأدلة:

١- إن المسألة الواحدة لها عدة أحكام بحسب الأحوال والظروف، فأكل لحم الخنزير حرام بدليل قوله تعالى: ﴿إنَّما حَرَّم عليكُم المَيْتَةَ والدَمَ ولَحمَ الخِنْزِيرِ وما أُهِلَّ به لغيرِ الله﴾ [البقرة: ١٧٣]. ولكنه ينقلب إلى واجب مرة واحدة في حالة الضرورة، وهي إذا فقد الإنسان أي نوع آخر من الطعام، وشارفت نفسه على الهلاك، فإنه يصبح في هذه الحالة واجباً بدليل قوله تعالى: ﴿إلَّا ما اضْطُرِرْتُم إليْهِ﴾ [الأنعام, ١١٩] وقوله تعالى: ﴿ولا تُلقُوا بأيدِيكُم إلى التَّهلُكةِ﴾ [البقرة: ١٩٥] لكنه سرعان ما يعود إلى حكمه الأصلي وهو التحريم إذا زالت العلة التي حكمت بوجوب أكله وهي الاضطرار.

٢- الصوم في رمضان واجب على كل مسلم مكلف قادر سوى الحائض والنفساء. لكن لو وقع الإنسان فجأة في المرض أو سافر سقط الصوم عنه قال تعالى: ﴿وَمَن كانَ مريضاً أو على سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أيامٍ أُخَرَ يُريدُ الله بِكم اليُسرَ ولا يُريدُ بكم العُسرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

٣- الطلاق: فمن المعلوم أن أحكاماً أربعة تعتري الطلاق، فيكون واجباً على من حلف أن لا يطأ زوجته مدة تزيد على أربعة أشهر إذا لم يرجع للوطء، وعند الشقاق إذا رأى الحكمان المصلحة في التفريق،

ومستحباً إذا كان الزوج مقصراً في حقها أو كانت غير عفيفة، ومحرماً وهو إيقاعه في حيض.

٤ـ القرض: حكمه الأصلي سنة مؤكدة، لكنه قد يصبح واجباً للمضطر وحراماً لمن يستعين به على معصية.

٥ـ من شروط الولي، وهو أحد أركان عقد النكاح، أن لا يكون فاسقاً. لكن الأمر يتغير إذا عم الفسق وشاع فتصح ولاية الولي الفاسق.

٦ـ النظر إلى جسد المرأة حرام إلا لزوجها، لكنه ينقلب إلى مباح إذا اقتضت الضرورة أن يعالجها طبيب رجل وليس هناك طبيبة.

٧ـ فرض العين وفرض الكفاية:

من المعلوم أن الفروض نوعان: فرض عين وهو ما يتعين على كل مسلم القيام به كالصلاة، وإذا قام به بعض المسلمين لا يسقط عن الآخرين بل لا بد من قيام الجميع به. وفرض كفاية وهو ما إن قام به بعض المسلمين سقط عن الأمة كافة، كالجهاد والتطبيب والهندسة وصلاة الجنازة. غير أن فرض الكفاية إن لم يقم به بعض المسلمين انقلب فجأة إلى فرض عين وأصبح مسؤولية المسلمين جميعاً القيام به حتى يقوم به بعضهم فيعود إلى وضعهِ الأصلي فرض كفاية.

٨ـ الاستثناءات الشرعية:

فقد استثنى الشارع أموراً معينة من المحرمات فأباحها. فقد حرم الدم واستثنى الكبد والطحال. وحرم الميتة واستثنى ميتة السمك والجراد، وحرَّم كل ذي ناب من السباع يعدو بنابه واستثنى الضبع فقال عليه السلام «الضبع صيد فَكُلْها»[١].

---

(١) طرف من حديث صحيح اخرجه البيهقي في السنن عن جابر رضي الله عنه، انظر صحيح الجامع الصغير وزيادته ٣٧٩٤.

وحرم الشارع أن يبيع الإنسان ما ليس عنده واستثنى السَّلم (وهو بيع شيء آجل موصوف بالذمة بشيء عاجل) تيسيراً على الناس. ويبدو التيسير الذي يحققه السلم واضحاً في مجال التجارة الخارجية.

٩ـ العرف: وهو وإن لم يكن مصدراً من مصادر التشريع، إلا أن بعض الأحكام الشرعية لها صلتها بالعرف، فكان ذلك دليلاً على مرونة الشريعة لا سيما في باب المعاملات. والعرف المعتد به هو الذي لا يخالف نصاً أو أصلاً من نصوص وأصول الشريعة. «ولعل من مظاهر الرعاية لعرف الناس ما يتجلى في مذهب الإمام الشافعي الذي تطورت آراؤه عندما انتقل من العراق إلى مصر، إذ عدل عن بعض ما دوَّنه في مذهبه قبل أن ينتقل إلى مصر، متأثراً بعوامل كثيرةٍ من ذلك التأثر بالأعراف والعادات الجديدة التي تكَّون منها مذهبه الثاني الذي عرف بالجديد»[1].

١٠ـ مظاهر التيسير في الشريعة وهي كثيرة تدل على بعضها القواعد الفقهية الآتية:

أ ـ «المشقة تجلب التيسير» والمراد بها المشقة المتجاوزة للحدود العادية التي تسبب إحراجاً، فإنه يرفع عن المكلفين، أما المشقة الطبيعية في الحدود المعتادة التي يستلزمها عادة أداء الواجبات فلا مانع منها.

ب ـ «إذا ضاق الأمر اتسع وإذا اتسع ضاق» يعني إذا ظهرت مشقة في أمر من الأمور الشرعية يُرخَص فيه، فإذا زالت الضرورة عاد الحكم إلى أصله.

جـ ـ «الضرورات تبيح المحظورات» فأباح الشرع أكل المحرم

---

(١) مصطفى التارزي وآخرون، الاجتهاد والتجديد في التشريع الإسلامي، ص ٥١.

كالميتة عند الضرورة إذا لم يجد غيرها وخشي الموت جوعاً.

د ـ «درء المفاسد أولى من جلب المنافع» أي أنه إذا كان فعل المأمور به أو المباح يستلزم إرتكاب منهي عنه تُرِكَ هذا الفعل. لأن من الحكمة القضاء على المفاسد ولو ترتب على ذلك حرمان من المنافع.

١١ـ أسباب التخفيف في الشريعة وهي:

أ ـ السفر: فيرخص به فطر رمضان وجواز المسح على الخفين ثلاثة أيام بلياليهن وسقوط صلاة الجمعة والعيدين.

ب ـ المرض ومن رخصه:

١ـ الإفطار في رمضان.
٢ـ التيمم عند الخوف على النفس أو الخوف من زيادة المرض.
٣ـ القعود في الصلاة أو الاضطجاع فيها.

جـ ـ الإكراه: فإذا هُدد الإنسان بما يخشى معه على نفسه أو عضوه فله أن يتناول المحرم من المأكولات والمشروبات، كما يُرخص للمُكْرَه على الكفر أن يتلفظ به شريطة اطمئنان قلبه بالإيمان.

د ـ النسيان: فمن أكل وشرب ناسياً فهو على صومه لقول رسول الله ﷺ «من نسي وهو صائم فأكل أو شرب فليتم صومه فإنما أطعمه الله وسقاه»[1].

هـ ـ الحرج وعموم البلوى فيُعفَى عن النجاسات التي لا يمكن الاحتراز عنها.

---

(١) حديث صحيح اخرجه البخاري ومسلم وأحمد في مسنده وابن ماجة عن أبي هريرة، انظر صحيح الجامع الصغير وزيادته ٦٤٤٩.

الثابت والمتغير:ـ

الثابت في الإسلام هو مالا يتغير بتغير الزمان أو المكان، ولا يسوغ أن يكون محل اجتهاد. فأحكامه ثابتة باقية مهما تطورت الحياة، لأن المصالح التي رُوعيت في تشريعها ثابتة، وما بُنيَ على الثابت فهو ثابت. والمتغير هو ما يتغير بتغير الزمان والمكان.

لقد أباح الإسلام لمن توفرت فيه شروط الإجتهاد أن يجتهد في ضوء المصالح العامة على أن لا يخرج ذلك عن الأسس والقواعد التي جعلها الإسلام أصولاً عامة، وأن لا يخالف نصاً صحيحاً من قريب أو بعيد.

مواطن الثبـــات:ـ

أما مواطن الثبات فكثيرة منها:

١ـ العقيدة: فهي مجموعة حقائق لا تقبل التغير والنسخ مطلقاً. فالإيمان بالله مثلاً لا يقبل التغيير وكذلك مبادىء العقيدة كافة قال تعالى: **﴿شَرَعَ لَكُم من الدِّينِ ما وَصى بهِ نوحاً والذي أوحينا إليْكَ وما وَصَّيْنا به إبراهيم وموسى وعيسىٰ أن أقيموا الدِّينَ ولا تَتَفرقُوا فِيه﴾** [الشورىٰ: ١٣]. ومن هنا كان الفرق بين الدين والشريعة، فالدين ـ والمراد به العقيدة ـ واحد لكل الأنبياء والرسل كافة. أما شرائعهم فهي مختلفة ومتفاوته ولهذا قال العلماء: «الدين واحد والشرائع مختلفة».

٢ـ العبادة: أما العبادات فإن الله تعالى شرع أفعالاً خاصة وأقوالاً خاصة على ترتيب خاص، وطلب من عباده أن يعبدوه بها، بعد أن بيَّن لهم شروطها وأركانها «فالصلاة عبادة مؤلفة من أفعال خاصة وأقوال خاصة على ترتيب خاص، والصيام إمساك عن الطعام والشراب وجميع الشهوات في أزمنة مخصوصة. والحج مناسك معينة لها أزمنتها وأمكنتها وأركانها وشروطها وهكذا. ومن الواضح أنها ليست كالعقائد أي أنها ليست حقائق

واقعية مهمة المُشَرِّع أن يكشف عنها وإنما أنشأها بعد أن لم تكن وهذا يخص حقه باعتباره هو الإله المعبود. فمن حقه أن يشرع لعباده ما يعبدونه به، عليهم أن يرجعوا إليه في معرفة ذلك كمّاً وكيفاً ومكاناً وزماناً.

ولهذا يقول أهل الشريعة في إحدى قواعدهم المشهورة: «لا يعبد الله إلا بما شرع». فالأصل في العبادات والقُرب أنها ممنوعة حتى يرد من الشارع ما يدل على طلبها، ويبين لنا هيأتها ورسومها الخاصة، ولا يجوز لأحد أن يُؤلف عبادة من عنده، أو يتصرف في صورة من صور العبادة المشروعة ثم يعبد الله بذلك، وفي هذا يقول القرآن الكريم ناعياً على المشركين: ﴿أم لَهُم شُركاءُ شَرَعُوا لَهُم مِن الدِّينِ ما لم يأذَنْ بِه الله﴾ [الشورى: ٢١]، (وقد سبق تفصيل ذلك عند الكلام على البدعة).

وبهذا الأصل أُبطلت البدع في الدين والعبادات وما يتصل بها. فكل من أراد القربة فعليه أن يتقرب إلى الله بما شرعه الله، ومن تقرب إليه بما لم يشرعه، ولو كان مظهره طاعة وقربه فإنه مبتدع متلاعب بالدين»[1].

٣ـ أحكام الحدود كحد الزنى وحد السرقة وحد القذف وحد الردة وحد الشرب، فهذه ثابتة وثباتها مهم لانها تتصل بأهم الأسس التي ينبني عليها أي مجتمع بشري، فقد شرعت هذه العقوبات لحماية الدين والعقل والنسل والمال والعِرض، ولذلك، لم تترك لاجتهادات القضاة نظراً لأهمية ما يتصل بها وينبني عليها.

٤ـ أحكام المقدرات كتقدير حصص الورثة بنصف أو ثلث أو ربع أو ثمن أو غير ذلك، فإن هذه الحصص غير قابلة للتغيير.

---

(١) محمد المدني «الاجتهاد والتجديد في التشريع الإسلامي» تحرير مصطفى التازي، ص ٥٦.

مواطن التغيير:ـ

١ـ المعاملات:ـ

«وأما موقف المشرع في ميدان المعاملات، فإنه يختلف اختلافاً جوهرياً عن موقفه في كل من ميدان العقائد، وميدان العبادات.

إن الشريعة ليست هي التي أنشأت للناس صور التبادل والتعاون والتعامل، ولكنها جاءت فوجدت صوراً يتعامل الناس بها، فكان لها موقف منها، غير موقف الإنشاء والرسم، وغير موقف الإخبار والوصف، ذلك الموقف هو موقف الإقرار، أو التعديل، أو الإلغاء، وهو ما يمكن لنا أن نسميه «أسلوب الناقد المهذب» وهي لا تتدخل في هذا الميدان إلا بمقدار ما تحمي مُثُلها ومبادئها التي جاءت بها: من العدل والتيسير والرحمة ودفع أسباب التشاحن والبغضاء وربط أفراد المجتمع برباط من المحبة، والتعاون على البر والتقوى، لا على الإثم والعدوان.

وفي المعاملات مجال فسيح للتطور، إذ اكتفى الإسلام في كل ما يرجع إليها من أحكام دستورية واجتماعية واقتصادية ومدنية وجنائية برسم الخطوط العريضة، والكليات العامة، وترك التفصيلات والتطبيقات للمجتهدين يُجيلون فيها عقولهم بما يوافق مصالح الناس ويكفل حاجياتهم.

ومن هنا نرى أهل العلم بالشريعة كما وضعوا في جانب العبادات القاعدة التي ذكرناها، وهي «لا يُعبد الله إلا بما شرع» وضعوا في جانب المعاملات قاعدة اخرى مقابلة لها تقول: «المعاملات طلق حتى يرد المنع»[1].

---

(١) الاجتهاد والتجديد في التشريع الإسلامي ص ٥٢ ـ ٥٧.

غير أن هذا لا يعني عدم وجود قواعد عامة وأصول وضوابط لا يجوز الخروج عنها ومخالفتها.

٢ـ الأحكام الدستورية:

«إذا نظرنا إلى الناحية السياسية، نجد النصوص تسطر الخطوط الرئيسية لنظام الحكم في الإسلام، يقول الله تعالى: ﴿والَّذين استَجابُوا لِرَبِّهم وأقامُوا الصَّلاة وأَمرُهُم شُورىٰ بَيْنَهُم﴾ [الشورىٰ: ٣٨] فقد سطرت الآية مبدأ الشورىٰ، وركزت الأحكام الدستورية عليهْ كأصدق نقطة في نظام الحكم، فضمنت بذلك حقوق الأفراد ولكنها لم تفصل طرق تطبيقها لأنها تختلف باختلاف الأزمان والبيئات، حتى يتمكن ولاة الأمور من وضع نظام يلائم حال المسلمين.

قانون العقوبات:

إذا نظرنا إلى العقوبات فيما عدا الحدود المقررة نجد آيات الأحكام غير كاملة التفصيل أيضاً، فقد أوكل الشارع إلى الحاكم وسائل التعزير وضبط مقاديره. وما دام التعزير موكلاً لاجتهاد الحاكم في الإسلام فهو مظهر من مظاهر المرونة يقررها في ضوء المصلحة العامة. ولا شك أن ذلك يتغير بحسب المصلحة زماناً ومكاناً وحالاً»[1].

٤ـ تنظيم الدولة السياسي والإداري والصحي والعسكري وغير ذلك من تنظيم المرافق والمؤسسات العامة.

---

(١) الاجتهاد والتجديد في التشريع الإسلامي، ٥٢ ـ ٥٣.

العنصر الأساس في التجديد

مع مرور الأيام والسنين يتجمع تراكم من تصورات غير صحيحة عن الإسـلام مضافاً إليها عناصر دخيلة، مما يُكَون مع مرور الزمن هوة بين ممـارسات المسلمين وبين الإسلام. فتقتضي الضرورة تجديد الإسلام باعـادة الفهم الصحيح لنصوصه، والتطبيق القويم لأحكامه، وتنقيتة من العناصر الدخيلة عليه. ولتحقيق هذه الغاية لا بد من أمر يعمل على تصفية الشوائب، ولا بد أن يكون هذا بدوره نقياً لا شائبة فيه، الشيء الذي لا يتوفر إلا في الكتاب والسنة.

الرجوع للكتاب والسنة :ـ

إن الخطوة الأساس في تجديد الإسلام لا تعني أكثر من الرجوع إلى الإسـلام الحق المـوجـود بنظريته السليمة في الكتاب والسنة، وبتطبيقه السليم بأعمال الصحابة والتابعين وتابعيهم. وهذا يعني سلوك طريق أهل السنـة والجماعة، وهم الذين اجتمعوا على الأخذ بسنة رسول الله ﷺ، والعمل بها ظاهراً وباطناً في القول والعمل والإعتقاد.

أما التطبيق العملي لهذا المفهوم فقد عبَّر عن نفسه عبر التاريخ بالفهم السلفي، ولذا فإن العلاقة بين التجديد وهذا الفهم علاقة عضوية لا تنفك، فحيث كان الفهم السلفي كان تجديد الإسلام.

والسلف هم رسول الله ﷺ والصحابة والتابعون من أهل القرون الثلاثة الأولى الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بالخير. فأصبح مذهب السلف علماً على ما كان عليه هؤلاء الصحابة والتابعون وتابعوهم، ومن تبعهم من الأئمة

الأربعة والبخاري ومسلم وسائر أصحاب السنن، الذين اتبعوا طريق السلف ثم أصبح اصطلاحاً يطلق على السلف ومنهجهم في فهم الإسلام وتطبيقه، فهو ليس قصراً على فترة زمنية معنية. وهكذا نشأ المنهج السلفي منذ زمن بعيد منهجاً علمياً متميزاً لفهم الإسلام لا تنظيماً سياسياً. وقد نشأ هذا المنهج كرد فعل إيجابي لتصحيح فهم الإسلام وإعادة المسلمين إليه كما كان في عهد النبوة. وهذا ما يميز الدعوة السلفية والعاملين فيها بالرغم من تباين ظروف البيئة الحضارية وتغير العصور والأزمنة.

والسلفية لا تعني إعطاء السلف أكثر مما يستحقون من مكانة وتقدير، وإنما الأمر كله يعود إلى كون السلف أكثر فهماً للشرع من غيرهم لقربهم من النبع الأصيل.

وعلى الرغم من أننا لسنا معنيين هنا بتفصيلات المنهج السلفي، إلّا أن المقام يقتضي الإشارة إلى بعض قواعد هذا المنهج ومنها:

١ـ التركيز على التوحيد ومقاومة الشرك ومظاهره كافة.

٢ـ تقديم الكتاب والسنة على ما سواهما، واعتبارهما مصدري الأدلة النقلية والعقلية معاً وإخضاع العقل للنص.

٣ـ الحث على الاتباع ومقاومة الابتداع ومظاهره كافة.

٤ـ رفض منهج المتكلمين والفلاسفة فيما يخص العقيدة الإسلامية وبخاصة الصفات الإلهية.

٥ـ التأكيد على عدم إغلاق باب الإجتهاد.

٦ـ عدم التقليد الأعمى لعالم ما دون البحث عن الدليل.

٧ـ الأئمة أكثر من أربعة واتباعهم مقيد بالدليل وهم قدوتنا فيما نقلوا عن الرسول ﷺ بدليل صحيح. ويعنى هذا عدم تحديد التقليد بالأئمة الأربعة.

٨ـ تزكية النفس وتطهيرها.

٩ـ التأكيد على العلم وأهميته.

١٠ـ الامتناع عن الأشتراك في أي تنظيم سياسي حرصاً على الافادة من العلاقة السلمية مع السلطة السياسية لصالح الدعوة للتوحيد وتوعية المسلمين وتعليمهم أمور دينهم. ذلك أن الجهل بالدين هو العدو الأول. كما أن واجب الدعاة أن يبدأوا بما بدأ به الرسل كافة دعواتهم أي التوحيد. ومن هنا فيجب التفرقة والتمييز بين جماعات توصف بأنها سلفية تدعوا إلى العنف والثورة وبين المنهج السلفي كمنهج علمي لفهم الإسلام فهذا الذي ندعو إليه المسلمين كافة لا غيره.

«إن رجال الإصلاح الديني على اختلاف أعصارهم وبيئاتهم ومكوناتهم الشخصية، قد وردوا جميعا من معين واحد: (كتاب الله وسنة رسوله)، وتأسوا بطريقة الإصلاح بإمام الهدى محمد ﷺ. ولذا نرى أن منهجهم قبس من منهجه، وأن طريقهم تبع لطريقه، وحظ كل منهم من النجاح مرتبط بمقدار حظه من التوفيق في حسن الأخذ وحسن التطبيق لذلك المنهج»[١].

ولا شك أن الهدى هو ما كان من الله ورسوله، فهو إذاً محصور في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وليس وراء هذا طريق آخر للهداية. ولذا فقد كانت دعوة الرسول ﷺ تتركز على أمرين:

١ـ توحيد الله، فهو المعبود بحق وحده.

٢ـ توحيد الطريق إليه، طريق عبادته وطاعته. وهذا لا يكون إلا بالتزام الكتاب والسنة.

---

(١) الاجتهاد والتجديد في التشريع الإسلامي، ص ٣٠٥.

إن الـرجـوع إلى الكتاب والسنة بفهم السلف الصالح أمر في غاية الضرورة، والحاجة إليه مستمرة، وهو التجديد بعينه، وهو الأصالة بعينها، وهو أساس أي بعث إسلامي مرتقب، وهو الأساس الذي لا يمكن للأمة أن تتوحد من جديد إلّا به.

التجديد في فهم العقيدة

ما من ريب أن الانحراف في فهم العقيدة يُعد أكثر خطراً من غيره، فالعقيدة هي أساس الإسلام. وما كان عليه المسلمون من مَنَعَه وقوة كان سببه وضوح تصور العقيدة لديهم أولاً، وتفاعلهم معه ثانياً. وما يعانيه المسلمون الآن من ضعف عام في كافة جوانب حياتهم إنما يعود إلى غياب الفهم الصحيح للعقيدة، وبالتالي فلا مجال لتفاعلهم معها، وإن كان هناك من تفاعل فمع فهم مغلوط.

ولا ريب أيضاً أن الإنحراف في فهم العقيدة كان أساس كل الانحرافات التي تلت في حياة المسلمين. فقد شغل الجدل وعلم الكلام وما يُزعم أنه فلسفة إسلامية المسلمين عن حقيقة العقيدة ودورها كقوة محررة لهم ولغيرهم إلى البحث في مسائل لا جدوى من البحث فيها، وابتعد المسلمون عن غاية وجودهم في الأرض وهي نشر الإسلام. فبعد أن كانت حياتهم عملاً وجهاداً وإنقاذاً للبشرية أصبحت جدالاً ونقاشاً في صفات الله وما شابه. فما الذي احرزه المسلمون من الجدل العقلي بين أتباع الفرق الإسلامية والذي كان سبباً مهماً في اختلاف المسلمين في حين أن العقيدة هي مصدر توحيد.

وحينما غاب أو تشوه الفهم الصحيح للعقيدة انتشرت الخرافات. ولا شك أن هذا كان أحد أهم أسباب الانحطاط الروحي والاجتماعي والتدهور العام الذي أصاب حياة المسلمين. «ذلك أن العقيدة هي الأصل الذي يطبع طريقة البشر في تفكيرهم وفي سلوكهم. فأصل الكون ومنزلة

الإنسان فيه وعمله في أبعاده وعلاقة الفرد بغيره وعلاقة المجتمعات فيما بينها كلها منبثقة من العقيدة»[1].

ولقد انتشر الإسلام وتقبلته الأمم والشعوب الأخرى بسرعة حينما كان أصيلاً نقياً، ففي أصالته ونقائه سر تقبله واعتناقه، وفي يسره سر قوته.

إن القول: إنه لم يحدث اختلاف بين المسلمين في مسائل معينة أمر لا يقره التاريخ، فهذا قد حصل للأسف، وإن كان الله عز وجل قد حفظ الأمة ودينها من مضاعفاته وآثاره كما سيتضح معنا فيما بعد.

ولذا وجب أن يأخذ تجديد العقيدة أولى أولويات التجديد، وهذا ما كان دائماً، فتصفية العقيدة مما داخلها هو أول واجبات علماء الإسلام.

غير أن القول: إنَّ العقيدة الإسلامية في بعض جوانبها جرت فيها محاولات للانحراف بها عن المسار الصحيح لا يمس الإسلام بسوء. فالعقيدة شأنها شأن بقية جوانب الإسلام لم تسلم من محاولات الهدم والإيذاء، وهل يعقل أن يحاول أعداء الدين هدم أجزاء الإسلام الأخرى، دون أن ينتبهوا إلى الانقضاض على أهم أجزائه وعناصره والأساس الذي تقوم عليه الأجزاء الأخرى وأعني العقيدة.

إن القول بأنه قد جرت محاولات للانحراف بالعقيدة لا يعني بالضرورة أن تلك المحاولات نجحت إلى الحد الذي أصبحت العقيدة الإسلامية الآن غير تلك العقيدة التي جاء بها رسول الله ﷺ، كما حدث بالنسبة للعقيدة التي جاء بها المسيح عليه السلام وهي عقيدة التوحيد والتي أصبحت بعد مرور نحو ثلاثمائة عام على رفعه للرفيق الأعلى وكأنها عقيدة أخرى، الشيء الذي يختلف تماماً عما عليه الإسلام، فقد حفظ الله على الأمة معتقدها الصحيح، «فنحن على بينة بأن عموم الأمة في الشرق

(١) الاجتهاد والتجديد في التشريع الإسلامي، ص ٣٠٥.

والغرب من ناحية علم أصول الدين غير محتاجة إلى إضافة جديدة، وإنما هو مفتقر إلى التعليم الصحيح وترك ما يؤدي للتشكيك»[1] ولذا فإن تجديد العقيدة إنما يكون:

١ـ بتصفيتها مما داخلها من عناصر أجنبية، ومن شوائب البدع.

٢ـ تصحيح فهم المسلمين لها بإبعاد التفسيرات المنحرفة المغلوطة وبخاصة تفسيرات اتباع الفرق الكلامية من معتزلة وأشاعرة وغيرهم من الاباضية والشيعة والمتصوفة.

٣ـ بالتأكيد والتركيز على دور التوحيد وأهميته وتخليص النفوس من الشرك الخفي.

وهذا لا يمكن أن يتم إلا باستقاء العقيدة من منابعها الأصلية وأعني مصدري الإسلام الرئيسين الكتاب والسنة.

«إن الله تعالى هو مُنزِل العقائد مشرع الأحكام فليس لأحد أن يحتج في أي جانب من جوانب الدين، بما يحدثه من بدع. ولا شيء يخرج المسلمين مما هم فيه من الإنحلال الديني وضعف العقيدة إلا الرجوع بهم إلى الدين في أصوله الصافية»[2].

إن العقيدة مصدرها كتاب الله تبارك وتعالى وسنة رسوله ولا يجوز أبداً لأي مسلم أن يتخذ طريقاً آخر غيرهما، وهكذا فكل عقيدة تخالف كتاب الله تعالى وسنة رسوله فهي عقيدة باطلة يجب حربها والقضاء عليها.

ومن هنا فإن المنهج الصحيح الوحيد في فهم العقيدة هو منهج القرآن والسنة لا منهج علماء الكلام أو الفلاسفة المسلمين. وعلى سبيل المثال لا الحصر فإن منهج القرآن في الصفات الإلهية يقتضي إثباتها بلا كيف،

---

(١) الاجتهاد والتجديد في التشريع الإسلامي، ص ٣٢٠.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٣٣.

ويقتضي أيضاً أن يتم الإيمان بصفات الله وأسمائه من غير زيادة ولا نقص فيها، أو تأويلها بما يخالف ظاهرها، أو تشبيهها بصفات المخلوقين، بل بإمرارها كما جاءت في كتاب الله أو على لسان رسوله، ورد علمها بكيفيتها إلى قائلها. وهكذا فإن هناك أصولاً ثلاثة لفهم صفات الله عز و جل لا بد منها مجتمعة[1] وهي:

١ـ الاثبات: فالواجب فيما يخص صفات الله عز وجل أن يُنْظَر، فما أثبته الله عز وجل ورسوله أثبتناه. وما نفاه الله ورسوله نفيناه. وفيما يخص الألفاظ والمعاني المستعملة بهذا الخصوص فهي مجموعتان:

أـ الألفاظ التي وردت في الكتاب والسنة، فنثبت ما أثبته الله ورسوله في الكتاب والسنة من الألفاظ والمعاني، وننفي ما نفته نصوصهما من الألفاظ والمعاني.

ب ـ أما الألفاظ التي لم يرد نفيها ولا إثباتها فلا تطلق حتى يُنظَر في مقصود قائلها: فإن كان معنى صحيحاً قُبل لكن ينبغي التعبير عنه بألفاظ النصوص، دون الألفاظ المجملة العامة، إلا عند الحاجة، مثل أن يكون المخاطب أو السامع غير قادر على استيعاب المعنى الصحيح، ولا بد عندها من استعمال قرائن تبين المقصود.

٢ـ التنزيـــه:

إن إثبات ما أثبته الله تعالى لنفسه، ونفي ما نفاه عن نفسه لا يكفي، فلا بد من التنزيه. فالله سبحانه وتعالى موصوف في القرآن الكريم بصفات الوحدانية، ومنعوت بنعوت الفردانية قال تعالى: ﴿ولَمْ يكُن لَهُ كُفواً أحد﴾ [الإخلاص] فالله تعالى ليس كمثله شيء في صفاته ولا في أسمائه ولا في

---

(١) نقل الأصل الأول والثاني بتمامه من «التحفة السنية في تهذيب شرح العقيدة الطحاوية» للمؤلف ٤١ ـ ٤٢.

أفعاله، وتنزيه الله يقتضي الأمور التالية:

أـ إن الله تعالى ليس كمثله شيء، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعالـه. فالله تعـالى لا يشبه المخلوق في اسمائه وصفاته وأفعاله. فأسماء الله تعالى ليست كأسماء غيره، وأفعاله ليست كأفعال غيره، وصفاته ليست كصفات غيره. فالله تعالى وان وُصِفَ بأنه متكلم، لكنه لا يوصف بمعنى من معاني البشر التي يكون الإنسان بها متكلماً.

ب ـ إن خصائص الله تعالى لا يُوصف بها شيء من المخلوقات، ولا يماثله شيء من المخلوقات في شيء من صفاته. فلا ريب أن نفي مشابهة شيء من مخلوقاته له مستلزم لنفي مشابهته لشيء من مخلوقاته.

٣ـ الأصل الثالث هو استحالة معرفة كيفية صفات الله عز وجل. سئل الإمام أحمد رحمه الله عن كيفية استواء الرحمن على العرش فقال للسائل: قل لي كيف هو أقول لك كيف استوى. وقال الإمام مالك رحمه الله لما سئل عن قوله تعالى: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ [الأعراف: ٥٣] كيف استوى؟ فقال «الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب، والسؤال عنـه بدعـة ومـا أراك إلا ضالاً وأمـر به أن يخـرج من المجلس[1]»وهكذا فإنه بالأخذ بهذه الأصول الثلاث يكون الجواب عن السؤال التالي مثلاً: حدثني عن بصر الله تعالى؟ كما يلي: لله تعالى بصر (وهذا أخذ بالأصل الأول وهو الاثبات) وبصره تعالى لا يشبه بصر غيره، وبصر غيره لا يشبه بصره تعالى (وهذا أخذ بالأصل الثاني وهو التنزيه) ولا أحد يعرف كيفية بصره تعالى (وهذا أخذ بالأصل الثالث).

إن الفضل في الحفاظ على أصالة العقيدة الإسلامية يعود لأمرين:

١ـ الحفـاظ على النصـوص الدينية كما هي دون تحريف، وأعني

(١) البغوي، شرح السنة، جـ١، ص ١٧١.

القرآن والسنة، وهما مصدرا العقيدة الأساسيان. وبذا بقي المصدر الأهم مصوناً محفوظاً محافظاً عليه.

٢ـ الحفاظ على الفهم الصحيح للنصوص العقدية، وهو فهم الصحابة المستقى من رسول الله مباشرة، والذي انتقل إلينا عبر التابعين وتابعيهم، وهذا عنصر مهم جداً في الفهم الصحيح لتفصيلات العقيدة.

غير أن هناك أمراً آخر يجب ألا نغفله وله دوره الإيجابي المهم في هذه القضية، وهو حظر الاجتهاد في أمور العقيدة، فقد حال ذلك دون أن تصير العقيدة الإسلامية إلى ما صارت إليه النصرانية واليهودية.

تحصل لنا مما سبق نتيجتان :ـ

١ـ لقد جرت محاولات لتحريف الفهم الصحيح للعقيدة، وقد نجحت في بعض الجوانب والمظاهر إلى حد ما، مع بقاء التصور الصحيح مصوناً يعود إليه طلاب الحق والحقيقة، ويتحاكم إليه المسلمون إذا اختلفوا.

٢ـ إن العقيدة الإسلامية بقيت سليمة مصونة من أي تحريف.

على أنه ليس هناك تناقض بين هذين القولين. فالفرق الإسلامية التي أساءت فهم العقيدة الإسلامية، والتي تمثل في الواقع محاولات الانحراف هذه مقصودة كانت أو غير مقصودة، أفرز نشاطها الفكري مجموعة من الآراء لا تمثل في معظمها العقيدة النقية التي جاء بها رسول الله ﷺ عن ربه.

وإزاء هذه الانحرافات وُجِدَ لدينا تراثٌ آخر عكف اصحابه على استقاء العقيدة من النصوص الصحيحة وفهمها كما فهمها الصحابة من رسول الله. وبذا رُدَّت الأمور إلى نصابها، وأصبح لدينا مصدران لدراسة العقيدة الإسلامية :ـ

١ـ المصدر الأصيل الذي يمثل النقاء في العقيدة.
٢ـ المصدر الدخيل الذي يمثل صورة غير أصيلة.

ولكن بقي سؤال هو: ما مدى التأثير العملي للمصدر الدخيل على عقائد الأفراد والأجيال عبر التاريخ؟

الحق أنه لا يمكن بأي حال تشبيه الانقسام العقدي في الديانات الأخرى بما حدث في الإسلام. فالأمر مختلف تمام الإختلاف من حيث الجوهر والنتائج. ولا يهمنا مناقشة اختلاف الجوهر بمقدار ما يهمنا مناقشة الأمر الآخر وهو حصيلة الإختلاف. فالإختلاف الذي حدث في النصرانية مثلاً لم يندثر بل على العكس فقد برز وتبلور وظهر واضحاً. فهذه الفرق المنتشرة من كاثوليكية وبروتستانتية وأرثودكسية وغيرها إنما هي جماعات مستقلة ومتميزة عن بعضها بعضاً. والأمر الأكثر معنى وأهمية أن الإنقسام الذي حصل لم يندثر وهذا هو بيت القصيد. أما الخلاف الذي أخذ مكانه بين المسلمين في فهم أمور العقيدة، فإنه وان لم يصل بالمسلمين إلى التحريف الذي وصل إليه اليهود والنصارى في عقائدهم، فقد حافظ المسلمون على نقاء الدين وافتضح أمر الفرق التي تمثل الاتجاه الدخيل في فهم العقيدة كالخوارج والمعطلة والجهمية والأشاعرة والمعتزلة والماتريدية والفلاسفة المسلمين والمتصوفة والشيعة. إلا أن الموضوعية تقتضي منا الاعتراف بأن تلك الفرق تركت في المسلمين شيئاً من عقائدها وافكارها.

أما ما انشق عن جسم الأمة من مجموعات صغيرة لا يمكن الإشارة إليه بأنه يمثل امتداداً لذلك الاختلاف الأول في العقيدة الذي أحدثته الفرق الإسلامية كالخوارج والمعتزلة،فالقاديانية والبهائية مثلاً لا تمثل اختلافاً في العقيدة بل تمثل خروجاً كاملاً عن الإسلام. ويجب التفرقة بين مجموعات بدعية لا تزال ضمن نطاق الإسلام مثل المعتزلة والأشاعرة،

وبين مجموعات ارتدت عن الإسلام كالبهائيين والقاديانيين، فليس هناك مجال للبحث في التوافق والتعارض في الحالة الثانية.

ولقد أخبر رسول الله ﷺ عما سيحصل من إنقسام في الأمة الإسلامية فقال «والذي نفس محمد بيده، لتفترقن أمتى على ثلاث وسبعين فرقة، فواحدة في الجنة، واثنتان وسبعون في النار»[1].

إن لافتراق الأمة سبباً واحداً هو البعد عن الكتاب والسنة مصدري التصور الصحيح للعقيدة. صحيح أن الفهم الصحيح للعقيدة كان ولا يزال راسخاً بين كثير من المسلمين. غير أنه من الحق الاعتراف أن التصورات المنحرفة لا تزال شائعة وهي من ارث الفرق الإسلامية المختلفة، والتي تكلمت عن بعضها في مقدمة هذا الكتاب.

---

(١) سبقت الإشارة إليه ص ١٨.

تجديــد التفسيــر

إن تعدد التفاسير ليس مؤشراً على اختلاف الأمة وتفرقها، فإن لذلك أسباباً منها:

١ـ نزول القـرآن باللغـة العربية، والتي من خصائصها الاشتراك اللفظي ويعني أن اللفظ الواحد له معنيان أو أكثر، كلفظ القرْء الذي يراد به الحيض أو الطُهْر.

٢ـ تفاوت المفسـرين في معرفة الأحاديث النبوية وبخاصة تلك التي تساعد على تفسير الآيات القرآنية وكذلك تفاوت قدراتهم في مصطلح الحديث وتخريج الأحاديث.

٣ـ تفاوت المفسرين في معرفة اللغة العربية.

وتجديد التفسير إنما يكون بالالتزام بالشروط التي تضمن السلامة من الخطأ في فهم كتاب الله وأعني بها الالتزام بشروط المفسر وأهمها:

١ـ المعـرفـة الجيدة باللغـة العـربية وعلومها ويكاد يكون ذلك من أهم الخطوات في فهم كتاب الله تعالى.

٢ـ ألا يخالف بتفسيره التفسير المأثور عن النبي ﷺ أو الصحابة أو التابعين.

٣ـ ألا يخالف بتفسيره لآية المعنى الذي تعطيه آية أخرى. ذلك أن القرآن الكريم لا يناقض بعضه بعضاً.

٤ـ الاحاطة بأسباب نزول الآيات القرآنية.

٥ـ الاحاطة بالناسخ والمنسوخ من القرآن والسنة.

٦ـ المعرفة الجيدة بعلم التوحيد (العقيدة).

٧ـ المعرفة الجيدة بعلم القراءات.

٨ـ المعرفة الجيدة بعلم أصول الفقه، فإن ذلك ضروري لاستنباط الأحكام من الآيات.

٩ـ ألا يتعصب لرأي، فيفسر القرآن الكريم تحت تأثيره أو يجعل مذهبه هو الأصل في فهم الآية فيكون تفسيرها تابعاً لمذهبه.

وعلى أي حال فإنه من الأهمية بمكان أن يفهم المسلمون أن هناك فرقاً بين القرآن الكريم وبين تفاسيره، فكل ما جاء في كتاب الله صواب لا يحتمل الخطأ، بينما ما جاء في التفاسير إنما هو فهم لآيات القرآن، وهذا الفهم قد يحتمل الصواب والخطأ، ولذا وجب على المسلمين أن لا يتعاملوا مع أي مرجع من مراجع التفسير باعتباره كتاب الله تعالى.

وختاماً فإنه من المفيد القول إن أصح مناهج التفسير وأكثرها دقة هي تفسير القرآن بالقرآن وتفسير القرآن بالأحاديث الصحيحة وتفسير القرآن بالمأثور المسند عن الصحابه.

تجديـد الفقـه

ظهر لنا عند الكلام على إنحراف الفقه عن مساره الصحيح أن أسباب انحرافه ذاتية وداخلية، وليست خارجية. ففي حين انحرف التصوف نتيجة لاختلاطه بالفكر الدخيل الأجنبي، فإن الحال مع الفقه لم تكن كذلك.

إنه وإن بلغ الفقه الإسلامي من القوة والنضج والإحاطة ما لم يبلغه فقه آخر في فترة قصيرة فإنما كان ذلك بسبب الإجتهاد وممارسته من أهل التخصص، والتحـرر من ربقـة التقليد المذهبي. لذا فإن طريق تجديد الفقـه في هذا الزمان واضحة بينة فهي تعتمد أساساً على رفض التقليد المذهبي الأعمى وفتح باب الاجتهاد للقادرين عليه.

«إن دعـوى إقفـال باب الإجتهـاد كانت ضربـةً قاسية أصيب بهـا المسلمـون في حياتهم الفكـرية وفي تفكيرهـم الديني على الخصوص. وعليهم الآن أن يجددوا نشاطهم، ويزيلوا ما علق بأذهانهم من أوهام، فكل من استوفى أدوات الإجتهاد كان له الحق أن يجتهد، بل كان ذلك من أوكد واجباته»[1]، ويكفي أن أُذَكِّر بما أوردته آنفاً من أضرار إغلاق باب الاجتهاد فَلْيُرَاجع.

الاجتهـاد:

ما من شك في أن وقـائع الحياة متجددة متغيرة، وأن قضايا الناس متغيرة بتغير الـزمـان واختلاف المكان. ومن هنا فقد كان من الضروري

---

(١) الاجتهاد والتجديد في التشريع الإسلامي، ص ٣٣٣.

معـرفة احكام الشريعة في هذه الوقائع المتجددة في حدود فهم الكتاب والسنة وهذه المهمة إنما هي مهمة مجتهدي الأمة وعلمائها، ومن هنا كانت ضرورة فتـح باب الاجتهـاد للقـادرين عليه، وإلا كانت جفوة وبعد بين الشريعة والحياة.

ومن المعلوم أن التشريع الإسلامي لا يقتصر في أحكامه على الفهم القـريب من الفاظ النصوص من الكتاب والسنة بل الاجتهاد ـ الذي هو حركة العقل المستنير القادر على اكتشاف الأحكام للأمور المستجدة من النصـوص ـ معتبر إذا استند إلى كتاب الله وسنة رسوله ومبادىء الإسلام وأصـولـه. لهـذا كان الاجتهـاد دائماً سبباً هاماً من أسباب التجديد في الإسلام، إذ إن الاجتهاد يؤدي إلى الكشف عن أشياء جديدة. ومثل ذلك ـ في ظل قواعد الإسلام طبعاً ـ ضروري حتى يحافظ الإسلام على مرونته الـذاتية وصـلاحيته لكل زمان ومكان. وليس لأحد أن يزعم أن الاجتهاد يضيف إلى الإسلام أشياء جديدة ليست منه لأن المجتهد مكتشف لاحكام الله وليس مبتكراً ولا منشئاً.

وانطلاقاً من هذه الحقيقة اجتهد العلماء الأوائل، وسلكوا في ذلك منهجين هما:

١ـ منهـج أهـل الحـديث الذي يعتمد النصوص لاستنباط الأحكام الشرعية. وإعمال العقل هنا إنما هو في فهم النصوص ومدى انطباقها على الوقائع، ومن أشهر رواد هذا السبيل مالك بن أنس والشافعي وأحمد بن حنبل.

٢ـ منهج أهل الرأي الذي اعتمد النصوص كسابقه لكن بدرجة أقل وذلك لصالح الرأي وأشهر رواد هذا النهج الإمام أبو حنيفة النعمان.

وما من شك أنه «لا يقصد أحد منا بتجديد الفقه نبذ المنصوص وابتكار

فقه عقلي موافق لما يبدو لأول نظرة عجلى أنه مصلحة من غير اكتراث بمقاصد الشريعة السامية المدارك. فهذا مما لا يوافق عليه مؤمن، وإنما تجديد الفقه إنما يكون بتدارك ما تداعى من قواعد أو كاد، بسبب إغلاق باب الإجتهاد فيما سبيله الاجتهاد، والحال أن كل مفت في زمننا الذي كثرت فيه المكتشفات والمخترعات مضطر لأن يجتهد، بل قبل وقتنا هذا وقفنا على فتاوى لمقلدين اضطروا فيها إلى الاجتهاد المطلق وقُبِلَ منهم، ولكن منعوا من إطلاق وصفه عليهم.

والكلام في الاجتهاد يقود بطبيعة الحال إلى الكلام عن التقليد. فليس التقليد عذراً لكل أحد، بل هو عذر للقاصر عن إدراك الدليل الذي لم يحصل على الدرجة الوسطى فقهاً وحديثاً وعربية وأصولاً.. الخ. وكل من حصل على منصب الفتوى أو القضاء عن استحقاق فهو محصل لأكثر الشروط التي تشترط في الاجتهاد، ومن حصل عليها لم يقبل منه التقليد، وقد ذم الله قوماً قالوا: ﴿إنَّا وجدْنا آباءَنا على أمةٍ وإنا على آثارِهم مُقْتَدون﴾ [الزخرف: ٢٣].

لقد تسرب خلل عظيم إلى الفقه بسبب كثرة الخلاف بين الفقهاء لاختلاف المجتهدين رضي الله عنهم لأسباب معلومة. ثم تشكل في شكل آخر على عهد المقلدين من المفتين فتشعبت الأراء وغاب نجم الحق في سحاب التقليد والتعصب المذهبي في فروع المعاملات المبنية على مصالح تليق بزمن مضى ولا توافق الزمن الحاضر، وتصلح أحكامها لأحوال دون أحوال وبيئة دون بيئة مع ما تجدد في عصرنا من مبتكرات ومخترعات، ونشأت معاملات لم يكن لها نظير في الزمن الغابر»[1].

(١) من دروس محمد الحجوي بجامع الزيتونة انظر «الاجتهاد والتجديد في التشريع الإسلامي» ص ٣٢١.

إن التمسك بنصوص الكتاب والسنة واجب لازم. أما أقوال الأئمة فليست كذلك. ذلك أن أقوال البشر لا تؤخذ قضية مسلمة، بل لا بد من عرضها على الكتاب والسنة، فما وافق الكتاب والسنة أُخذ، وما خالفهما رُد. ومن هنا كان هناك نوعان من التقليد:

١ـ تقليد الكتاب والسنة وما كان عليه الصحابة وهو تقليد محمود، ونسميه تقليداً تجوزاً، والأصح أنه اتباع.

٢ـ تقليد الأئمة وهذا قد يكون محموداً وقد يكون مذموماً. وإن كان اتباعاً لرأي امام يعتمد على دليل مستمد من الكتاب أو السنة، فهذا ليس تقليداً بل هو ـ أيضاً ـ اتباع للقرآن والسنة.

ثم إن من التقليد المحمود ألا يقتصر المسلم على مذهب إمام واحد، بل يأخذ من المذاهب الأخرى في كل مسألة ما كان أكثر اعتماداً على نصوص الكتاب والسنة.

وإذا كان مما تسبب في إنحراف الفقه الإلتزام بمذهب وعدم وتركه مهما كانت الظروف، فإن مما يقتضيه تجديد الفقه دراسة أكثر من مذهب وموازنة المذاهب والمدارس الفقهية حتى يتبين وجه الحق في ضوء نصوص القرآن والسنة ولذلك فإن تدريس الفقه المقارن أمر مفيد.

إن حصر التقليد في الأئمة الأربعة: أبي حنيفة والشافعي ومالك وابن حنبل قضية لا دليل عليها، ومن هنا فإن تقليد علماء آخرين أمر وارد طالما أن الكتاب والسنة هما المقياس والحَكَم في عملية التقليد.

وإذا كان مما تسبب في إنحراف الفقه تتبع بعض الناس للرخص والآراء السهلة في المذاهب، فإن مما يقتضيه التجديد تتبع الأحكام التي تنبني على أدلة قوية وصحيحة وترك ما بُني على أدلة ضعيفة.

معنى الاجتهاد وحدود ممارسته :

على الرغم من أن الاجتهاد وسيلة مهمة جداً للتجديد ، غير أن ذلك ليس أمراً دون حدود أو ضبط ، ولو كان الأمر كذلك لأصبح الاجتهاد وسيلة للتحريف والتغيير.

إن الاجتهاد له ميدان محدود، ولا يجوز أن يُجتهد فيما سواه، فمن المعلوم ـ على سبيل المثال ـ أن العقيدة والعبادة والأخلاق لا تقبل الاجتهاد بأي حال.

بالإضافة إلى كون الإجتهاد له ميدان محدود، فإن للمجتهد الذي يمارسه شروطاً معينة أيضاً. فهاتان ضمانتان ضروريتان حتى يكون الاجتهاد سبباً لتجديد الإسلام لا للإنحراف في فهم نصوصه.

شروط الإجتهاد:

لا بد للمجتهد:

١ـ أن يكون على علم باللغة العربية وأساليبها.
٢ـ أن يكون محيطاً بأحكام القرآن الكريم وتفسير آياته.
٣ـ أن يكون محيطاً بالسنة النبوية.
٤ـ أن كون متمكناً من علم أصول الفقه مجيداً له.
٥ـ أن يكون تقياً حريصاً على طلب الحقيقة، فلا يتعصب لمذهب أو فكرة. فالمجتهد الحريص على الحق لا يضع أمام عينيه فكرةً ما، ثم يستدل بالنصوص بطريقة أو بأخرى على صحة تلك الفكرة، بل يفعل العكس. ولا شك أن الفرق كبير بين استغلال النصوص لخدمة فكرة ما وبين الخضوع للنصوص للكشف عن حكم ما. وبعبارة أخرى فإن الفرق كبير بين استخدام النصوص كوسيلة لتسويغ فكرة ما قد تكون صحيحة أو

غير صحيحة وبين البحث عن مقصد الشارع وحكمه في المسألة.

موجز تجديد الفقــه:

تبين لنا مما سبق أنه من الضروري لتجديد الفقه الإسلامي الأخذ بالأسباب التالية:

١ـ الرجوع بالفقه إلى منابعه الأصلية (الكتاب والسنة) وتقديم نصوصهما على اجتهادات الأئمة أي كانوا.

٢ـ الإعلان عن فتح باب الإجتهاد للقادرين عليه.

٣ـ اصلاح التقليد، فتقليد الأئمة الأربعة أو غيرهم من الأئمة لا يُعد انحرافاً عن الإسلام إذا كان ذلك اتباعاً لما توصلوا إليه من الكتاب والسنة. على أن الأمر يختلف تمامـاً إذا اصبح التقيد بآرائهم لمجرد اشخاصهم أو مذاهبهم أو أصبح التتبع تتبعاً للرخص وللأسهل بغض النظر عن قوة الدليل أو ضعفه.

إن هذا المبدأ يكفل لنا السلامة من الإنحراف لأن التمسك بالمذهبية يقود صاحبه ـ دون ريب ـ لارتكاب اخطاء كما سبق تفصيله وبيانه.

إن اتباع ما صرح به الأئمة إذا كان مطابقاً غير معارض للقرآن والسنة، فإنمـا هو التـزام بالأصلين. وهذا الالتزام بالأصلين هو الضمانة المهمة الرئيسة ضد الخطأ. ويقتضي اصلاح التقليد أيضاً عدم تحديده بالأئمة الأربعـة، فهنـاك أئمـة وعلمـاء، يجـوز لنا تقليدهـم كابن جرير وسفيان والحسن البصري وابن تيمية وابن القيم... الخ.

٤ـ تشجيع طلاب العلم الشرعي على دراسة الفقه بطريقة الموازنة، أو ما يعرف بالفقه المقارن في ضوء نصوص الكتاب والسنة، لأن هذه الطريقة كفيلة بأن توفر لطالب الحق والحقيقة اختيار الأحكام الأقوى دليلاً.

دور السلطة السياسية في حماية الدين من التحريف

نظراً لأهمية الدين القصوى في حياة المسلم، ولأن كل أوجه حياته تعتمد عليه فإن الإسلام لم يترك للمسلمين أو علمائهم فقط وظيفة الدفاع عن أصالة الدين وتنفيته من الشوائب كلما علقت به عبر العصور نتيجة لأسباب داخلية أو خارجية. وإنما بالإضافة إلى ذلك كلفَّ السلطة السياسية في أن يكون لها دور هي كذلك في حماية الدين من التحريف. يقول الإمام ولي الله الدهلوي «اعلم أنه يجب أن يكون في جماعة المسلمين خليفة لمصالح لا تتم إلا بوجوده وهي كثيرة جداً يجمعها صنفان:

أحدهما ما يرجع إلى سياسة المدينة من ذب الجنود التي تغزوهم وتقهرهم وكف الظالم عن المظلوم، وفصل القضايا، وغير ذلك، وقد شرحنا هذه الحاجات من قبل. وثانيهما ما يرجع إلى الملة، وذلك أن تنويه دين الإسلام على سائر الأديان لا يُتصور إلا بأن يكون في المسلمين خليفة يُنكر على من خرج من الملة، وارتكب ما نصت على تحريمه أو ترك ما نصت على افتراضه أشد الإنكار»[1].

إن المطَّلع على كتب الفقه ليجد أحكاماً خاصة شُرعت للذود عن الدين بعامة وعن العقيدة بخاصة وفيما يلي بعض منها:

١ـ حكم المرتد: قال ﷺ «من بدل دينه فاقتلوه»[2].

---

(١) ولي الله الدهلوي، حجة الله البالغة، ج٢، ص ٧٣٥.

(٢) حديث صحيح اخرجه البخاري وأحمد عن ابن عباس، انظر صحيح الجامع الصغير وزيادته ٦٠٠١ والارواء ٢٥٣٧.

٢ـ حكم المبتدع: ذهب كثير من العلماء إلى أن المبتدع في الدين لا يُلقى عليه السلام.

٣ـ حكم الساحر: «إن الواجب على ولاة الأمور، وعلى كل مسلم قادر السعي في استئصال أعمال السحرة والمنجمين والكهان والعرافين وأصحاب الضرب بالرمل والحصى والحُجُب، ومنعهم من مزاولة أعمالهم الفاسدة. ويأثم كل من يستطيع أن يفعل ذلك ولا يفعله. فمثل هذه المجموعة من الناس تستحق العقوبة البليغة، التي تردعهم وأمثالهم عن الكذب والتلبيس. وقد يكون في هؤلاء من يستحق القتل، كمن يدعي النبوة بمثل هذه الخزعبلات، أو يطلب تغيير شيء من الشريعة، ونحو ذلك، ونوع يتكلم في هذه الأمور على سبيل الجد والحقيقة بأنواع السحر. وجمهور العلماء يوجبون قتل الساحر، كما هو مذهب أبي حنيفة ومالك وأحمد في المنصوص عنه، وهذا هو المأثور عن الصحابة»[1]. أضف إلى ذلك أن الإسلام يمنع تداول كتب السحر والكفر، بل لم يجعلها مالاً متقوماً شرعاً. ومنْ يبِعها يأكلْ ثمنها حراماً ومن يشتَرِها ينفق ماله في حرام.

٤ـ الافتاء بغير علم: حرم الإسلام الفتوى بغير علم فقال ﷺ «من أُفتي بغير علم كان إثمه على من أفتاه. . .»[2] كما أن حماية الدين من المفتين بغير علم والضرب بيد من حديد عليهم من وظائف السلطان المسلم.

---

(١) التحفة السنية في تهذيب شرح العقيدة الطحاوية، ٢٠١.

(٢) عن أبي هريرة، حديث حسن رواه أبو داود (٣٦٥٧)، وانظر صحيح الجامع الصغير وزيادته ٥٩٤٤.

الثقافة الإسلامية والغزو الثقافي

كان ومـا زال مصـطلح الثقافة في نظر كثير من الناس مرادفاً للعلم والمعرفة. وهذا ظن جانبه الصواب. فالطبقة المثقفة في نظر كثيرين هي الفئة المتعلمة، والإنسان المثقف هو من قرأ شيئاً من الكتب والدوريات واختزن في ذهنه كثيراً من المعلومات والنظريات.

غير أن هذا غير ما ذهب إليه الاختصاصيون في ميدان الثقافة، «فهي لديهم ثمرة كل نشاط إنساني محلي نابع عن البيئة ومُعَبر عنها أو مواصل لتقـاليدها في هذا الميدان أو ذاك. وثقافة امة من الأمم هي علمها غير الواعي الذي تتوارثه أجيالها وتسير به في شؤون حياتها، أي هي طريقتها في الحياة، تدخل في ذلك اللغة أو اللهجة من اللغة، ونظام إقامة البيوت وأنـواع المآكل وطرق تحضيرها وطرق تناولها والملابس والفرش والثياب وأشكـالهـا والأمثال والحكايات الشعبية وتصور أهلها للدنيا وموقفهم من الحياة وطريقة سيرهم فيها وحرفهم وطرائقهم في الصناعة والزراعة والتجارة والملاحة، وبإختصار هي طريقة شعب في الحياة بكل ما تضمه حياة ذلك الشعب من تفاصيل»[1]

وإذا كانت ثقـافة أية أمة هي طريقتها في الحياة، وبما أن لكل أمة طريقة في الحياة فإن لكل أمة ـ أيٍ كان حظها من التقدم أو التأخر ـ ثقافة. وحيث إن ثقافة الأمة هي طريقتها في الحياة فهي إذن شخصيتها المميزة لها عن غيرها من الأمم والشعوب. والثقافة بهذا تختلف عن العلم اختلافاً بينـاً، فالعلم عالمي وان اختلفت اللغـة التي يُؤَدى بها، أما الثقافة فهي محلية خاصة بشعب من الشعوب ومميزة له عن غيره.

(١) د. حسين مؤنس، الحضارة ص ٣٦٢، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٧٧.

وبنـاء على ما سبق فإن الثقـافـة الإسـلامية هي الشخصية المميزة للشعوب الإسلامية عن غيرها من شعوب العالم وأممه المختلفة.

الديــن والثقافــة:

تتكون ثقافة أية أمة خلال مدة طويلة بفعل عوامل وقوى متعددة تشارك في صنـع أسلوب الحياة. فمن هذه العـوامل ظروف الأمة وتجاربها في الحياة وعوامل مناخية وجغرافية وتاريخية... الخ. غير أن أهم ما يشارك في صنع ثقافة ما وإخراجها إلى حيز الوجود وبلورة ابعادها وتحديد ملامحها هو عامل الدين، أي كان ذلك الدين. ولذا فإن الصواب لم يجانب اليوت حينما أشار إلى هذه الحقيقة في كتابه «ملاحظات نحو تعريف الثقافة» إذ قال: «إن القـوة الـرئيسية في خلق ثقافة مشتركة بين شعوب متعددة هي الدين». لكن الأديان نفسها تتباين قوة وضعفاً، لذا فقد كان من الطبيعي أن يتفاوت تأثيرها في صنع الثقافات التي تنتسب إليها وتتسمى بها بحسب قوتها وضعفها، وبحسب ما تتمتع به وتمتاز من تكامل وشمولية يسمحان لها ويؤهـلانهـا لفـرض هيمنتهـا وممـارسـة نفـوذها على كافة مناحي الحياة وميادينها، فكلما كان الدين شاملاً متكاملاً في تشريعاته كان تأثيره في صنع أسلوب الحياة «الثقافة» أعمق وأوضح.

ولذا فقد كانت هناك دوماً ثقافات قوية وأخرى ضعيفة. يقرر ذلك قوةُ أو ضعفُ العوامل والقوى التي تشارك وتساهم في صنع ثقافة ما.

الإسلام ثقافة المسلمين:

في الوقت الذي لا يمكننا الادعاء أن الإسلام أكثر الأديان أتباعاً على كوكبنا هذا، فإن أحداً لا يجرؤ على إنكار حقيقة مفادها أنه أقوى الأديان فعالية وتأثيراً في نفوس أتباعه. ولذلك أسباب عدة منها شموليته كعقيدة وشريعة وطريقة كاملة للحياة، وعالميته وانسجام أصوله وفروعه مع الفطرة

والعقل ويُسْره. لذا فقد كان من الطبيعي أن يُفرز هذا الدين ثقافةً متجانسة الأجزاء قوية وإيجابية، قادرة على الصمود أمام تحديات الغزو الثقافي أياً كان مصدره، شرقياً أو غربياً، وأياً كانت قوته.

لقد أوجد الإسلام متمثلاً بعقيدته وقانونه الكامل الشامل لكل نواحي حياة الفرد والمجتمع والدولة، تصوراً واحداً أصيلاً متجانساً وموقفاً واحداً ومشاعر واحدة لكل المسلمين، فكانت الثقافة الإسلامية هي القاسم المشترك الأعظم بين الشعوب الإسلامية جمعاء.

ولقد حرص رسول الله ﷺ على الوحدة الثقافية للأمة المسلمة فأكد على ضرورة التزام المسلمين جميعاً بنظرة واحدة وموقف عملي واحد نابع من الكتاب والسنة وحذَّر من الابتداع الذي له اخطار عديدة، أكثرها شراً خلق ثقافات دخيلة في جسم الثقافة الأصلية التي جاء بها القرآن الكريم والسنة المطهرة، وهو عليه السلام في الأحاديث العديدة التي حذَّر فيها المسلمين من الإضافة للدين ما ليس فيه إنما كان في الواقع يحذر من نجاح أية محاولة لغزو ثقافي أجنبي، والأحاديث التي صرحت بذلك كثيرة منها الحديث الصحيح الذي روته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها في صحيحي البخاري ومسلم وسنن أبي داود وابن ماجة، قوله ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»، أي من أحدث في ديننا ما ليس منه فهو مرفوض ومردود على من أحدثه.

الغزو الثقافـي:

لقد كان وجود قوي وضعيف يُغري دائماً الأول بغزو الثاني وفرض هيمنته عليه وهذا ليس بدعاً بالنسبة للعلاقات الإنسانية. فوجود القوي والضعيف عسكرياً يستتبعه غالباً غزو عسكري واحتلال، ووجود القوي والضعيف اقتصادياً يقود دائماً لغزو وهيمنة اقتصادية. وأوضح مثال على

هذين الأمرين حال أمتنا الآن عسكرياً واقتصادياً.

ووجود ثقافتين إحداهما قوية والأخرى ضعيفة ليس استثناءً. فهو يقود أيضاً إلى غزو يُدْعى بالغزو الثقافي، وهو بلا أدنى ريب أكثر أنواع الغزو خطراً. ومن الأمثلة الواضحة عليه في التاريخ المعاصر تلاشي ثقافة سكان جزر هاواي أمام الثقافة الأمريكية وتلاشي ثقافة أهل جزيرة فيجي أمام الحضارة الإنكليزية، والثقافة المحلية في تاهيتي أمام الحضارة الفرنسية.

الهيمنة الاقتصادية:

غير أن التفوق العسكري أو الهيمنة الإقتصادية لأمة من الأمم وممارسة قوتها العسكرية أو الإقتصادية على أمة أخرى لا يعني بالضرورة حدوث غزو ثقافي. فقد تكون الأمة قوية عسكرياً ومزدهرة اقتصادياً لكنها ضعيفة ثقافياً. وقد يصيب الضعفُ العسكري أمةً من الأمم فيحتلها عدوها أو يهيمن عليها إقتصادياً لتصبح سوقاً استهلاكية يُصَرَّفُ فيها منتوجاته، لكنها مع ذلك تبقى صامدة ثقافياً لا لشيء إلا لأن ثقافتها أقوى من ثقافة المحتل. وإن الدارس للتاريخ ليرى هذه الظاهرة واضحة بشكل جلي في فترات متعددة من تاريخ الأمة الإسلامية بدءاً بالتتار وانتهاء باليهود في فلسطين ومروراً بالصليبيين والإنكليز والفرنسيين والإيطاليين في استعمارهم الحديث للعالم الإسلامي. بل إن هذه الأمة المغلوبة على أمرها في أزمنة مختلفة استطاعت أن تُوقع بمحتلها هزيمة ثقافية شاملة متمثلة بدخول المغول في دين الله أفواجاً بعد احتلالهم وتخريبهم الشامل للشرق الإسلامي، كما أنها استطاعت أن تُوقع بالأوروبيين هزيمة ثقافية محدودة حدثت نتيجة لاحتكاك الأوروبيين بالمسلمين في الأندلس وإبان الحروب الصليبية في فلسطين وبلاد الشام وتأثرهم كثيراً بالثقافة الإسلامية نتيجة لهذا الاحتكاك حتى عُدَّ ذلك من أسباب النهضة الأوروبية.

ولعل قوة الثقافة الإسلامية ومناعتها هي التي دفعت بإسبانيا النصرانية لليأس من إحراز أي كسب في جهودها التي بذلتها لتنصير مسلمي الأندلس بعد سقوط الحكم الإسلامي عام ١٤٩٨م، فعمدت إلى إحراقهم وهم أحياء بوساطة محاكم التفتيش التي أقيمت خصيصاً لهذه الغاية.

وفي تاريخنا الحديث أمثلة أخرى على قوة الثقافة الإسلامية وقدرتها على المقاومة، فهذه أقطار المغرب العربي وبخاصة الجزائر تصمد وتقاوم بثقافتها الإسلامية السياسة الفرنسية التي رمت إلى تذويب الشخصية الإسلامية مبتدئة باللغة التي تُعد من أهم قواعد الثقافة وأسسها.

وقد تصدى القرآن الكريم لتلك المحاولة فأحبطها من أساسها، وهذه حقيقة لا يستطيع أحد إنكارها، إذ لولا القرآن لفقدت الجزائر لغتها العربية إلى الأبد.

وفي الوقت الذي فشل فيه الغزو الثقافي الفرنسي من تحقيق انتصار على الثقافة الإسلامية في أقطار المغرب العربي، فإنه استطاع بسهولة إنجاز مكاسب مهمة على الثقافات الوثنية في بعض الأقطار الافريقية مما أدى إلى ذوبان تلك الشعوب ذوباناً تاماً في الثقافة الفرنسية حتى إنها اعتنقت الكاثوليكية «مذهب الفرنسيين» وسادت المظاهر الحقيقة للثقافة الفرنسية.

لقد أشرتُ آنفاً إلى عدم وجود علاقة بين الغزو العسكري والغزو الثقافي. وقلتُ إن حصول غزو عسكري لا يقتضي بالضرورة حصول غزو ثقافي. وهنا أود أن ألفت الانتباه إلى أمر آخر وهو أن التفكك السياسي والإقتصادي بين أجزاء الأمة الواحدة لا يعني بالضرورة حصول تفكك ثقافي.

ولذا فإنه ليس من باب التفاؤل الكاذب أو الزعم أن أُذكِّر بأمرين:

الأول: إن ما تواجهه أمتنا الإسلامية من تحديات على المستويات العسكرية والإقتصادية وغيرها لا يشكل خطراً يهدد مستقبلها، لأن الضمانة التي تحول دون ذلك متوفرة وموجودة بحمد الله وهي الثقافة الإسلامية المرتكزة على العقيدة. بل على العكس من ذلك فإن هذه التحديات ستشكل في النهاية عناصر إيجابية تشحذ الهمم وتوقظ الوعي وتنهض بالعزائم.

والأمر الثاني: إن ما تمر به أمتنا من انقسام سياسي وعدم تنسيق اقتصادي واختلافات وانقسامات متنوعة وعديدة لا يشكل أيضاً خطراً على ما تتمتع به الأمة من وحدة ثقافية أساسها وضمانتها الإسلام.

مظاهر الغزو الثقافي:

إن استحالة نجاح الغزو الثقافي الأجنبي للأمة الإسلامية وثقافتها الأصلية لا يعني بالضرورة استحالة وجود مظاهر ثقافية أجنبية معينة في ثقافة المسلمين وحياتهم اليومية. كما أن وجود مثل هذه المظاهر لا يعني نجاح الغزو الثقافي الأجنبي. ولقد أخبر الصادق المصدوق عليه أفضل الصلاة والسلام بتأثر المسلمين ببعض مظاهر ثقافات الأمم الأخرى. فقد روى أحمد في «مسنده» والبخاري ومسلم في «صحيحهما» وابن ماجة في «سَنَنه» عن أبي سعيد قوله ﷺ «لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو سلكوا جُحرَ ضب لسلكتموه، قالوا اليهود والنصارىٰ؟ قال: فمن؟».

إن الدارس لتاريخ الإسلام والمسلمين يستطيع أن يرى مظاهر ثقافية دخيلة في ميدانيين رئيسيين: فهم الإسلام وحياة المسلمين.

فبالنسبة للإسلام فقد تسببت العناصر الدخيلة التي أضيفت إليه إلى تشويه صورته الناصعة والانحراف في فهمه وأقصد بالإنحراف هنا الذي

وقع في فهم الإسلام نتيجة للابتعاد عن أصليه الأصيلين كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام. فالإسلام بخلاف الأديان الأخرى لم يقع فيه التحريف بالنص، إذ إن الله سبحانه وتعالى قد تكفَّل بصيانة النصوص من أي تحريف فقال عز وجل: ﴿إنَّا نَحنُ نزَّلنا الذِّكرَ وإنَّا لهُ لَحافِظونَ﴾ [الحجر: ٩].

لكن التشويه في الفهم حصل على أي حال في عهود مختلفة وعصور متباينة ولم يحصل ذلك بسبب اتصال الأمة الإسلامية بغيرها من الأمم، إذ كثيراً ما اتصلت هذه الأمة بغيرها دون أن تتأثر بثقافة أجنبية. وإنما حصل ذلك الإنحراف والتشويه في حياة المسلمين في فترات معينة بسبب ابتعادهم عن الكتاب والسنة، فأدخلت فرق وجماعات إسلامية معينة على الدين ما ليس فيه بحجة البدعة الحسنة أو بغيرها من الحجج، واقتبست عناصر ثقافية أجنبية أضافتها إلى الإسلام مُشوهةً بذلك صورته وتصوره في النفوس. ويكفينا هنا مثالٌ واحد هو ما أدخله الصوفية على الإسلام من عقيدة وحدة الوجود بعدما أخذوها من متصوفة الديانات الأخرى وفي مقدمتها الهندوسية الوثنية.

غير أن العناية الإلهية حفظت هذا الدين من التحريف والتشويه، فقام العلماء الأفاضل في كل عصر وزمان يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويدعون الناس للرجوع للكتاب والسنة لأنهما الضمانتان الوحيدتان لتنقية الإسلام من أية شائبة أو عنصر دخيل فكان المجددون وكان التجديد.

التجديد والثقافة الإسلامية:

والإسلام كما رأينا في مفهومه للتجديد مغاير تمام المُغايرة لكل الأديان الأخرى في مفهومها لهذه القضية. فالتجديد في الأديان الأخرى غير الإسلام عنى دائماً إضافة عناصر جديدة أو حذف عناصر أصيلة لجعل الدين أكثر ملاءمةً للعصور المتجددة كما حدث في اليهودية والنصرانية

وغيرهما. أما بالنسبة للإسلام فإن التجديد بعكس ذلك تماماً اقتضى حذف كل العناصر الدخيلة وتنقية الإسلام من كل شائبة بالعودة إلى النبع الصافي لهذا الدين المتمثل في أصليه القرآن الكريم والسنة المطهرة. وقد كانت هذه المهمة هي الشغل الشاغل للمجددين جميعاً كابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب وكل الدعوات السلفية التي قامت في العالم الإسلامي على مرّ العصور، وهي التي تمثل التجديد الإسلامي بأصدق وأدق معانيه.

وانسجاماً مع مفهوم التجديد في الإسلام رُفضت البدعة بكل أنواعها وعُدَّ كل ما أُحدث على خلاف الحق المتلقى عن رسول الله ﷺ بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار، فليس هناك ما يسميه بعض الناس بدعة حسنة بل هناك بدعة مكفرة وبدعة محرمة، ولا ثالث لهما. وقد سبقت الإشارة إلى ذلك بالتفصيل.[1].

مما سبق يتضح لنا قوة العلاقة التي تربط أصالة الثقافة الإسلامية بمفهوم التجديد في الإسلام.

الثقافة الإسلامية ومناعتها:

أما فيما يخص حياة المسلمين أنفسهم فقد تأثرت تصرفاتهم وسلوكهم الحياتي بالثقافات الأجنبية[2] وخاصة الثقافة الغربية التي امتدَّ تأثيرها لمجالات عديدة في حياة الفرد والمجتمع والدولة. فكانت مظاهر الثقافة الأجنبية في لباس المسلمين رجالاً ونساءً وفي طعامهم وشرابهم وفي العلاقات الإ- ة بين الأفراد التي سادها الفتور وإهمال القريب لقريبه والجار لجاره نتيجة للتأثر بأسلوب الحياة الغربية. وفي الاحتفالات أخذ

---

(١) انظر ص ١٤٨.

(٢) لقد حرص علماء الإسلام على تطهير المجتمع الإسلامي من التأثيرات الغربية وفي مقدمتهم ابن تيمية الذي ألَّفَ كتاباً عظيماً في هذا السبيل سماه «اقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة اصحاب الجحيم».

المسلمون يقلدون الأجانب بالاحتفال بمناسبات معينة كعيد الأم وعيد العمال وغيرها كثير.

وفي الحياة السياسية انتشرت الدعوة للديمقراطية التي يرفضها الإسلام كبديل للشورى. وفي ميدان الاقتصاد والمال ساد النظام المالي والاقتصادي الغربي الذي قوامه الربا بأنواعه العديدة التي يصعب حصرها.

وفي الختام فإن ثقتنا الكبيرة بقوة الثقافة الإسلامية ومناعتها ينبغي أن لا تدفعنا للكسل والإهمال، لنقوم بتطهير حياتنا من مظاهر الثقافة الأجنبية، فنحن مدعوون بل مأمورون بتنقية تصرفاتنا اليومية من تلك المظاهر الدخيلة التي تأثرنا بها لا لضعف الثقافة التي ننتمي إليها بل لضعف تمسكنا بهذه الثقافة وقلة تفاعلنا معها.

خاتمــــة

اختلفت وتباينت مظاهر الإنحراف في شتى العصور والأمكنة، غير أن فكرة التجديد ظلت واحدة، وهي العودة إلى الأصل نصاً وفهماً. أما نصاً فبالعودة إلى نصوص الكتاب والسنة، وأما فهماً فبالعودة إلى فهم السلف الصالح من الصحابة وتابعيهم وتابعي تابعيهم ومن جرى على نهجهم لتلك النصوص. كما أن التمكن من لغة العرب التي نزلت بها النصوص شرط ضروري للتجديد. وبمقدار الفهم لهذه اللغة يكون الفهم السليم لتلك النصوص.

وقد رأينا كيف أن الإنحراف امتد ليشمل فهم وممارسة نواح عديدة من الإسلام، لكن التحريف لم يصل للنصوص فقد سلّم الله عز وجل النصوص من أي تحريف، فحفظ القرآن والسنة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إنَّا نَحْنُ نزَّلنا الذِّكرَ وإنَّا لهُ لحافِظونَ﴾ [الحجر: ٩] ومما يقتضيه حفظ القرآن أن تُحْفَظَ السنة لأنها المبينة له والشارحة لأحكامه والمخصصة لعامه والمقيدة لمطلقه... الخ.

إن التحريف يعني التغيير: تغيير النص لفظاً أو معنى، فهو ثلاثة أنواع:

١- تغيير لفظي يتغير معه المعنى.
٢- تغيير لفظي لا يتغير معه المعنى.
٣- تغيير معنوي وهو صرف اللفظ عن ظاهره بلا دليل[١].

---

(١) محمد الصالح العثيمين، «فتح رب البرية بتلخيص الحموية» ص ٩.

ومما لا شك فيه أن الله تعالى صان نصوص الإسلام المقدسة عن النوعين الأول والثاني وصان الفهم الصحيح للنصوص أيضاً وهو ما يختص به النوع الثالث. وكما أصاب الإنحراف الفهم وممارسة ميادين شتى من الإسـلام كالعقيدة والعبادة والأخلاق. . الخ ، فإن التجديد قد امتد أيضاً ليشمل كل مجال أصابه انحراف في الفهم أو الممارسة. وحينما نقول: (تجديد الدين) فإن المقصود من لفظ الدين يشمل العقيدة والفقه والعبادة والأخـلاق. . . الخ ، وكل هذا بحاجة إلى تجديد (الرجوع إلى الأصل) دائم بإعادة الناس في فهمها إلى الأصل. أما المعاملات وما شابهها فإن التجديد فيها يكون بمعرفة مدى انطباق النص على الواقعة، وبالاجتهاد المستوفي للشروط.

وهكذا فإن الانحراف في الفهم وتصويب هذا الإنحراف وفقاً للكتاب والسنة (التجديد) ظلتا وما زالتا عمليتين متلازمتين مستمرتين، وبهذا بقي وسيظل للإسلام نقاؤه وصفاؤه. وهذه المهمة أخذها على عواتقهم علماء السنة المتبعون للسلف الصالح.

وباختصار فإن التجديد في الإسلام معناه الرجوع إلى الإسلام كما كان جديداً عند ابتدائه، أو قل كشف الغطاء عن القديم الأصيل وإظهاره للناس كما قال ﷺ «إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغربـاء، قيل من هم يا رسـول الله؟ قال: الـذين يصلُحـون إذا فسـد الناس»[1]. وكما ألمح إلى ذلك الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في الأثر الصحيح عنه قال: «اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كُفيتم عليكم بالأمر العتيق»[2] وكما قال الإمام مالك رضي الله عنه. «لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، فما لم يكن يومئذ ديناً لا يكون اليوم ديناً».

(١) سبقت الإشارة إليه ص ١٨ .

(٢) اخرجه الطبراني في المعجم الكبير، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/١٨١) الطبعة الثانية: «ورجاله رجال الصحيح»، رواه الدارمي واسناده صحيح.

اهـم المراجـــع

- القرآن الكريم وكتب السنة الشريفة.
- ابن تيمية، تقي الدين، رفع الملام عن الأئمة الأعلام، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣.
- ابن عربي، محي الدين، الفتوحيات المكية، الطبعة الأولى، بيروت، دار صادر، بدون تاريخ.
- فصوص الحكم، دار الكتاب العربي، بيرون، ١٩٨٠.
- أبو حمدان، محمد، الفلاسفة والفكري الإسلامي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٨.
- الألباني، محمد ناصر الدين، تلخيص احكام الجنائز، المكتبة الإسلامية، عمان، ١٩٨٢.
- مناسك الحج والعمرة في الكتاب والسنة، المكتبة الإسلامية، عمان، ١٩٨٣.
- سلسلة الأحاديث الصحيحة، المكتب الإسلامي، بيروت.
- الحديث حجة بنفسه في العقائد والأحكام، الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ.
- البهي، د. محمد محاضرات في الفكر الإسلامي في مرحلته الثانية، دار الزيني، القاهرة، ١٩٦٢.
- البيطار، محمد بهاء الدين، النفحات الأقدسية في شرح الصلوات الادريسية، دار الجيل، بيروت.
- التارزي، مصطفى كمال وآخرون، الاجتهاد والتجديد في التشريع الإسلامي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ١٩٧٥.
- الجندي، أنور، شبهات في الفكر الإسلامي، دار الإعتصام، القاهرة.
- جوهري، الشيخ طنطاوي، الجواهر في تفسير القرآن الكريم، مطبعة الحلبي، القاهرة، ١٣٥٠هـ.
- حلمي، د. مصطفى، قواعد المنهج السلفي، دار الانصار، القاهرة ١٩٧٦.
الحنفي، محمد بن علاء الدين، شرح العقيدة الطحاوية، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٢.
- الدهلوي، أحمد ولي الله، حجة الله البالغة، دار الكتب الحديثة، القاهرة.
السهروردي، عبدالقاهر بن عبدالله، عوارف المعارف، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٦.
- السيوطي، جلال الدين، الاكليل في استنباط التنزيل، دار الكتب العلمية، بيرت، ١٩٨١.
- الشعراني، عبدالوهاب، الطبقات الكبرى المسماة بلواقح الأنوار في طبقات الأخيار، القاهرة، مصطفى البابي الحلبي.
- الشقيري، محمد، السنن والمبتدعات المتعلقة بالأذكار والصلوات، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٠.
- عبدالخالق، عبدالرحمن، الأصول العلمية للدعوة السلفية، الدار السلفية، الكويت، ١٩٧٥.
- الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة، الدار السلفية، الكويت، ١٩٧٥.
- عبده، الشيخ محمد، تفسير المنار، دار المعرفة، بيروت ١٩٧٧٧.
- الغزالي، أبو حامد، جواهر القرآن، دار الآفاق الجديدة، بيروت،
- إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت.
- مشكاة الأنوار، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٦.
- الكاشاني، الفيض، تفسير الصافي، طهران، ١٣٧٤هـ.
- الكليني، محمد بن يعقوب الكافي، دار الكتب الإسلامية، طهران.
- المبارك، محمد، المجتمع الإسلامي المعاصر، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٧.
- محمود، عبدالحليم، المجموعة الكاملة لمؤلفاته، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٤.
- المرغيناني، برهان الدين، الهداية، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة.

المحتويات

عقيدتنا ... دعوتنا

- الرجوع إلى الكتاب الكريم والسنة الصحيحة، وفهمهما على النهج الذي كان عليه سلف هذه الأمة، وتحكيمهما في كلّ قضايا الحياة.
- كلّ عقيدة وعبادة لاينصّ عليها الكتاب والسنة ولم يفعله الصّحابة فهي: بدعة باطلة.
- إثبات ما ثبت في الكتاب والسنة الصحيحة في كلّ قضايا العقيدة، وعدم ردّ شيء منها، أو تأويله، وعدم الخوض فيها مما لامجال للعقل فيه .. والدّعوة إلى التّوحيد الخالص المطهر من جميع الشّوائب.
- الدّعوة إلى حبّ الله تعالى حبًّا صحيحًا صادقًا يتمثّل في طاعته وتقواه، وحبّ رسول الله ﷺ حبًّا يتمثّل في الإقتداء به، وإتّخاذه أسوة حسنة.
- عدم مجادلة أهل البدع والأهواء أو مجالستهم أو سماع كلامهم أو عرض شبههم.
- المنهج النبوي الدّعوي في القرآن والسنة الصحيحة وأقوال وأعمال سلف هذه الأمة .. لافي المناهج الدّعوية الحادثة!!
- تعريف المسلمين بدينهم الحق ودعوتهم إلى العمل بتعاليمه وأحكامه والتحلّي بفضائله وآدابه التي تكفل لهم رضوان الله، وتحقق لهم السّعادة والمجد.
- تحذير المسلمين من الشرك على إختلاف مظاهره ومن البدع والأفكار الدّخيلة والأحاديث المنكرة والموضوعة التي شوّهت جمال الاسلام وحالت دون تقدم المسلمين ونهوضهم.
- الحرص على جماعة المسلمين ووحدة كلمتهم على الحق وفي الحق، وهذه الجماعات المعاصرة المتكاثرة والمتحزبة فرّقت المسلمين وشوّهت الاسلام.
- على كلّ مسلم موحّد إحترام علماء الأمة وأخذ العلم عنهم، وتوقيرهم وعدم التطاول عليهم والكف عن أعراضهم وإثارة التشكيك في نياتهم وإلصاق التّهم بهم. وكلّ عالم يخطأ ويصيب، والخطأ مردود على صاحبه مع بقاء فضله وقدره مادام مجتهدًا.
- نحب كلّ مسلم بقدر ما عنده من طاعة ومتابعة، ونبغضه بقدر ما عنده من معصية ومخالفة .. ونحبّ من نصر السّنة وأهلها .. ونبغض من نصر البدعة وأهلها.
- نحبّ أصحاب رسول الله ﷺ ونبغض من تكلّم عليهم، وإذا رأيت الرّجل ينتقص أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنّه زنديق .. ولا نكفّر أحدًا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله.
- ننكر على الذين يقسمون الدّين إلى قشور ولباب .. جزئيات وكليات، ونعلم أنّ هذه دعوة هدّامة. وننكر على من يزهد في علم السنة والعمل بها وبيان صحيحها من ضعيفها، ونبارك بكلّ عمل جاد يخدم الاسلام ... بحيث لايسوقه إلى إفراط وتفريط.
- التصفية والتربية على النهج النبوي السديد والفهم السّلفي الرّشيد.
- السّعي نحو إستئناف حياة إسلامية وإنشاء مجتمع إسلامي وتطبيق حكم الله في الأرض.

هذه دعوتنا، ونحن ندعو المسلمين جميعًا إلى مؤازرتنا في حمل هذه الأمانة لنشر رسالة الإسلام الخالدة.

مكتبة الغرباء
الدار الأثرية للطباعة والنشر
استانبول ـ تركيا